العدد السابع
تموز (يوليه)
السنة السابعة

No. 7 — Juillet 1959
7ème ANNEE

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

في ذكرى الثورتين ...

رسالة من نازك الملائكة

> هذه رسالة خاصة كنت تلقيتها من الاديبة الكبيرة الآنسة نازك الملائكة بتاريخ ٢٥-١-٥٨ . وقد رأيت اليوم ان انشرها ، دون ان اتمكن من استئذان كاتبتها في نشرها ، فقد انقطعت الاديبة العراقية المبدعة عن الكتابة « للاداب » ولي منذ حين ، وسمعت ان سلطات الجمهورية العراقية تضيق عليها اشد التضييق . والان وقد مضى عام على الثورتين اللبنانية والعراقية ، استأذن الآنسة نازك ، من بعيد ، في نشر هذه الرسالة النبيلة التي تنبض بروح عربية مرهفة ، فيما اعبر عن ايماني العميق بان العراق العزيز لن يلبث طويلا حتى يقضي على الانحراف الذي لحق بثورته الجبارة وينضم الى الركب العربي الصاعد . وتحية من « الاداب » الى نازك الملائكة والى جميع الاحرار من مفكري العراق .
>
> سهيل ادريس

ايها الصديق

الان فقط سمعت ان الجيش الاميركي الدخيل قد انجلى عن لبنان . وقد شعرت بفرحة اخاذة تملأ نفسي، فرحة لايشبهها شيء الا تلك السعادة المتأججة التي شعرت بها يوم ١٤ تموز حينما طلع الفجر وأسلمنا اول جمهورية عراقية فوقفنا ذاهلين نرقبها وكأنها تنبثق من اعماق حلم غير مصدق . لك الف تهنئة ايها الصديق ، وعسى أن تسير الامور في لبنان نحو الاستقرار والصفاء والحرية الكاملة .

بهذا الحادث الرائع نختتم الصيف الغريب العميق الذي مررْنا به هذا العام ، الصيف الذي وضعنا وجهًا لوجه امام مستقبل لا عهد لنا به . وكم اتمنى لو انني املك الموهبة القصصية المركزة لاكتب قصة اجعل نفسي بطلتها واصور فيها احداث العالم العربي من وجهة نظري العاطفية المحضة .

اني اتذكر جيدا ، ايها الصديق ، ذلك المساء الصامت الموحش الذي مر على منزلنا في يوم من شهر تموز ، وخيمت علينا فيه الكآبة حين سمعنا نشرة الاخبار . كان يوم ١٠ تموز ، وكنا ثلاثة اشخاص : انا واخي عصام وخالي ، وكان منزلنا شبه خال بعد ان سافر اهلي الى ايران للاصطياف . من نشرة الاخبار علمنا ان الجيش العراقي سيرسل الى لبنان لمقاتلة الثوار الشرفاء الباسلين ، وان نوري السعيد يدبر في لندن خطة شيطانية يضم بها لبنان الى حلفه الوضيع المعروف بحلف بغداد ، لكي يتاح لجيشنا ان يحارب اخواننا اللبنانيين بصورة رسمية . وجلسنا نحن الثلاثة نتحدث في ذلك كله في ضيق وقلق ، وقد اتفقنا على ان نوري السعيد سيفعل

مايريد حرفيا وان كان الشعب العراقي كله يتأجج سخطا . وكانت فترات من الصمت تقاطع كلماتنا الواجمة ، ولكن المي انا كان اشد من الم الاخرين . فقد اعتراني احساس كئيب بالعجز وعدم القدرة ، وقررت انه لامفر لي من ان احتمل ان يحدث لي ذلك الشيء الفظيع : فارى الجيش العراقي يقاتل اللبنانيين الاعزاء دون ان املك ان اصنع اي شيء. وفي سورة الالم البالغ قلت بلهجة ساذجة ، لهجة العاجزين : « اسمعوا . اذا حدثت معجزة وقتل نوري السعيد فسوف ... سوف ارقص في الشارع فرحا ... » وقد انتهز خالي الفرصة ليخفف من كآبة جونا بالمزاح فقال لي « ماذا ؟ ترقصين في الشارع ؟ انت ؟ عار على اسرتنا ياعزيزتي ! » ثم التفت الى عصام وقال له وهو يصطنع الجد : « لا مفر لنا انا وانت من ان نرقص معها اذ ذاك لكي نحمي الموقف امام الناس ! » وقد ضحكنا عند هذا .

ولم يخطر لي ايها الصديق ان الحياة الكريمة كانت تشاهد المي في تلك اللحظة وتعد لي مفاجأة سخية حنونا فتعطيني تلك الهدية المذهلة : ثورة ١٤ تموز . لم احلم بان يبلغ لطف الحياة الى هذا الحد فلا يحارب الجيش العراقي أحباءنا اللبنانيين وانما – على العكس – تندك عروش اعدائهم في العراق ويتبددون في الشوارع لا يملكون حتى قبورا لرفاتهم . لم تصل تمنياتي الى درجة ان احلم بنشرة اخبار من بغداد لاتسمي الثوار اللبنانيين « سفلة » و « رعاعا غوغاء » و « متآمرين » بل تمجد نضالهم الشريف وتسنده بكل صورة . في الحق ، ايها الصديق ، ان احلامي نفسها لم تصل الى هذا الحد ، فقد كان يأسي من الموقف بالغا لانني اعرف منذ طفولتي من هو نوري السعيد وكيف تندحر على يديه آمالنا ونخرج بالخيبة من كل محاولة للتحرر .

مهما يكن ... كانت جلستنا تلك ، انا وخالي وأخي ، قبل الثورة بايام معدودة . وقد جاءتني الايام التالية بمزيد من الالم واليأس . فسمعت باذني ترتيبات سفر فرقة من الجيش العراقي يوم ١٣ تموز الى عمان حيث ستنتظر ايعازا من نوري السعيد لدخول لبنان . وعرفت موعد سفر فيصل ونوري السعيد الى تركيا لضم لبنان الى حلف بغداد . ولاح لي الموقف هستيريا ولكن ما العمل ؟ ثم رحت اعذب نفسي بالتصورات القاسية ... نصف الليل يوم ١٣ تموز... شوارع بغداد ساكنة مقفرة ... ولكن في معسكرات الجيش حركة ... ان هناك مدافع ورصاصا وقذائف تحشد وتعد ... ثم تتحرك الدبابات والاليات وتتجه الى شارع دمشق ... الى جسر الخر ...الى مدينة المأمون الى حدود العاصمة صوب لبنان . وتخيلت كيف سأشعر انا في تلك الساعة وما الالم الذي ساحسه وكيف سأكون عاجزة حتى ان اصيح « قفوا ! » لا انا ولا الشعب العراقي كله ..

والتصورات ايها الصديق اشد دائما من وقع الحقيقة. ان مخاوفنا من وقوع الاشياء اكثر ايلاما من الاحداث نفسها . وهكذا عذبت نفسي في تلك الايام الثلاثة. وشاءت مصادفة محضة ان يقع لي حادث شخصي اذ ذاك فيضيف الى ألمي لمسة اخيرة . ففي يوم ١٢ تموز مرت سيارة رعناء ودهست قطتنا الجميلة الوديعة « لاميا » التي انا مولعة بها بصفة خاصة . ولم يشهد الحادث الا نسرين الصغيرة فحرصت على ان تكتمني النبأ اطول مدة ممكنة ، حتى حمات الجثة ولم يعد للقطة وجود . وعندما عرفت النبأ المحزن يوم ١٣ تموز كانت المفاجأة بالنسبة لي غير محتملة فهزتني اعنف مما كانت ستهزني لو انني عرفت الحادث فور وقوعه ..ولم ينجح اي شيء في تهدئتي لا الضيوف الذين اصروا على ان اجلس بينهم ،ولا محاولاتي الجاهدة. وما كاد الضيوف يذهبون حتى سقطت في اغفاءة عميقة الغور . كنت ادري جيدا انها الليلة التي سيرحل فيها الجيش العراقي ليحارب لبنان ، ولكني كنت من الاعياء بحيث نمت بلا حراك نوما متواصلا لم استفق منه الا على صوت قذيفة مدفع هزت جدران المنزل .

للنائم الذي يستيقظ على دوي هائل قريب منه يمر بتجربة غريبة . ان الوجود يتأرجح لحظات وتختلط الاصوات بالمناظر اختلاطا لا تفسير له . في لحظة واحدة وجدت نفسي اقفز حافية واواجه عصام الذي قفز مثلي. كانت مئات من العصافير المروعة والحمامات قد افزعها الدوي فقفزت كما قفزنا وتبددت في ارجاء الفضاء وملأت الجو بحفيف اجنحتها وكان الافق احمر قانيا والفجر رطبا . وقبل ان تتبدد اخر اثار النعاس والدهشة اندفع الى سطحنا اطفال الجيران – في بغداد ننام على السطوح خلال الصيف – في فزع شديد . وقع كل هذا في لحظات بينما اثبت لنا الوعي الكامل اننا لانحلم وان هناك معركة مدافع ورشاشات حامية في الضفة المقابلة لنا من النهر .

كيف كان يمكن لنا ان نحزر معنى هذه المعركة في غبش الفجر ؟ لقد هرعنا الى جهاز الراديو وكانت اول كلمات نطق بها حين ارتفع صوته هي هذه : « تسمعون الان لعلعة المدافع الرشاشة وهي تحيط بمنزل الخائن نوري السعيد » ثم اعلنت الجمهورية العراقية وانهال مذيع متحمس بشتائم مسجوعة حارة على كميل شمعون وذكره بانه اراد ان يرى العراقي يحارب اخاه الحبيب في لبنان ثم سأله ان يتأمل النتيجة وكيف نصر الله اللبناني المجاهد وقضى على عدوه نوري السعيد .

في وسعك ايها الصديق ، ان تتصور ماذا كان وقع هذه الكلمات الحلوة في نفسي وانا اصغي اليها ولم يزل جفني مثقلا بالنعاس بعد ليال مسهدة بالقلق والالم . لقد كان كل ذلك اشبه بالحلم فرحت اضحك وابكي معا . واندفعنا يعانق بعضنا بعضا . وانقلب منزلنا الى مسرح لاعظم فرح جنوني مررنا به طيلة حياتنا . كنا في شبه هستيريا من الغبطة والسعادة ، وقد حملنا اغصانا خضراء وخرجنا الى الشارع مع الناس كلهم . ومهما عشت فلن امر بمنظر يشبه منظر بغداد في ذلك اليوم الهائل . لقد كان هناك سكر بالفرح وجنون لا مثيل له .

ولكن الفرحة كانت فرحتي انا اكثر من اي انسان اخر . لقد عددت هذه الثورة عطفا هائلا من الحياة علي انا بصفة خاصة . وقررت مع نفسي ان الالم البالغ الذي شعرت به في الايام السابقة هو الذي اشعل النار الشريفة النقية في قلوب المؤمنين من رجال الجيش العراقي . هل هذا كلام ساذج ؟ لاادري . ولكني احسب ان للاشياء منطقا اعمق من المنطق الظاهري . ان الحياة مترابطة اكثر مما يلوح لاذهاننا الواعية . وما يشعر به فرد مستوحش اعزل يملك علاقة وثيقة بالحياة كلها ويؤثر فيها ويستثير . افلا يستطيع المي العميق ورغبتي الغلابة في ان يمتنع الجيش العراقي عن محاربة لبنان ، الا يستطيع ذلك ان يحقق رغبتي بصورة ما ؟ لاادري ، مرة ثانية . ومهما يكن من امر فان الحياة قد وقفت في صفي ونصرتني . بدلامن ان يذهب جيشنا الى لبنان سار الى عروش الحكومة العراقية الطاغية وقوضها ودكها واقام مكانها حكومة تحب لبنان وتنصر ثورته العادلة . ولذلك جلست ذلك اليوم في ركن هادىء وشكرت الله في صمت وخشوع على انه حقق أملي وانتشلني من ذلك الهم الذي جثم على نفسي اياما طويلة . لقد كان كابوسا رهيبا ايها الصديق وقد انقذتنا الحياة السمحة منه .

ثم ماذا ؟

انقضى ذلك اليوم السعيد وجاءنا يوم ١٥ تموز بالخبر المثير الصفيق : خمسة الاف جندي اميركي يحتلون لبنان . ومنذ ذاك لم يعد فرحي بثورتنا كاملا . لقد كانت الثورة اصلا لان العراق لم يحتمل ان يساند اعداء لبنان ، فاي الم لنا ان تؤدي ثورتنا نفسها الى ان ينزل الاستعمار جيوشه في لبنان وفي الاردن ؟

لذلك ، ايها الصديق ، اشعر اليوم بغبطة اخاذة واحس ان الفرحة بثورتنا قد اكتملت. الان اهنئك واهنىء نفسي واهنىء العروبة كلها . اننا قد انتصرنا .

المخلصة
نازك الملائكة

بغداد

أوريانتيا

اوريانتيا
صديقةٌ من آسيا
الأنفُ من شيراز .. والعينان من قفقاسيا..
والشفتانِ زهرتا أضاليا ..

...

أوريانتيا
تكوّنتْ من رغوة البحارْ
من نكهة المانجو ..
من الأصدافِ ..
والمحارْ..
من كل ما في الهند
من طيبٍ ..
ومن بهارْ..

...

أوريانتيا
شاحبةٌ .. جمّلتِ الشحوبْ
دافئةٌ ..
كالبنّ في مزارع الجنوبْ ..
تائبةٌ .. من قال ؟
جلَّ الحسنُ أن يتوبْ ..

...

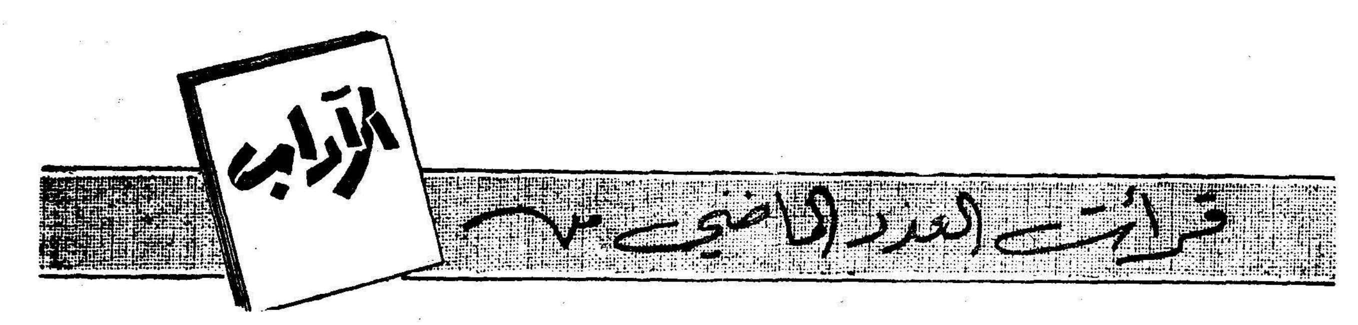
أوريانتيا
نهدانِ واقفانْ
كقُبَّتيْ نحاسْ ..
في ذَهَب المغيبْ ..
صحنانِ صينيّانِ رائعانْ ..
قلعانِ من لهيبْ
تزوّدا من آسيا ..
بزهرتيْ جاردينيا ..
بعنبرٍ .. وفلفلٍ .. وطيبْ
وَحبتيْ زبيبْ ..

...

أوريانتيا ..
شاحبةٌ جمَّلتِ الشحوب ..
أوريانتيا
أَحرُّ ما عرفتُ .. من توابل الجنوبْ

بكين – الصين

نزار قباني



القصائد

بقلم الدكتور احسان عباس

مقدمـة :

الحديث عن الشعر والنقد في هذه الايام دخول في تجربة . لست اوثر العافية فاحجم عن المشاركة في هذا الباب ، ولكني ضعيف الصوت في ميدان يملاه الضجيج . مطلوب الي ان اقول شيئا فيما احتواه هذا العدد (٦ : ١٩٥٩) من نقد وشعر . اين اجد طريقي وكيف اجدهـــا اذا كان امامي تعريفات متنوعة الشعر يضعها نقاد عارفون : محيي الدين محمد يقول :

« الشعر قلق مسجون وحلاوة منطوقة » ويقول : « فديوان الشعر غناء قبل كل شيء والغناء نغم وعواطف » . ونازك تقول : « ان الشعر في الحالات كلها انفعال جميل ونشوة موسيقية وانصباب صور ». وتنفعل سلمى الخضرا من هذا التعريف فتقول : « الشعر توسيع المداركوترويض للخيال وارهاف للحس ، وهو فوق ذلك طرح للمشكلات تحت الاضواء». لماذا يلجأ النقاد الى فرض صور معينة محدودة على الشعر بهذه التعريفات « الشعرية » ؟ اننا في المحاولات النقدية ندرس « شعرا » ولا ندرس « الشعر » ، ونتناول « قطاعا » اسمه ديوان – او قصيدة احيانا – وقد قبلناه في نطاق الشعرقبل ان نوجد للشعر تحديدا جامعا ، وغايـــة مانستطيعه – في تواضع – ان نجد مقدار المسافة بينه وبين مااستقر في نفوسنا عن الشعر استقرارا لايقبل التحديد الكلي . فمثلا : حين يطبق محيي الدين محمد رأيه في غنائية الشعر والحلاوة المنطوقة علـــى ديوان كامل – ابتداء – من هذه الزاوية ، أتردد في قبول رأيه ان كنت ممن لايؤمنون بنظرته هذه ، لاني قد أومن مع سلمى الخضرا ان الشعر « طرح للمشكلات تحت الاضواء » . هاهنا يكمن السر في مدى الاختلاف بين النقاد انفسهم ، فاين القيمة المشتركة التي يلتقون من حولها ، بـل اين القيمة الثابتة التي يعتصم الناقد الواحد بحبلها ؟ ان محيي الدين نفسه في « المانيفستو » الذي يحدد به مسؤلية النقاد (ص ٧٠) يعيب على النقاد انهم يرصدون العمل الفني من زاوية واحدة لان ذلك – فـي رأيه – يجعل العمل الفني تقريريا جدا ، لدرجة اننا ننسى فنيتـــه وانسانيته . ولكن اي شيء هو تناول ديوان كامل باسم الغنائية والحلاوة المنطوقـة ؟ وتأكيدا للفوضى في الراي حول مشكلة كهذه تقول سلمى : ان اي ناقد « ينتخب لنفسه منهجا معينا قد يكون ضيقا وقد يتسع لجملة مفاهيم » وتسمح للناقد ان يختار الزاوية التي يريدها .

الناقد مظلوم – يتزيا بزي الظالمين تغطية وتقنعا – لانا ان عرفنا ما نريده منه ، كانت مطالبنا باهظة ، وان لم نعرف مانريده حاسبناه علـــى تقصيره في الكشف عن ذلك المجهول . واكبر ظلم يصيب الناقد فانمـــا يتوجه اليه من الفنان او الشاعر نفسه . ليس هذا حكما عاما وانما اثاره في نفسي قراءتي لرد ملك عبد العزيز على محيي الدين صبحي فيمـــا اخذه على قصيدتها « ذكرى جواد » . اذ يبدو من سياق ردها ان بعض البديهيات مايزال موطن اخذ ورد في عالمنا العجيب . هل يستطيـــع احد ان يصدق بان الشاعرة تعيش في واقع الحياة حين تقول في الدفاع عن قصيدتها : ان بطلها « ظل وحده خلف ربوة صغيرة يحارب الجيش الجرار » ؟ فاذا قيل لها ان هذا التصور يشبه تماما تلك الافلام الاميركية السقيمة التي تتعلق برعاة البقر قالت : ولكن هذا هو ماحدث فـــي الواقع . واؤكد للشاعرة انه ان سلمنا بهذا الواقع لم نسلم بقبوله مادة للفن ، اذ ليس يصلح كل واقع ليكون كذلك ، فالواقعية الفنية هي تصوير « الامكان » نفسه وان لم يقع . مظلوم والله محيي الدين صبحي ، وموقفه مثل على مايعانيه الناقد من تحكم المنشئين والشاعرين .

النقـد :

المقال النقدي التطبيقي الوحيد في هذا العدد هو مقال الاستـــاذ محيي الدين محمد حول ديوان « مدينة بلا قلب » للشاعر احمد عبـد المعطي حجازي ، وهو استقراء جيد يسلك المنهج التطوري في دراسـة ديوان كامل ولكن التطبيق فيه يتوجه ناحية غير التي يقولها الناقـــد في تحديد الشعر ، فهو يحدد شيئا ويدرس شيئا اخر ، ويكاد يعدم مافي مقاله من اراء صائبه حين يقول في ختامه : « والنغم والعواطف تفترض ان نكون وحيدين مع انفسنا ، وما يفعله النثر بالشعر اقرب جدا الـى ما يفعله الفهد الجائع بالظبي المسكين » وهذا رأي قد يبطل عمل النقـد ويقتلع المحاولة من جذورها . غير انا اذا استثنينا هذا التلطف المجامل وجدنا محيي الدين محمد قد اهتدى الى « العقدة » التي تتناثر من حولها قصائد الديوان ، وهي عقدة الريفي امام المدينة – لا عقدة الفرد امـام الحضارة – الا ان الدراسة تبدو مفتعلة في بعض نواحيها ، ولعل مقدمة الاستاذ رجاء النقاش مسئولة عن هذا ، لانها حجرت الطريـق امـام الناقد . ومن مظاهر الافتعال عجز الناقد عن ان يظهر « الخيط » التطوري في الديوان من خلال تقسيماته ،فالمرحلة الثانية قد تظهر في الرابعـة والفروق بين المراحل الثلاث الاولى غير قائمة . ومن عيوب هذه الدراسة ان الناقد رفع امام ابصارنا انموذجا وقاس عليه ديوان حجازي – رفع « الناس في بلادي » وجعله معيارا ، واذا كان لدينا شك في قيمة هـذا المعيار ، كان ذلك جورا على حجازي نفسه ، وتشكيكا لنا في قيمة ما بلغه، وما أداه . كذلك فان الاستاذ محيي الدين الذي ينادي بالموضوعية فـي النقد قد اثار الريبة في هذا المقال حول « سلامة » موضوعيته، فهو اذا استشهد بشيءمستحسنقال«للصديق»صلاحعبدالصبور،«للصديق»تاجالسر الحسن، واذا ستهجن قال مثلا: «او اذا كنتم لا تصدقون انه ضمالىمجموعة مطبوعة فارجعوا اذن الى اغاني المعركة لابراهيم شعراوي تجدوا مايسركم » او قال : « وقد رأيتم نماذج شعرية لهذا النوع ، والايام القادمة سـوف

تكشف كثيرا منهم فقد سمعت ان اكثر من ديوان يعد الان في المطابع ». وانا لا انكر عليه صداقاته وعداواته ، ولا شأن لي بها ، ولكني أخشى ان يكون الرجل الموضوعي متهما ،اذا انحاز الى مثل هذه « المظاهر » في التعبير عن صدق موضوعيته .

واقول : لقد قرر الاستاذ محيي الدين ان الشاعر انتهى الى مرحلة الالتزام السياسي ، وكنت افضل لو انه وجد العذر للشاعر في بعض ماشاب قصائده من خطابة او هتاف في هذه المرحلة – وجد له العذر في هذه الحقيقة نفسها ، فان اخر مراحل التطور عند شاعر شاب هي اولى مراحله في طور ثان من حياته ، وهذا يجعلنا نؤمل ان يتحول عبد المعطي على اسس صحيحة ، وان يقدم لنا – مع الالتزام – شعرا كالذي يريده محيي الدين او خيرا منه .

واكثر ماتبقى من نقد في هذا العدد من الاداب ، فانما اثارته نازك الملائكة بما كتبته من بحوث ومقالات في اعداد سابقة . ونازك عميقة في فكرتها متأنية في حوك آرائها ، غنية بمعرفتها ، ولذلك كان كثير من المادة التي حام بها الادباء حول آرائها لايعدو ان يكون تلخيصا او ترحيبا او استشكالا في الجزئيات ، فقد لخص آرائها ناجي علوش ، وكان موفقا في الكشف عن جانب من التناقض في آراء نازك، وهو تناقض اقره لانه ينبع من صميم موقفها الفني. ولخص آراءها الاستاذ عبدالرزاق البصير ليعلن في النهاية عن تردده في قبول الشعر الحر ، وناقشها الاستاذ الحساني حسن عبد الله في امور عروضية دل بها على اطلاع جيد ولكنه ايدها في دعوتها – من الناحية العامة – الى الاهتمام بالعروض . ورحب بفكرتها الاستاذ موسى صرداوي حول « منبر النقد » .

واسهمت سلمى الخضرا بمقال في مناقشة نازك لم استطع ان اتبين فيه خلافا في الاصول بينهما ، وكل ما هنالك اختلاف في تفسير بعض المظاهر والجزئيات الصغيرة . وترى سلمى ان النقد في باب (قرأت العدد الماضي) لابد من ان يوكل الى اناس مختصين ، وهذا مطلب جيد لايقوم فيه تنازع ، ولكن تحديد المختصين والعثور عليهم امر عسير (ارجو الا يكون الدكتور سهيل ادريس قد اخطأ حين وكل الي قراءة هذا العدد) (*) ولو كان هنالك نقاد مختصون – كما تقول – لصح ان يكون لكل مجلة مستشار نقدي ، بل مستشارون ، ينظرون فيما يصل اليها من شعر وقصص ومسرحيات ويرفضون منه مايرفضون فيخف العبء بعد ذلك على من يكتب هذا الباب (قرأت العدد الماضي) . ثم هي ترى اهمال الاثار الضعيفة . وأقول : ان الاهمال سلاح نقدي ايضا ولكن لا بد من ان يكون الناقد احيانا معلما يؤشر بالقلم الاحمر او الازرق على الاخطاء اللغوية والعروضية حين تكون القوة الشاعرية مؤاتية تبشر بخير .

ولست ارى ماتراه سلمى من ان هناك نوعين من النقد بل ان الكشف عن الاخطاء العروضية واللغوية تبيان لعجز القصيدة نفسها عن الوصول الى نفوسنا بما قام في طريقها من « معوقات » شكلية واذا كان النقد التقويمي (الذي يظهر قيمة القصيدة) ضروريا فان الكشف عن اخطاء البناء جزء لاينفصل من هذا النقد نفسه . ولنازك الحق في الاصرار على هذه الناحية والتشدد في شأنها لان التجديد في الشكل – وهو المظهر اللافت في شعرنا الحديث – يجب الا يكون صادرا عن جهل ، فذلك يصم كل انواع التجديد في نظر المترددين والمحافظين ويذهب المصيب بجريرة المخطىء . وقد طغى التهاون في العروض واللغة حتى عند شعراء يعدهم بعض النقاد في طليعة المجددين .

على اني أؤيد سلمى في ان لايتعرض لنقد العروض الا من يحسنه ولكني أؤكد لها اني لا أطمئن الى ناقد للشعر لايعرف فروق الايقاع . اذ كيف يمكن ان يسمى مثل هذا الناقد مختصا – كما تتطلب سلمى – وهو يجهل الاصل الموسيقي في فن عماده الموسيقى . لذلك فان من حقنا الا نضع القصيدة في يد شخص لايحسن الا قراءة مضمونها وقياسه على نظرات اجتماعية او نفسية او سياسية . وبعبارة اخرى : كل ناقد للشعر لابد من ان يدرك الشيء الكثير من أسرار النغمات العروضية ، ولكن ليس كل عروضي ناقدا . ولقد كتب الاستاذ الحساني عبد الله مقالا في هذا العدد في امور عروضية فدل على تمكن فيها ، ولكنه لم يدع لنفسه محاولة في النقد .

الشعر :

لو اخذت برأي سلمى في اغفال الاثار الضعيفة لتجنبت الحديث عن اكثر القصائد في هذا العدد . ولكن كلمة الحق المريرة ذات وقع كالاغفال حيانا . وسأقول كلمتي في كل قصيدة على حدة بعد هذه المقدمات اليسيرة :

١ : ان القصائد – في هذا العدد – تتجه في وجهتين – على نحو عام – :

بعضها يؤمن بالبطل المنقذ ،ويعيش مترقبا له ، او يهتف باسمه ، ويجد وجوده او ضياعه بنسبة الامل فيه ، وبعضها يتجه الى تصوير الضياع الفردي ، ويتغنى بهذا الضياع ، على نحو مريض من القلق .

٢ – ان نقد قصيدة غالبا مايكون انطباعيا – في مثل هذه الاحوال – ولا تتيسر له الامكانات التي يجدها الناقد اذا درس نتاجا متدرجا لشاعر من الشعراء فهناك فروق كثيرة بين نقد القطعة الواحدة ونقد الاثار

(*) تتمنى رئاسة التحرير ان يتولى مراجعة الاعداد دائما امثال الدكتور عباس من النقاد والدارسين المتعمقين «الاداب»

المتكاملة وهذا شيء غفل عنه بعض النقاد الذين تجادلوا حول النقد عامة – في هذا العدد – .

٣ – ان نقد القصيدة من الشعر الغنائي امر بالغ العسر منذ عهد ارسطاطاليس الذي اهمل هذا النوع من الشعر واوجد قواعد للمسرحية والملحمة فحسب ولذلك فان بعض النقاد الغربيين المعاصرين حاول ان يطبق قواعد النقد « الدرامي » على القصيدة الغنائية . وقد يبدو هذا ضربا من التعسف ولكن بعض الشعر الحديث يسمح بقسط كبير من « الروح الدرامية » غير ان المقياس الذي ينطبق على جانب واحد من الشعر ليس هو بالمقياس العام . لم يوجد بعد النقد الذي يضع للشعر الغنائي معالم وصوى يهتدي بها جمهرة النقاد ولذلك فان ما اقوله في هذه القصائد لايعدو ان يكون « ملاحظ » أثارتها تلك القصائد في نفسي ، هي اقرب الى التعليق منها الى النقد .

النجم الاخضر وقتيلة الموصل – لسليمان العيسى

ليس من السهل نقد هذه القصيدة لان التجرد الموضوعي – تحت وطأة الواقع الراهن – امر يشارف المستحيل . واذا اردت ان تطبق عليها مقاييس معينة من النمو والاكتمال والوحدة الشعورية .. الخ استعصت على كل ذلك . الا انها قصيدة – قصيدة ذات حظ كبير من القوة والخطابية والانفعال والاثارة – وجانب الاثارة فيها اقوى من جانب التأثير – . مثل هذا النوع من الشعر يحتاج نظرة نقدية مستقلة لاتستمد احكامها من النقد الغربي ، فهي كالموسيقى العربية فيها هذه الدورات المتكررة المطربة التي لا تنمو ولا تتدرج ولكننا نستعذب فيها التكرار ويهيج فينا الحزن او الفرح لدى سماعها . والموسيقى العربية تحتاج ايضا معيارا مستقلا من الحكم والنقد والتقدير .

لا مفر – لفدوى طوقان

تفقد التدرج وفيها انكار مفاجيء لانفتاح الامل على « ولادة جديدة » ، فيها خط منكسر ، يمتد لحظة ثم لا يلبث حتى يتنكر لنموه وينحرف الى معانقة « المحال » . صورة مرعبة من صور الحتمية التي لا تتسلل الى انفسنا بلطف وانما تفجأنا بنور ساطع من التقرير يغشي أعيننا . لاشيء يفقدنا الايمان الذاتي كهذه الخطرة التي تريد ان تفقدنا جدوى « البعث الجديد » مع ان المارد في القمقم ويونس في جوف الحوت والمصلوب على الخشبة لا يفقدون الامل في التغلب على ذلك الشيء الخفي « القابع في اعماق الذات » . هل نحب الشعر الذي يلقي بنا في هوة الانكار العدمي ؟ .

المدينة والثائر الشجاع – ناجي علوش

مسترسلة ، خفيفة النغم والنبضات ، تستشرف المنقذ الذي « يمتد كالعملاق من مغارة الظلام » . سلمت من الخطأ الاجتماعي سلامة جزئية حين اوجدت حركة في الجماعة مع الحركة في « الفرد الاعظم » ولكنها تردت في خطأ فني دقيق ، فهي في تصوير الانبعاث تستنيم الى وساوس المخاوف وتحس بالركود يغشيها . وهي حين تحاول ان تنقل معنى الانطلاق للنضال تقيد نفسها بالاحلام الرعوية الخاملة المتمطية التي تريد ان تخلد بصاحبها الى الراحة في « ظل نخلة على الضفاف » وتتوجس خوفا من ان يفلت النوم . وتتحطم القصيدة بين « البعث » المتغلب والخوف من الانتكاس ، بين التعلق بذيول المنقذ ، والتعب الذي تراوده سنة النوم « مدينتي اود لو انام في ظل نخلة هنا » فان كانت كلمة « تتحطم » حكما جائرا عليها فقل : ان « صلب » القصيدة قد اصابه شيء من الوهي والخلل .

القصيدة العربية – لجورج رجي

مقطع القول فيها انها ليست قصيدة وليست عربية وهي خير مثل على انزلاق الكلمات عن مواضعها الحقيقية في ذهن الشاعر ، وخير مثل على ضخامة الموضوع وقماءة التعبير . نبرات قوية ، جلبة ، مطارق تتهاوى ، ولكنك تتساءل – اذا فر الضجيج – عن الروابط بين الالفاظ ؟ ماذا دهاها ؟ ماذا يعني صاحب هذا النظم بقوله : « وحفز كلما اوصى يجد » و « هزك في هنا الانهاض خلد » و « مجالات دني لا لا تصدق » ... الخ

ثلاث اغنيات للضياع – لتيسير السبول

الفكرة فيها دقيقة – حالة نفسية تجتمع فيها السآمة من شيء ما والرغبة فيه وعدم الاستغناء عنه ، ويتسرب القلق من اعماق النفس ليؤكد الرفض والقبول معا ويحوم حول الحاجة الى النفاق في سبيل الابقاء على علاقة ما – او شبه علاقة – ولكن « الاخراج » الفني قاصر – وان لم استطع تعليل ذلك في هذه اللحظة ، ولعل تذكري قصيدة لنازك بعنوان « لنفترق » ، وهي عمل فني مكتمل في موضوع مشابه ، هو الذي يجعلني أرى في قصيدة تيسير مسخا هزيلا .

يابيتنا – لحامد حسن (في الفهرست انها لمحيي الدين محمد)
أغنية تتحشرج بكثرة الاستفهامات ، اخرها عن « الحساد » لاعلاقة له بموضوعها العام .

بلادي – لموسى صرداوي

مثل على بحر الرجز ، تفعيلاته سليمة .

بيروت **احسان عباس**

العودة من النبع الحالم

(الى الصديقة ليلى البعلبكي)

— ١ —

ان صدرنا بعد جهد مرهق عن نبعنا
لا تلمنا ، نزو اغراء ولهو مستحيل
ومياه النبع لاتروي من الشوق الاصيل
في حنايانا ، فكم جدنا لها من دمعنا .
نحن لانروى وان نروي وهذا داؤنا الحلو الوبيل .

★★★

نحن ادرى اي عيش من تباريح ونار
في دنانا ، افتات قاقات وجباه واجمه
وجذور قطعتها مدية الامس البوار
وانتفاض وشكوك في حياة غائمة .
انما قد كنت حلما سيوافيه النهار
كي نعدي عن دنا تنفض عطرا ونوار
واحة مرشوقة ظلا ونجوى حالمه .

★★★

كان حتما ان نعدي عن دناك
بخطى حيرى وآهات طويله
يا انطلاقا يغتوينا ، ياهروبا من حياة مستحيله !
نحن ادرى اي عيش في دنانا ، اي درب اهلاك
يوم عفنا الحلم كي نفنى مع الدنيا العايله
يوم عفنا النبع تدعونا اليه مقلتاك
وحياة من اثير ومتاهات جميله .

★★★

نحن لن ننسى ، ستبقى شفقا حلوا مصرا
كنت دنيا من جمال لايدانى
كنت حلما من حرير
نحن كنا نتمناك لهيبا مستمرا
غمرات ليس تذوي وحنانا
قبلات ليس تفنى من عبير —
انما لما صحونا ، وتفقدناك في الكون الكبير
لم نجد الا تهاويل خيالات وذكرى
فعلمنا كيف وافاك المصير .
ياثراء لفنا روحا وعمرا
ياخلودا في حنايانا نضير
يا انتشاء زادنا حسا غماميا وسحرا
كيف لانحييك في اجفان ماضينا الاثير .

كل شيء واجم من حولنا ، خاو ، معرى
نحن والاغراء والاشواق والعمر القصير
امسنا المضني لهيب في الضمير
غدنا المجهول ارهاق وخوف لن يقرا
كل شيء فاتر من حولنا ، ضحل فقير .

★★★

سوف نعطي العيش ان ارهقنا صدرا رحيب
ونغني لبلاواه ونرعاه « باحساس وعين »
ونعري قلبنا السمح الخصيب
لمدى تغرز في الأضلاع ، في العمر الرتيب
ليس هذا العيش عنا بالغريب
قد صحونا .. لن يشع الحلم فينا مرتين !

— ٢ —

لن يشع الحلم فينا مرتين .
كم تشبثنا به قبل تلاويح النهار .
كم ترجيناه ان يسري بنا عبر القفار
لمكان لا تراه الشمس لا تعرفه عين الدهور
سابح بالوهم ، مغسول بألوان الغرور
نحن ماذا لو حلمنا برهتين ؟
فلكم ذقنا هموم العيش يوما وارتوينا
ولكم ارخت سجوف الغم بالامس علينا
ولكم خيبنا ، خيبنا دهر غدور .

★★★

عبثا نحن توسلنا الى الليل ليلقي فوق دنيانا دثار
عبثا نمسك هذا الحلم اذ يهرب منا
لفنا الدولاب .. وانطلقت خيوط الفجر تنفي الوهم عنا
كي نلبي هذه الشمس التي تومي الينا في تلاويح النهار
وانثنينا عن دروب حالمات مذهلات
لم نسرها قبل في اسفارنا
وتلفتنا نلم الشعث في اغوارنا
فضلة من جراة نحيا بها عبر السنين الباقيات
وبقايا امل يخضر اذ نطوي القلوع الشاردات
كان حلم .. وصحونا . كان يأس .. وتراجعنا الى درب الحياة

★★★

كان حلم وهروب يائس وتلاوين كذوب
فلماذا غرنا الحلم واغرتنا السرابات اللعوب .

نحن قد ولدتنا امنا بالامس احرارا ، كراما ، اقوياء
نعبد الواجب ، نهوى الخصب فينا والعطاء
فلماذا يعترينا خدر في روحنا وتغاوينا الينابيع السروب
ولماذا ننتشي بالحلم او كنا نفوسا سعداء .

***

نحن من جيل اليتامى ، نحن من جيل القلوب الضائعه
امنا قد كونتنا من جحيم الامس من لوعته
من تباريح قرون هاجعه
فاذا ما ولدتنا فوق جفن الفجر ، في روعته
وتفتحنا وقد اعشى مآقينا السنـا
نحن لم نغتر ، لم نهتف هي الدنيا لنـا
حلوة ، غراء ، نشوى ، رائعه .
بل عرفنا حظنا
ورمينا العمر في ميعته
بين فكي الحياة الجائعة

***

نحن ذقنا اليتم والخوف صفارا فحزنا
وعرفنا القلق المكبوت والذل شبابا فجننا
ثم ثرنا ، وانتقمنا لشباب ضاع منا
ضاع منا ... في احاديث عجاف تافهات
لشباب طعم اليأس الحزين
لسنين يانعات موحشات
بددتها شهوات الاخرين .

***

نحن دسنا النار في غيضاننا
وخنقناها ، ولكنا احترقنا
وغسلنا الرجس عن شطآننا
وموانينا ، ولكنا غرقنا .
وانتشلنا من مهاويها النجوم
منحة نهدي الى اطفالنا
وبنينا بيتهم فوق الغيوم
وانزوينا نحن في اوحالنا .
وملأنا الارض ايمانا وخصبا
ثم ملنا نجتني منها الثمار
فوجدنا الثمر المنشود فجا
وعلمنا اننا كنا البذار

***

فاذا ما لفنا الحلم وانسانا شجانا بعض يوم
فلكم تهنا على درب الحياه
ولقد كنا بذلنا سلفا
ثمن الحلم جفونا شاحبات .

سلمى الخضراء الجيوسي

العقل البشري

للقصاص الأرجنتيني ادواردو ماليا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

يعتبر ادواردو ماليا (ولد عام ١٩٠٣ في باهيا بلانكا ، بالارجنتين) في طليعة قصاصي اميركا اللاتينية المعاصرين . وقد صدرت له عام ١٩٢٦ مجموعة قصص مدهشة بعنوان « قصص لانكليزية يائسة » وبعد عشر سنوات ضم في مجموعة بعنوان « المدينة على شاطىء النهر الخالد » سلسلة من القصص تكشف ، عبر تجارب شخصية ، حضور المدينة الكبيرة ، وقلق البشر ، ووحدة كل كائن ضائع في ذاته كأنما هو ضائع في لبيرنت من الاحلام والشكوك . ويرى القارىء مؤلف هذه القصص يتابع بدقة مرهفة الصيرورة الداخلية لشخصياته . فكأنما عينه عدسة سرمدية اليقظة تلتهم كل التفاصيل والاحداث ، وكأنما القارىء ازاء فن للتشريح النفسي . وقصة « العقل البشري » الذي اقدمها هنا للقارىء العربي ، هي احدى قصص تلك المجموعة التي سبقتها مؤلفات اخرى لماليا اشهرها « ليل اوروبي » (١٩٣٤) و « قصة عاطفة ارجنتينية » (١٩٣٥) واخيرا « عيد نوفمبر » (١٩٣٨) . وتبلغ قصة « العقل البشري » ذروة رفيعة من تحليل الشك والقلق الذي يعتري الانسان في كثير من ظروف حياته ، ويظل من ذلك في اضطراب أبدي هو ضعف الانسان وقوته في الوقت نفسه ، ولا شك في ان نهاية القصة التي ترمز الى ضياع الانسان ضياعا سرمديا لا مرفأ امان بعده هي من ابرع النهايات في القصص الاجنبية .

« المترجم »

ابتعد وكيل التأمينات سيلادونيو مونتوفيو ، بخطى سريعة ، عن البيت الصغير النائم الذي كان ينصب سمته البيضاء وسط اشجار غار « اوليفوس » ، والذي سيصبح ملكه كليا بعد ان يسدد الاستحقاق التالي ، ثم قفز الى الاوتوبيس القادم من « التيغر » الذي كان يقصد معه المدينة كل يوم . وكان سعيدا كل السعادة تقريبا : ان بوسعه ان يتقاعد عما قريب ، وسيصبح البيت الذي كان يشغله ملكه نهائيا ! ولقد داعب هذا الحلم وقتا طويلا ، وان يراه الان وهو يتحول الى واقع محسوس ، كان ذلك يضفي على روحه دفئا جديدا ، نوعا من الهناءة الغامضة الرخية . ولم يكن له اي هم اخر تقريبا . فان المدير المعاون الذي كانت تحدث له معه منازعات مريرة مذلة ، كان الان ينزع الى الغروب ، فريسة مرض خطير ، مما اشاع بين الموظفين مرونة مرحة او جذلا جديدا . اما مصاعب اخته « ادلين » التي سبب زوجها ، اي صهره الوانا كثيرة من المتاعب بسبب ادمانه على الخمر ادمانا عصيا هجوميا ، فانها تزول شيئا فشيئا اذ يدخل الزوجان ، بتأثير سحري ، في جو من الامن ، وقد بدا عليهما فيض من الفرح في زيارة اخيرة قاما بها لمنزل « اوليفوس » . وهكذا كانت عوامل الاطمئنان والسكينة تبرز له خالصة غير مشوبة .

وفكر وهو في الاوتوبيس بان امرا واحدا كان ، على تفاهته ، يعذب ركنا صغيرا من روحه . وما كان يستحق قط ان يفكر فيه لولا ان فكرة ملحة تشبه نغمة موسيقية تتردد بعناد في مسامعنا كانت تجهد في ارسال شيطان الشك الى عقله . ومع ذلك ، الم تكن في حقيقتها فكرة صبيانية ؟ ان شخصا اخر اوفر ثقة منه كان يدفعها عنه على الفور ، ولكن عوامل التشاؤم كانت تستولي عليه دائما مهما بلغت من التفاهة ، وحين تكون القضية ان يشعر بانه ضحية شيء ما ، فانه يبدو ابدا منزوع السلاح ازاء ادنى الافكار السوداء . وقد كان من شدة الادراك لنفسه انه لم يكن يجهل او ينسى هذه السمة من طبعه التي كان يختفي خلفها عنصر ضعف واضح .

وكان في الاوتوبيس ذلك الصباح اولئك المسافرون انفسهم من رجال الاعمال وعمال المتاجر ومحترفي المهن الصغيرة ، وتلك النساء اللواتي كن يظهرن كل يوم عند المحطات بوجوه مزينة مصبوغة بشكل متشابه حتى ليخيل انهن الرمز الالي للتكرار . لقد كانوا يلتقون منذ اعوام ، كل يوم تقريبا ، ولم يكونوا يتبادلون معه اية اشارة او تحية . وانما كانوا يقولون لانفسهم ، في نظرة خفية ولكنها اليفة ، بانهم قد عرفوا بعضهم بعضا .

وكان يجد من غير المعقول ان يتقبل تلك الفكرة التي لم تكن تني تتردد عليه . فبالرغم من الاهواء الغريبة التي كان ينسبها دائما الى زوجته اليس ، فقد كانت ابدا بالنسبة اليه اودع انسان واشده تعلقا ، ولم يكن يسعه الا ان يعترف بالصبر المخلص الذي رافقته به في فترات الحياة السيئة . كان يبدو عليها انها تبنت منذ الصغر هذه الهيئة الكتوم ، وتلك النزعة الى الصمت والى الامحاء والى اللجوء المفاجىء الى مناطق للبكم تبدو انها نتيجة الازدراء . على ان هذا المسلك كان مرتبطا من غير شك بوعيها بانها كانت جميلة ، وانها كانت تختلف بعض الاختلاف عن سائر النساء ، وانها كانت محط النظر منذ عهد المراهقة الطرية بسبب نضارتها التي كانت تسترعي الانتباه . وقد اكسبها ذلك شخصية ومشية وسلوكا اعتبره الاخرون احيانا تعبيرا عن تعال مصطنع . ولعل هذا هو السبب في ان ادلين ، اخت زوجها ، لم تكن تحمل لها ما كان ينبغي من الود والحب ، وانها كانت سهلة الانزعاج من صمت اليس .

غير انه لم يكن للفكرة التي كانت تستولي عليه اية علاقة بذلك . فقد كان يعتقد بان الامر يتعلق بنزعته الى التفكير او الى الارتياب ، والى مزيد من المراقبة كان يشعر غالبا بانه يقوم بها ، حتى من غير ان يتنبه اليها . كانت القضية هي التالية : فمنذ وقت طويل ، كانت تنعقد

في بيته يوم الاحد اجتماعات اصدقاء. وكانوا يستمعون الى الموسيقى، ويتناولون فنجانا من الشاي فيما هم يتبادلون الاحاديث اللطيفة او يثرثرون في مختلف الشؤون . وكانت تلك عادة يحرصون عليها حرصهم على طقس ديني وكانت تمنحهما ، هو واليس ، فرصة للتسلية الودود. وكانت غرف البيت الصغيرة البيضاء ذات الستائر المزاحة تكسب تلك الاصائل المرصودة للمحادثة الهدوء الخاص الذي يمنحه الملك الشخصي للناس . وكان بين الاشخاص المدعوين غالبا عدد من زملائه المتزوجين ذوي المزاج المرح ، وفي بعض الاحيان صديقة عازبة لاليس ، ولم يكن يحضر هذه الاجتماعات ، الا نادرا ، بعض وجوه جديدة ، ذلك انه كان خجولا وكان يؤثر الا يعكر ، بعامل اجنبي ،جو المرح والفكاهة الذي كانت تنقضي فيه اصائل الاحاد . وكان يتردد الى منزل « اوليفوس » في مناسبات قليلة طبيب للشركة ، او تاجر ، او فنان مغمور من اولئك الذين لا يتحدثون قط عن الفن فلا يرهبون الناس بحذلقاتهم. وهو لا يذكر - افي كانون الثاني ام تموز ام ايار ام حزيران من العام الفائت - التاريخ الذي كان قد دعا فيه للمرة الاولى فالانتين بورديفيرا. ربما كان ذلك في كانون الثاني ، او في تموز ، فما كان له ان يحفظ التاريخ، ذلك ان طبيعة المدعو الجديد كانت تحمل على التفكير بكل شيء الا بان يحمل على محمل الجد : لقد كان زبونا للشركة ، وكانوا يعتبرونه عازبا ميسورا جدا ، يحقق هواياته ويحب ان يضحك الناس . وكان قد اتصل ببضعة وكلاء بواسطة « فيلازا » العجوز الذي كان اول من تعرف عليهم ، وكان بعضهم يحبون اصطحابه في روحاته الليلية : فقد كان بورديفيرا يمنح رفاقه آنذاك النكتة والخمر ويسارع الى دفع كل شيء. وكان سيلودونيو مونتوفيويجهل لماذا دعاه الى منزله للمرة الاولى. لعله كان مدفوعا بالغرور ، آفة الاغراء الكبرى ، حتى يميزه رجل يملك مزايا بورديفيرا عن سائر زملائه الفقراء العديمي التنظيم ، ويعرف انه كان يملك ذلك البيت الابيض حيث يستمع المدعوون يوم الاحد الى الموسيقى. وتصدر اليس احكاما واثقة على هذا الكتاب او ذاك مما كانت تقرأ، والحق انها كانت تميل دائما الى الادب،بالرغم من انها لم تكن تتكلم الا نادرا وانها لم تكن محظوظة معه اذ لم يكونا يحبان الكتب نفسها ، وحين اتيح لها ، في مناسبتين او ثلاث ، باول عهدهما بالزواج ، ان تصدر آراءها المتحمسة حول هذا الكتاب او ذاك ، اضطرت الى الصمت شيئا فشيئا اذ رأت ، خائبة ، الثقة واللهجة الفخمة التي كان يشرح هو بها حججا معاكسة . وكان يضحك لهذا الاختلاف ، ولارائه المتسلطة ، وعزم على تجنب تبادل الانطباعات التي تخلفها المطالعة ، لانها كانت تتصل لديه بمؤلفات اقتصادية ، وتتصل لديها بالشعر او بالتمثيليات. والحق ان اليس لم تكن بحاجة الى ان تقول شيئا عن نفسها ، وكانت تبدو ابدا غائبة ، وكانت عبارة ما تلفظ امامها بين حين واخر هي التي تضيء في عينيها شعلة مفاجئة خفية .

وكان يحب ان يراها تهتم بالمدعوين ، بقامتها الجميلة الانيقة ، وحركاتها العذبة ، وملاطفتها النبيهة ، هذه الملاطفة التي كان يخفق في داخلها احتراس ما ، ولكنها بسبب ذلك بالذات كانت تبدو اشد استعجالا.

وكانت مكلفة بان تصب الحليب والشاي صبا عادلا في فناجين البورسلين وان تختار الاسطوانات وان تتحدث الى المدعوين عن الشؤون العادية : ثمن السكر او نسبة نمو اشجار الغار او الطلح . ولم يفهم مونتوفيو قط السبب الذي كان يدعوها الى ان تغلق على نفسها الباب اغلاقا محكما مساء الاحد بحجة انها متعبة . وكان نوع من الامل والعصابية يستولي عليه في تلك الفترة ، وكان يظل في الطابق الاول ليأكل قطعة سمك او حلوى ، فيما هو يتابع الاستماع الى السمفونية التاسعة او الى الحان كوزي.

وتجددت زيارات الصديق بورديفيرا طوال اشهر الى بيت«اوليفوس». ولا بد من توضيح اسم هذا الصديق ، فالحق انه لم يكن قط صديقا لمونتوفيو ، وانما كان في نظره من هؤلاء الافراد الذين يؤخذون في مظاهرهم الخارجية لا في صميميتهم ، والذين يندر ان يكون بالامكان عقد صلات ودية متينة معهم . وكان مونتوفيو اميل الى اعتباره مشهدا لطيفا ، وقد ادخله الى بيته بهذه الصفة، بالاضافة الى الهالة الغامضة الساحرة التي تظهر حول المسرفين والاغنياء في نظر البورجوازيين. وهكذا رأى مونتوفيو تأثير بورديفيرا في بيته باوليفوس يوم الاحد ، التأثير اللطيف الذي كان يحدثه على اصدقائه ونسائهم ، وتميز حديثه ورهافته ، ومرونة افكاره ووجهات نظره .

كان مونتوفيو يجلس في مقعده المريح بالصالون بالقرب من اوزوريو او من كارلوس لاغوس ، وينعم برؤية امرأته ، عبر الباب الزجاجي الذي كان يفتح على مصراعيه يوم الاحد ، وهي تثرثر مع بورديفيرا . ولم يستشعر اول الامر الا الرضى ، لان هذا المشهد كان يحمله على الاعتقاد بان امرأته كانت تعرض وجهات نظر مرهفة امام انسان مرهف ، وكان هذا الرضى يشبه ما كان يستشعره كل يوم احد اذ يرى البهجة التي يحس بها الزوار وهم يلتهمون « الكريما » او وهم يعبرون عن اعجابهم بالستائر الجميلة،وباناقة غرف الطابق الاول بمصابيحها الدقيقةواثاثها الفيكتوري. ولكنه لاحظ ذات يوم ان امرأته وبورديفيرا كانا يلتمسان العزلة - لاحظ ذلك شاردا وبلا انتباه كما هو الشان دائما حين يكون مأخوذا بالمشهد الذي يظهر عليه مدعووه ، فتساءل : بم عساهما يتحدثان ؟ ونظر اليهما فرآهما في داخل غرفة الطعام واقفين بالقرب من قوس النافذة ، مستغرقين في احدى ثرثراتهما النموذجية الضاحكة. وتلاشى السؤال بسرعة هذه المرة ، ولكنه لم يلبث ان عاد. والواقع انهما ، يوم الاحد التالي والاحد الذي تلاه، تعجلا الانعزال من جديد واستغرقا في الموضوع الذي كان يهمهما وحدهما او يأسرهما . وحدث ذات مساء ان بقي مع زوجته التي لم تصعد الى غرفتها للاختلاء على عادتها فسالها بتحبب وابتسام وفضول عن الموضوعات التي كانت تتداولها مع بورديفيرا ، فسارعت اليس الى اجابته : « اننا نتحدث دائما عن المؤلفات ، عن الكتب .» فخلفه هذا الجواب حالما لانه لم يكن يتصور كيف يمكن ان يتحدث الناس هذا الحديث الطويل عن تلك الصفحات الكثيرة المطبوعة، اللامبالية .

وذات احد ، احس مونتوفيو احساسا غريبا . لقد كان شديد الاهتمام ، هو واليس ، بمدعويه ، وكانا ينتظران معا ان ينتهوا من شيء ليقدما لهم شيئا آخر ، وكانا يتقاسمان مهمة نقل الصحون والخدمة وتلبية الرغبات بسرعة . اما في ذلك اليوم ، فبعد ساعتين من تقديم القبلات ، واذ هم بصب الخمر لاحظ ان اليس ، بدلا من ان تساعده ، كانت تتحدث في الحديقة مع بورديفيرا. واحس فجأة انه في وضع غريب مربك والصحفة في يده، وامامه مهمة ثقيلة . وظل لحظات جامدا، وهو يتمثل نفسه مسكينا شقيا تلقى على عاتقه السخرة برمتها .

وما لبثت اليس ان دخلت وهي تشع :

- هل اساعدك ؟

فاعطاها ، من غير ان يقول كلمة ، القدحين اللذين كانا انذاك في يده.

ولم يفكر في ذلك بعد، ولكن صدى بعيدا، مرا وعذبا في الوقت نفسه، صدى عبارة ملحة كئيبة اخذ يصدى في داخله. وتأمل يديه فلاحظ انهما كانتا يدي انسان متوحد، وان اليس لم يكن لها شأن بيديه. ولكنه سارع الى تبديد هذا الضباب وتلك الافكار التي كان يجترها، وانصرف كليا الى عمله واشغاله التي كانت تسير، في رأيه، على درب عريض يبعث على الرضى.

وكان قدمضى ثلاثة ايام فحسب علىتسلل الفكرة الى رأسه. وكانت فكرة يدافعها بجهد، ولكنها كانت هناك. حين عاد الى بيته، كان قد رأى اليس تعيد سماعة التلفون، في الوقت المناسب على ما خيل اليه، ثم تنهض بهيئة غريبة، وتلازم امامه صمتا رآه هجوميا مرا. وتساءل: هل تكون يا ترى قد فعلت « هذا » ؟ و « هذا » الذي لم يكن يسمح لنفسه حتى بتسميته، كان عبارة عن علاقات صميمية وغير مشروعة مع بورديفيرا. وكان قد لاحظ اشياء غريبة، بعض الاضطرابات، وبعض الحركات الخفية السرية، بصرف النظر عن انها كانت تخرج بعد ظهر كل يوم، وانه لم يكن يعرف الى اين تذهب. على ان هذه الفكرة كانت غير معقولة، من جهة اخرى، وانها كانت بتأثير من الريبة! ذلك ان امرأته كانت الشرف نفسه بضبطها لذاتها وسلطتها، فما هي العوامل والسبب الحسي الذي يدعوه الى هذا الشك؟

وفي الصباح نفسه، حين هم بمغادرة البيت فسألها بالمصادفة وهي في غرفة الطعام عما ستفعله بعد الظهر، دهش من اللهجة النافدة الصبر، الجافة التي اجابته بها:

ـ ماذا تريدني ان افعل؟ الاشياء التي علي ان افعلها. مشتريات وحاجيات.

ـ أية حاجيات؟

ـ الحاجيات العادية.

وارتدى ثيابه ومضى يستقل الاوتوبيس. وكان سعيدا كل السعادة تقريبا. وكان الاوتوبيس يجري كالسهم على الطريق المحصب بين القصور. لو كان بوسعه ان يطرد تماما ظل هذه الفكرة! ولم يكن يفتقر الى اسباب لطردها، ولكن لماذا لم تكن تمضي عنه؟ أليست الفكرة مبدأ منطقيا؟ فلماذا كانت تصر على تعذيب روحه عميقا عميقا حتى انها تكاد لا تخصه؟

لقد تساءل عن ذلك، وهو في الاوتوبيس، ممتلئا بالرغبة لمساعدة نفسه، ولكي يحرر رأسه من خيوط العنكبوت هذه، اخذ يتابع بعينيه الطريق بكل تفاصيله. وقد كان يعرف المنطقة حتى الاشباع، ولم يكن يأمل اية مفاجأة، الا ان يكون على الاكثر ظهور وجه جديد على رصيف، او لمعة دهان جديدة على احدى الردهات المألوفة.

واستولى عليه اضطراب مفاجىء: ولم يكن ذلك بتأثير التماعة ذهنية، بل بتأثير طاقة حدسية. اي حق كان يملكه بان يضع نفسه فوق البديهيات؟ ذلك انه من البديهي ان شيئا ما كان في قلب زوجته. ودليل ذلك، بصرف النظر عن مسلكها المتنوم، حاجتها الظاهرة لان تكون غالبا وحيدة، انها منذ مدة كفت عن ان تطلب اليه، كالسابق، ان يعود باكرا، وكان يبدو انها لا تكترث لعودته او عدم عودته، ولئن كانت ذات طبع وحشي منذ البدء، فان ذلك يتفاقم الان ويصبح مبالغا فيه. وقد حدث في الاسبوع الماضي، وهو امر غريب حقا، انها عادت الى « اوليفوس » بعده، حوالي الساعة العاشرة ليلا. ولقد انزعجت الى حد يصعب وصفه وكادت تغضب حين اشار الى تأخرها، بالرغم من انه اشار الى ذلك برقة وعذوبة وحيطة. وكان قد رآها ايضا تشتري اوراق رسائل، بالرغم من انها لم تكن تحب الكتابة قط، وانها كانت، من حيث كتابة الرسائل، شبه بكماء.

فما الذي كان يجري اذن؟ وتطاير السؤال شظايا في ذهنه، بلا امكان لحل او للتطور. وظل قائما هناك. والتفت صورة فالنتين بورديفيرا حول حلقه لا في شكل عقلي، بل في شكل محسوس، مرئي، مطاط. واستشعر بالرغم منه شبه رغبة في الانطواء على نفسه: واخذته حركة رفض غريزي تلاشى منها ارتجاع رد الشكوك القذرة.

وبلغ زاوية الجادة حيث يهبط كل يوم، من غير ان يتمكن من دفع هذا الشعور الدبق المعذب. وانضاف الى ضيقه شعور غامض بالغضب او بالحزن الغاضب. واحس بانه يمشي فوق ارض مختلطة يستحيل عليه فيها ان يجد منفذا نحو النور.

وبعد قليل دلف الى بناية الشركة المرمرية الكبيرة ودخل المصعد فارتقى الى الطابق الذي كان عليه ان يأخذ منه اوراقا بعد ان يحقق في ركام من البوالص. وبدأ عمله بمزاج منقبض واشمئزاز، فمزق اوراقا ذات عناوين سيئة الوضع امام الالة التي كانت تصر على ان لا تضرب حرف «و» من غير ان تلصق به «ي» بصورة ساخرة.

وعند الظهر مضى ليتناول الغداء وهو ما يزال فريسة النفور والاضطراب. وكان يتغدى عادة في مطعم بالجادة نفسها داخل طابق ارضي مضاء بصورة اصطناعية، واسع وقذر، مليء بالاحواض وبالرطبات الرديئة. ولم تكن له اية رغبة في ان يحدث الخادم، فاختار بسرعة طعاما باردا مع الفاكهة المعتادة. ورأى وكيل الشركة الكبير « روداس » جالسا الى طاولة: فشعر ازاءه بالغضب وتجنب تحيته. ووضع قائمة الطعام عموديا مسندا اياها باناء الماء، وتصنع انه مستغرق في قراءة اللائحة الطويلة. ولكن فكره كان في بيت « اوليفوس ». لا بد ان اليس كانت تتناول الغداء في تلك اللحظة نفسها، مستغرقة في وحدتها استغراقا مريحا، مفكرة بالساعة التي ستخرج فيها ومعها خطتها الجاهزة وفكرها الرضي. وكان بعد الظهر برمته لها، وهو بعد ظهر طويل، ولم يكن بها حاجة الى العودة قبل الساعة الثامنة او التاسعة، وهي منغلقة على سرها، محمية في ذكرى تصرفاتها السرية التي لا تخرق.

وفكر مونتوفيو: « عند الساعة الثالثة او الرابعة بعد الظهر ستكون في منزل بورديفيرا » واتاحت له هذه الفكرة الواضحة الى هذا الحد فرصة للدحض بمثل هذا الوضوح. فليست القضية بعد قضية امور غامضة او افتراضات او تنبؤات مختلطة، وانما هي قضية تصرف. وهذا التصرف ... لا يمكن ان يكون.

وقشر الفاكهة بهدوء. اجل، لا يمكن لهذا التصرف ان يكون. واستولى عليه فجأة نوع من الحيوية انبثق من عزائه الواضح، فنادى الخادم وطلع عليه بفكرة مضحكة وهو يشير الى رجل وامرأة كانا يقصدان المطعم دائما، وكان قد سبق له ان حدثه بشأنهما في مناسبات اخرى.

وقال لنفسه وهو يغادر المطعم: « لا، لا يمكن لهذا ان يكون » وكان في فمه مذاق القهوة، وكان يتذوق في الوقت نفسه عزاء اكيدا رضيا. وكان اصيلا مشمسا حارا، وكانت الجادة تمتلىء بالاجسام من جديد بعد تلاشي الظهيرة، وكانت حمامات رمادية مرصصة تنزه حواصلها الكبيرة على ممرات الواجهات. واجتاز مونتوفيو شارعين او ثلاثة وهو مصمم على ان يضع حدا لقضية مدير اعمال « فلاوس راي »، هذه

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

بادية

طفلة الشاعر

***

قبل ان انفض عن جفني الكوى … وخيوط الفجر في اهدابيه ..
قبل ان تامس وجهي نسمة … تعبر الشباك .. ريا ، حاليه
تسبح الغرفة في زقزقة … لا ندى الصبح ، ولا احلاميه
اليد الحاوة في شعري ، فيا … رفة الورد ، وهمس الساقيه !
يا ضياء البيت ، يا سوسنة … تزرع الضحكة في اوصاليه
تدفع الباب ، وتهوي فلة … فوق صدري عبقات صافيه
وازيح النوم عن جفني على … برعم اشقر في اجفانيه
يا نسيم الصبح .. لم تملأ دمي … بالهوى والعطر لولا باديه
لم اذق نعماك الا لثغة … حاوة تطفر حولي لاهيه
ويدا ، بل زر ورد يرتمي … فوق صدري زقزقات صافيه
كل صبح .. بيتنا اغرودة … توقظ النشوة في اعماقيه

**

يا شعاع البيت ، يا عصفورتي … يا سماء اشرقت في ذاتيه
لو تصيدتك في قافية … ذابت النعمى ، وسالت قافيه
تتحدى لثغة معسولة … كل ما ينبض في أبياتيه
مزقي اوراق شعري ، واعبثي … بكتابي ، واطفري يا باديه
واضربي الارض بخفي وردة … ابتغي في خاطري اشراقيه
واذ اعياك شيء ، فاصرخي … كل شيء الدموع الغاليه
الكفاح المر .. كي تمشي غدا … وامانيك قطوف دانيه
الكفاح المر ... كي لا تبسمي … وقريب منك روح داميه
نحن كنا الدرب يا زنبقتي … وسلي عن شوكه اقداميه
نزرع الفجر .. وما اسعدنا … بسمنا الزحف يشق الداجيه !

*

اقذفي اللعبة نركض خلفها … وثاب الكرسي ، نرم الآنيه
وانا الاول ان تقفز كما … يثب الذئب ، وانت الثانيه
ونحيل البيت فوضى .. مثلما … تخبط الريح غصون الداليه
فاذا صاحوا بنا .. طوقتني … وفررنا نختبي في الزاويه
واذا فيروز غنت ... ماكت … سمعنا ، فالبيت اذن صاغيه
قصة «المزراب» (۱) من العابنا … واتكوني اليوم انت الراويه
كسر المزراب « عبدو » فمضت … اشباب الحي سعدى شاكيه
ردي الحانها يا فلتي … لثغة تطفر حولي لاهيه
لو يعيش الكون طفلا ساعة … برئت منه الجراح القاسيه

حلب سليمان العيسى

«من ديوان جديد .. يصدر قريبا»

---

(۱) اشارة الى اسكتش (كاسر مزراب العين) لفيروز .

حول أوزان الشعر الحرّ

بقلم ملك عبد العزيز

منذ ان نشرت الانسة نازك الملائكة مقالها عن « العروض والشعر الحر »، وفي نفسي رغبة في الكتابة في هذا الموضوع ، ولكن كانت تحول بيني وبين ذلك بعض المشاغل ، غير اني الآن – وقد وجدت فسحة من الوقت – سأحاول ان ادلي بكلمة في هذا الموضوع المعقد .

واول ما احب ان اذكره ، هو ان لا ينبغي علينا ان نتعجل في تخطئة كل خروج – او ما يظن خروجا – على ما وضعه علماء العروض القدماء ذلك لان هناك قواعد موسيقية تكمن خلف تلك التقسيمات الهندسية المنطقية للتفاعيل ، وهذه القواعد التي لم يهتد اليها القدماء والتي اهتدى الى بعضها بعض العلماء المحدثين من المستشرقين والعرب – هي التي ينبغي ان نحتكم اليها حين نتحدث عن الاخطاء العروضية.

وقد نشر الدكتور محمد مندور في عدد مارس (آذار) سنة ١٩٥٩ من مجلة «المجلة» مقالا قيما في هذا الميدان ، هو خلاصة بحث تجريبي استغرق ثلاث سنوات قام به في معهد الاصوات بالسربون ونال به دبلوم هذا المعهد سنة ١٩٣٧ . واذا كان هذا البحث – الذي أجري في معامل الاصوات – لم ينته الى نتائج حاسمة في كافة مشاكل العروض العربي – الا انه قد انار امامنا الطريق ، والقى الضوء على كثير من المشاكل الاساسية ، كما انه – فيما احسب – ينبغي ان يحملنا على كثير من التروي قبل ان نحكم بالخطأ والصواب.

ولقد قال الدكتور مندور في هذا المقال ص ٩ « وان يكن من الثابت ان الخليل قد وصل الى نتائج أمكن الى اليوم الاعتماد عليها من الناحية العملية في وزن ابيات الشعر العربي كله ، وحصر اوزانها كلها – الا ان قوانينه لا تبصرنا بحقيقة الشعر العربي وعناصره الموسيقية ، ثم انها لا تدع مجالا لفهمنا سبب حصر الاوزان على ذلك النحو . اذ ما هي العناصر التي تكون الوزن ؟ وهلا يمكن ان تجتمع تلك العناصر في أوضاع ونسب اخرى فيكون من الممكن كتابة الشعر على اوزان جديدة ؟»

وفي نهاية المقال يقول « ونخرج من هذه العجالة بحقيقة كبيرة هي ان فهمنا للعناصر الموسيقية للشعر لن يستقيم فيما نرى الا اذا ميزنا تمييزا واضحا بين الوزن والايقاع ، ودرسنا تأثير الكم والشدة والارتفاع في الشعر وفي اللغة التي يصاغ منها ذلك الشعر . ونحن بذلك نستطيع ان نكشف بعض السر عن الشعر العربي بنوع خاص ، اذ نصل الى التوفيق بين المقطع كوحدة للكلام وبين طبيعة اللغة العربية وطبيعة شعرها كما وضحناها – وهذه الدراسة لن تستقيم فيما يبدو – ما لم تكن لدينا معامل اصوات كاملة الاعداد . »

من كل ذلك يتضح ان المسألة ليست بالبساطة التي قد تلوح لنا اول الامر ، فلذلك ينبغي ان يكون رائدنا الكثير من الحرص والتردد قبل ان نحكم احكاما جازمة بالخطأ والصواب .

وفي مقال « العروض والشعر الحر (١) تقول الانسة نازك « لقد تطور الشكل في الشعر العربي بحيث لم يعد العروض القديم يكفينا لنقد الاشكال الجديدة التي نمت اليوم ، وبات ضروريا ان يطور العروض نفسه ليواجه الشعر ، وانه لطبيعي تماما ان تظهر الانماط اولا ثم تعقبها القواعد التي يقاس بها الفاسد منها ، وهذا لان «النمط» خلق تندفع به طبيعة فنان تلهمه روح العصر ، واما القواعد فهي مجرد استقراء واع.»

وهذا الكلام جميل ، اذ يدل على التحرج والاحتراس . ولكن الانسة نازك مع ذلك – في هذا المقال – وفي مقالها الاخر « منبر النقد » (٢) قد قدمت بعض الاحكام – او القوانين – الحاسمة ، وفي كثير من الشدة، كأننا انتهينا من كل مراحل التذوق والاستقراء ، وحللنا كل مشاكل العروض العربي ، فلم تبق الا مرحلة التقنين ووضع الاصول .

ومن هذه الاحكام الحاسمة تخطيئها لاستخدام تفعيلات غير متجانسة في القصيدة الواحدة ، ثم مطالبتها للشاعر بان يلتزم شكلا واحدا للتفعيلة في نهاية اسطر القصيدة كلها .

وانا لن اناقش هاتين المسألتين ، فقد وضح الاولى بما فيه الكفاية – خصوصا فيما يختص ببحر الخبب – الاستاذ حساني حسن عبد الله في مقاله القيم في العدد الماضي . كما ناقشت المسألة الثانية الشاعرة سلمى الخضراء بروح علمية سمحة تنزع الى الملاحظة والاستقراء – قبل اصدار الاحكام – في مقالها عن «بحر الرجز في شعرنا المعاصر» وفي ردودها على الانسة نازك . وكل ما اريد ان اقوله هو ان استخدام تفعيلات غير متجانسة ليس من الضروري – ضرورة عقلية – ان ينتج عنه موسيقى مهشمة ، فالعبرة بطريقة استخدام تلك التفعيلات المختلفة ، فقد تخضع لالوان من التنسيق والانسجام يكشف عن عناصرها التأمل المستاني العميق . وكثير من الزحافات التي تدخل على الابحر تجعل بعض تفعيلاتها تتحول الى تفعيلات ابحر اخرى مثل « متفاعلن » من بحر الكامل التي تصبح مستفعلن « متفاعلن » وهي تفعيلة الرجز. ومفاعلتن من بحر الوافر التي تتحول الى مفاعيلن « مفاعلتن » تفعيلة الهزج.

وليس من الضروري ان يكون الانسجام بين نهايات الاسطر في الشعر الحر ناتجا عن تماثلها ، فالانسجام قد يوجد بالتجاوب كما يوجد بالتماثل. وهذا الانسجام الذي يحدثه التجاوب يكون اقل رتابة – لا جمالا – من ذلك الذي يحدثه التماثل . وهذا امر معروف في الموسيقى بل وفي الزخارف الحديثة ايضا . ومن الممكن ان توجد وحدات كمية موسيقية متآلفة دون ان تكون على النسق القديم المألوف ، فمثلا ، لا احد يستطيع ان يحكم بنبو نغم هذه الفقرات من شعر فدوى طوقان والتي اشار اليها الاستاذ الحساني في العدد الماضي. وهذه الفقرات : « ينساب يرف صدى نبره ... نبرة صوت حلو عذب » .

(١) عدد شباط (فبراير) ١٩٥٨ (٢) عدد ابريل نيسان ١٩٥٩

وفي رايي ان العروض العربي بالصورة العلمية المتطورة الواجبة لن يستطيع وضعه عالم لغوي فحسب ، بل لا بد ان يكون ذلك العالم دارسا لاصول الموسيقى ، ليستطيع ان يضع القوانين لكافة انواع التوافق والانسجام التي تحتملها امكانيات الشعر الجديد بنوع خاص .

على ان اهم ما لفت نظري في حديث الانسة نازك عن بحر الرجز في مقالها « العروض والشعر الحر » ، انها تعتبر الموسيقية ـ التي تقصد بها وضوح الايقاع وخفته ـ تعتبرها هدفا يقصد لذاته . فالانسة نازك ترى ان « الوتد يبلغ من القوة بحيث يستطيع ان يشق الكلمة التي يرد في اولها الى شقين ومن ثم فان من الكياسة الشعرية ان يحاول الشاعر ايراد الوتد في اخر الكلمة لكي يختمها ويقويها » . وان من اساليب الشعراء التي يقاومون بها سيطرة الوتد وأبرزها واكثرها شيوعا « ايقاف الوتد عند حرف ساكن كالياء » كقول ابن مالك في الالفية ـ التي تراها الشاعرة تتمتع بموسيقى ضافية ـ « واستعين الله في ألفيه »

ولكني ارى ان تلك النظرة الى موسيقى الشعر نظرة غير صحيحة ، فموسيقى الشعر ليست شيئا يقصد لذاته ، بل هي اداة للتعبير عن مشاعر النفس . وقد تكون مشاعر النفس في حاجة الى ذلك الثقل الذي يحدثه وجود الوتد في أول الكلمة، بل لعل الشاعر لم يلجأ بحسه الفطري الى بحر الرجز الا لهذه الخصيصة التي تتيح له اظهار هذا الثقل . فبيت صلاح عبد الصبور الذي استشهدت به نازك لتؤيد قولها : « وحين يقبل المساء يقفر الطريق ، والظلام محنة الغريب » هذا البيت يعبر عن انسحاق النفس وانذحارها واحساسها بالوحشة والغربة والضياع . ومن كانت نفسه كذلك لا يمكن ان يجري او يسير خفيفا نشيطا ، بل انه ليتعثر ويتخبط في سيره ، ولذلك يعبر عن تعثره بذلك الثقل الذي يتحين له « وتد » بحر الرجز ، وان كان الشاعر قد عبر ايضا عن اساه بكل حرف مد من الحروف التي تتبع كل عثرة . انه بيت رائع لانه طابق مطابقة دقيقة مرهفة بين احساس الشاعر وبين الموسيقى التي تعبر عنه .

ان النظر الى « موسيقية » الشعر كشيء مستقل عن التعبير عن نفس الشاعر ليشبه ذلك المذهب الذي اسقطته الايام ، وهو القول بوجود كلمات شعرية واخرى غير شعرية لا يجوز ان ترد على السنة الشعراء . ومن قبل عاب أحد كبار الادباء على الشاعر ايليا ابي ماضي استعماله لكلمة « طين » عنوانا لاحدى روائعه ، مع ان هذه الكلمة فيها جماع الفكرة التي يعبر عنها في تلك القصيدة ، التي يخاطب بها رجلا متعاليا ألهته الثروة وألهاه النعيم فنسى انه من طين مثل بقية البشر .

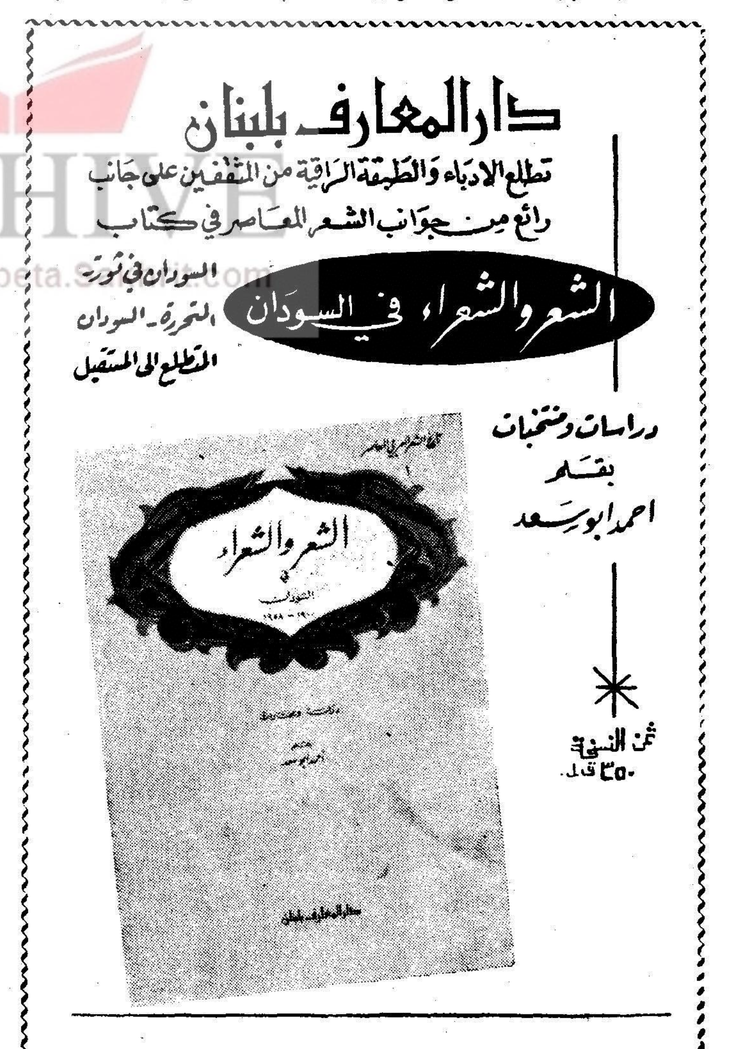
وهذه النظرة سواء في الالفاظ او في الموسيقى تجعل من الشعر فنا زخرفيا فحسب ، وليس فنا تعبيريا رسالته الاولى نقل احاسيس النفس . كما ان « الموسيقية » بهذا المعنى الضيق الذي يجعلها مرادفة لوضوح الايقاع وخفته ليست دليلا على روعة النغم وعمقه . فمن المعروف ان المارشات العسكرية والالحان الراقصة هي اكثر الالحان الموسيقية وضوحا في الايقاع ولكنها مع ذلك ليست ارقى الالحان الموسيقية ولا اعمقها ولا أقدرها على التعبير عن عوالم الروح .

وكذلك تنقد الانسة نازك استعمال صلاح عبد الصبور للتفعيلة المزحفة مفاعلن في كل تفعيلات بيت عبد الصبور السابق ، باعتبار ان « الزحاف علة ومرض واختلال صغير نستسيغه لانه لا يرد كثيرا ، وان الغرض منه في الاصل التنويع والترويح ... وهو يدخل على القصائد جمالا وموسيقية ... »

ولكن الحقيقة ان الزحاف ليس مرضا ـ من الناحية الموسيقية ـ ما دام البيت المزحف به امكانيات التعويض(١) . وليس الغرض الاصلي منه التنويع والترويح فذلك غرض ثانوي ، او بالاحرى نتيجة ثانوية . ولكن الغرض الاصلي الذي يلجأ الشاعر اليه بطريق عفوي هو التعبير عن حالات خاصة في النفس . فقد نضطر كي نعوض الزحاف من الناحية الزمنية الى ان نطيل في حرف مد ، يستنفد بعض احساسنا ، او ان نطول حرفا صامتا متمادا كالسين مثلا ، لنعبر عن صوت او حركة (٢) ، وهكذا . ولا شك ان الشاعرة المرهفة نازك لا بد مدركة كل ذلك بسليقتها الشعرية اذا رجعت الى بعض زحافات شعرها هي وحاولت ان تستبدلها

(١) ذكرت اساليب التعويض في الانشاد في كتاب « في الميزان الجديد » للدكتور محمد مندور ص ١٩٢ . ومن المعلوم ان التعويض هو الذي يعيد للتفعيلة كمها الاصلي اي الزمن الذي تستغرقه كل تفعيلة غير مزحفة ، حتى يتساوى زمن التفعيلات المتشابهة ، فيستقيم الوزن من ناحية الكم ، وان كانت موسيقى الشعر العربي تعتمد على عنصر الارتكاز بالاضافة الى عنصر الوزن كما وضح ذلك الدكتور مندور في « الميزان الجديد ، وفي مقاله القيم عن « الشعر العربي غناؤه وانشاده ووزنه » في عدد اذار « مارس » من مجلة « المجلة » .

(٢) اشار الدكتور مندور الى بعض هذا في عدد اذار من « المجلة » ص ١٣ .



بتفعيلات كاملة ، فحينئذ سيبدو لها في وضوح السبب النفسي الذي الجاها الى الزحاف .

اما بيت عبد الصبور ، فاننا اذا نظرنا اليه كوحدة منتقلة فحينئذ لن يكون بحاجة الى التعويض . فكل تفعيلاته مزحفة اي متساوية في الكم الزمني . نحن لا نلجأ الى التعويض الا لنساوي بين التفعيلات في الكم . اما اذا نظرنا اليه باعتبار ان ما يسبقه وما يلحقه من اسطر تغلب عليه التفعيلة الاصلية « مستفعلن » فلن يعيينا شيء ان نعوض زحافات ، لانه ملىء بحروف المد التي تتيح لنا ذلك بالاطالة في نطقها بعض الشيء . بل ان عملية التعويض هذه ستتيح لنا وللشاعر من قبلنا ان يستنفد مشاعر الحزن والاسى التي يفيض بها قلبه ويعبر عنها في شعره ، بتلك المدات الطويلة المتتابعة .

بل اني لازيد على ذلك بأن اقول ان مفاعلن اقل ثقلا من مستفعلن لان بها ارتكازين فقط على (مفا ، لن) بينما مستفعلن بها ثلاثة ارتكازات على (مس ، تف ، لن) ، فهي حسب مذهب « الموسيقية » عند الانسة نازك — الذي رددت عليه سابقا — تكون اكثر موسيقية ، خصوصا وان جزءيها متساويان تماما (مفا — مقطع قصير «م» ومقطع طويل « فا ») و (علن — مقطع قصير « ع » ومقطع طويل « علن ») .

اما الاستاذ الحساني حسن عبدالله فقد تعرض في مقاله القيم لمسائل شديدة الاهمية ، ولعله من القلائل الذين يناقشون موسيقى الشعر العربي على الطريقة الحديثة كما شرحها الدكتور مندور في كتابه « في الميزان الجديد » . وهذه مزية لا شك فيها، فهو يعرف دقائق ما يتحدث عنه ، ويعلله تعليلا معقولا ، بدرجة كبيرة من الفهم والادراك والتفوق . ولكنه يضيع اثر تحليله الرائع حين يقع في امر خطير في مرحلتنا الثورية التجديدية الراهنة ، ذلك حين يقول « ان الكسل وعدم الشعور بخطورة المسؤولية الفنية يسيطران على شعرائنا الى حد بعيد ، وما ان يسمعوا بتعليل او شبه تعليل لأخطائهم حتى يتشبثوا — وكأنه تبرير لا تعليل .... »

فهذا القول ينقض كل ما بذله من جهد في تفسير التجاء الشعراء في بحر الرجز الى التفعيلة المزحفة « مفاعلن » حتى جزم بأن الزحاف ليس مرضا اصاب التفعيلة كما تقول الانسة نازك . كما انه عقب حديثه عن اقحام « تفاعيله » في بحر الرجز بقوله « ولكن هل معنى هذا ان هذا التطور الاخير هو مصير الرجز ؟... قد يكون ذلك » .

نعم ، ان قوله الاول ينقض اقواله الاخرى ، ذلك ان هناك تعليلا يقوم على قواعد موسيقية ولغوية ونفسية معترف بها ، فمثل هذا التعليل بلا شك يكون تبريرا ، ويكون مسوغا لاي نوع من الزحافات الجديدة او التصرف الموسيقي المبتكر ، والا لوجب الا نعترف بكل انواع الزحافات والعلل التي استعملها القدماء لانها خارجة على الشكل الموسيقي الكامل للتفاعيل . ولكن ما نعرفه ، وما اثبتته التجارب المعملية(1) من حدوث التعويض في الانشاد ، وما نعلمه من الدوافع النفسية المحركة للتعبير الشعري ، جعلنا نسيغ هذه الزحافات ، فلماذا لا نسيغ سواها اذا قام على نفس الاسس ؟ اما اذا لم نجد لها اساسا موسيقيا او نفسيا معترفا به ، فعندئذ نستطيع ان نخطىء الشعراء في ثقة واطمئنان . واذا رجع الناقد الى مقال الدكتور مندور بالمجلة لوجده ص ٨ يعرض حالة بيتين ، كل منهما به علة الخزم اي زيادة حرف (مقطع صغير) في اوله ، استقام

(1) راجع في « الميزان الجديد » و « المجلة » (2) التعادل عند الزيادة يقابل التعويض عند النقص .

النغم في احدهما ولم يستقم في الاخر لان الاول كان به امكانية التعادل(2) (بتقصير مقطع طويل في التفعيل الاول الذي به الزيادة) بينما لم يستقم النغم في البيت الثاني لعدم وجود تلك الامكانية .

والان احب ان اعرض لتفعيلة الهزج « مفاعيلن » التي اقحمت على الرجز في الشعر الحديث فاطبق عليها هذا المقياس الذي ارتضيته .

ولاعترف بانني عرفت دخول هذه التفعيلة في الرجز — اول ما عرفت — في شعري انا ، وفي قصيدة « ذكرى جواد » بالذات . ذلك انني بعد ان انتهيت من كتابة القصيدة كما اوحى بها الي احساسي ، خطر ببالي ان انظر فيما صنعت . فقطعت بضعة اسطر ، فوجدت تفعيلة غريبة ، لعلي لم افطن في البداية الى انها مفاعيلن . ذلك انني حسبتها اول الامر « متفعلن » (التي تصبح مفاعلن واصلها مستفعلن بحذف السين) لولا انني وجدت حرفا ساكنا قد زيد بين « متفع » و « لن » فتصير « متفعل لن » التي يمكن تحويلها الى مفاعيلن . ثم قطعت القصيدة كلها فوجدت بها بضعة حالات من مفاعيلن هذه ، ولعلها هي التي احصاها حضرة الناقد وسماها اخطاء . وعندما نظرت الى هذه التفعيلة الدخيلة وجدت ان هذا الحرف الساكن الذي زيد بين « متفع » و « لن » لم يزد الا في التفعيلات المزحفة « متفعلن » التي سقط منها الحرف الثاني من التفعيلة الاصلية مستفعلن . فكأن تحويل متفعلن الى « متفعل لن » او مفاعيلن ليس الا عملية تعويض بحيث نعود مرة ثانية الى كم التفعيلة الاصلية مستفعلن .

فمستفعلن عبارة عن مقطع قصير « ع » وثلاثة مقاطع طويلة « مس » و « تف » و « لن » . وكذلك مفاعيلن عبارة عن مقطع قصير « م » وثلاثة مقاطع طويلة « فا » و « عي » و « لن » .

هذا عن الكم . اما عن الارتكاز(1) فان مفاعيلن اقرب من كل زحافات مستفعلن التقليدية اليها ، لان بها ثلاثة ارتكازات مثلها . فمستفعلن بها ارتكاز على كل من المقاطع « مس » و « تف » و « لن » ، ومفاعيلن بها على المقاطع « فا » و « عي » و « لن » ، وكل منهما تحتفظ بارتكازها الاصلي على المقطع الثاني من التفعيلة اي على « تف » في مستفعلن وعلى « فا » في مفاعيلن ، وكل ما حدث هو ان نقلنا الارتكاز الثانوي الذي كان موجودا في اول مستفعلن ، فجعلناه قبل المقطع الاخير في مفاعيلن (م تف عل لن) التي صارت (م فا عي لن) لنركز بعض الثقل على نهاية التفعيلة لحاجات زمنية يحسها الشاعر .

وهذا الفرق في الارتكاز دون الكم الذي بين مستفعلن ومفاعيلن اقل بكثير مما بينها وبين الزحافات التقليدية المعترف بها : متفعلن (مفاعلن) و مستعلن (مفتعلن) ، فكل منهما اقل من التفعيلة الاصلية في الكم ، ولئن كانت متفعلن قد احتفظت بالارتكاز الاصلي(2) « تف » الموجود في

— التتمة على الصفحة ٤٩ —

(1) أرجع الدكتور مندور في بحثه المعملي موسيقى الشعر الى عنصري الكم والارتكاز كما أشرت سابقا .

(2) راجع « في الميزان الجديد » و « المجلة » لمعرفة اهمية الارتكاز الاساسي . والقاعدة ان الارتكاز الاصلي ينبغي ان يحتفظ به مهما حدث من زحافات .

(3) قال الاستاذ الحساني ان مستعلن « مفتعلن » تختلف « وزنيا » عن مستفعلن ومفاعلن وان لم يوضح ذلك ، ولعله يقصد ما اشرت اليه من اختلاف الارتكاز وزوال الارتكاز الاصلي من مستعلن .

مشكلة حرية الفكر

بقلم محيي الدين محمد

هي كلمة جد قديمة، قدم النطق والصبر مطموسة في شرقنا العربي.. أعيدها للتذكير لكي يفجر التذكير عملية نجهلها تماما وهي التطور.

العالم يتطور ويصعد الى أعلى ماديا وفكريا في خطوات غير منتظمة ، وكل خطوة هي وقفة صغيرة تمتاز عن السابقة لها بافكار اكثر تطورا وتقدمية بحكم التطور المادي الحادث .. ! كل وقفة هي عصر بعينه له تفكيره ووسائله وسبله وغاياته وروحه ، كما ان له صورته الخاصة التي تختلف عن صورة العصرين السابق واللاحق له ، وذلك طبيعي جدا ، فطوفان الافكار المدومة في عصر ، هي خلاصة اوضاعه السياسية والاقتصادية والنفسية والثقافية ، يظل العصر تابعا لها حتى يحولها تغير جديد نشأ بفضل بعض رجال العصر الذين قذفوا بانفسهم الى امام مكونين جسرا باجسادهم تعبر فوقه بقية العصور ..

وطبيعي ان يجد هؤلاء الرجال التقدميون سدودا منيعة توقف تيار افكارهم ، وتعطل اراداتهم ، فالتطور لا يفرض حتمياته بسهولة ، لان السلطة والتقاليد والدين ، بصفتها اخطر صور السدود ، تعيش في قاوب الافراد وتنفث فيها السم لتمنع التحرر وتؤكد الجمود والرخامية . .

ان مهمة السلطة هي المحافظة والابقاء على الوضع القائم ، فهي تعبير عن هذا الوضع : عن رجاله وحكامه والطبقة التي تعين له حظوظه ومساره . فاو دافعت السلطة ، او حتى تغاضت عن الافكار الجديدة ، كان ذلك رضى منها لسحق ذاتها ، واعلانا عن سلطة جديدة تقوم فوقها ، وذلك ما تأباه وترفضه وتخشاه . الطبقة الحاكمة تريد ان تحكم الى الابد ، والطبقة المظلومة لا تريد ان تكون مظلومة الى الابد ... الحاكم يقهر تحرر الجمهور ووعيه باشاعة روح التقاليد ونظم الاجداد ، فوجود السلطة يعني ضرورة الابقاء على (النظام الراهن) كيفما كان هذا النظام .. ولذلك اضحى طبيعيا لواد فكرة تغيير النظام ، ان تصادر السلطة الفكر وان تحرق البشر وان تسجنهم وان تكمم افواههم ..

وبالنسبة للجيل الجديد ، تمكن السلطة للوضع القائم عن طريق التدريس في المعاهد الصغرى والكبرى وبطريق المنح والمكافآت السنوية ، وبطريق الادارة المنظمة تحت يديها ، وكلما زادت الوسائل او تحسنت صور التعبير عن الحرية ، كلما زادت الشبكة البوليسية سطوة واتسع نطاق جحيمها ، وقد تتجه السلطة في معظم الحالات الى شراء ضمائر المشرفين على وسائل النشر او طيهم تحت جناحيها ، وفي بعض الحالات تغلق دور النشر وتصادر الكتب والافكار ، ويقتل الكتاب الاحرار ، وهي الصورة الغالبة من صور الاجرام في شرقنا العربي ..

ان السلطة تعتمد اكثر اعتمادها على التقاليد بالذات ، وهي في سبيل ذلك تضع بوليسها وجيشها وكل قوتها لخدمة التقاليد وابقائها على صورتها ... والتقاليد صورة فردية من صور القسر الجماعي القديم ، وهي قوة لا تحتاج في نظر السلطة الى من يدفع لها الاجر او المكافأة ، اذ هي قهر نفسي مدفون في القلب البشري ، وهي لا تحتاج الا لقدر من الجهل والحماسة .. وذلك متوفر في ملايين الناس في اقطارنا العربية ..

التقاليد هي افكار عصر سابق ، تعبير عن الامس يريد ان يضع مخالبه في يومنا نحن .. يضع مخالبه في ساعات تخصنا نحن ، لتسيره وتطمئن من قبرها على نفوذها الذي مكنت له .. انها خيوط من الفولاذ ممتدة من الاضرحة والقبور والكتب الصفراء ، لتربط وتشل حركة العصر الجديد ذي العظام الطرية ، والذي يحاول ان يتسلل من بين هذه المخالب ، مستخدما لذلك المنطق والحجة .. ان يتسلل ويعيش في هواء نقي بدون سموم . .

والتقاليد اضعاف القوة التي للسلطة ، فالسلطة تعتمد عليها لتثبيت اقدامها ، وهذا بدوره يعود على التقاليد بسطوة اعظم ، ويأتي يوم تصبح السلطة فيه هي التقاليد بالذات . . والجمهور يأخذ باحكام التقليد لانه ضرب من ضروب الحياة التي تمرسوا بها وخاضوها حتى الرقاب، وهي لا تستلزم ان يحيا الانسان وجوده في صراع او تفكير ، بقدر ما تستلزم اغماض العينين والاعتماد على القدر والمكتوب والانصياع .!! والفكر في شرقنا العربي يؤهل الجو لمثل هذا الانصياع ، والجمهور يطابق بين اعتقاده هو ، وبين اعتقاد الفكر ، (ولا تناقض في هذه العبارة ازاء فكرنا في الشرق العربي ، والذي هو تقليدي محض) ويضرب بحريته الارض !. فالحرية عملية دخيلة وغير مطلوبة ، وما الذي تعود به غير المخاطرة .؟! أليس اسهل من ذلك ان نكون (اولادا طيبين) فننعم برضى الرب والحكام واولى الامر لنا .؟! ولن يستلزم ذلك اكثر من ان نقول نعم .. !!

.. الجديد ، والحرية . ؟!

ذلك ما يجعلهم يتثاءبون ويقذفون بضجرهم ولامبالاتهم: ففي خلال اعمارهم جميعا ارضعوا وامتضوا ومضغوا ورشفوا افكارا ليست افكارهم . افكار آبائهم واجدادهم. دياناتهم ومنطقهم وعباراتهم التي يهدونها في ظرف متصنع الى اذن الضيف ، والارمل ، والتاجر الدائن .! انهم يرثون كل شيء عن الالهة التي ربتهم ، وهم راضون

بذلك ، لان الكتاب المقدس ، وتعليمات الدين ، وكل اشكال الادب والشعر والفنون التي تعلموها ، تؤكد على انصياعهم وتبعيتهم .. فاذا اتى (مفكر) من الشباب وطالب بقدر من حرية الفكر واللا تقليدية .. ثار الجميع بدون تفكير ، كما تفجر ذرة وحيدة سلسلة من الانفجارات المتتاليـة الميكانيكية ، واعلنوا كفره وعصيانه واستحقاقه للقتـل والتحريق .. !

ان على الشباب ان يفكر كما نفكر نحـن وكمـا فكـر آباؤنا ، وان عليهم ان ينبذوا كافة المساخر التي ينادون بها .. ! وبعد ذلك يموت الاباء بعد ان لونوا الشبـاب بمدادهم هم ، يموتون مستريحي البال .. فالى الـف عام قادمة ستظل عقائدهم سائدة ومسيطرة ، وسيكون ابناؤهم نسخا متتالية منهم ، يفكرون بطريقتهم ويتكلمون بطريقتهم .. (*) ويظل العصر يعيد نفسه كل مرة، نسخة قذرة عن النسخة السابقة لها .. وينتصر الرجال الميتون من داخل قبورهم علينا وعلى ارادتنا ورغباتنا واحكامنا، كأحياء ومالكين للعالم .. !!

التقاليد هي الافكار (والخرافات والعواطف والحكايات والاوهام التي تسيطر على مشاعر اناس حرموا الضيـاء النادر للعقل ، او طمسوه تحت الحاح الضغط التقليـدي الذي يعتمد على العاطفة ، واذا كان للعقل مدافع واحد ، فللعاطفة مئة ، فاسهل الف مرة ان تستميل الاهواء من ان تقنع بالحجة ، وكل الدجالين والخطباء يعرفون ذلك ويطوعونه لخدمتهم تماما ، والتقاليد تستغل هذا الضعف البشري فتنفذ من هذه الثغرة الى كامل الجسم الانساني وتنخره من الداخل ، ولا تتركه الا حطاما ، فالاهـواء والاوهام هي التي تسير التقليدية وتخضعها ، اما العقـل فهو اداة ديس عليها والقيت فوقه الاف الاطنان من السحر والخرافات ، وهو بعد ذلك (شاهد زور) يوافق على كـل ما تؤمن به التقاليد وترغب فيه .! وقد عرفت التقاليـد ان هذا المكافح الفذ الذي اسمه العقل ، لا يقنع ابدا ولا يمكنه ان يرضى عن الايمان الخرافي من مثل (ومد موسى يده على البحر . فاجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء . فدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهـم عن يمينهم وعن يسارهم ..) - التوراة . خروج ١٤-٢١- فلا بد ان تكون الحقيقة رياضية وموضع تجربة ابديـة ليمكن الموافقة عليها والرضى بها ، واذ ادركت التقاليـد مدى عنف هذا المعارض القوي ، حاولت بكل الطرق - ونجحت في ذلك بشرقنا العربي ، وبصورة اجرامية - منع الذهن وشل امكانياته ، وطيه تحت جناح العاطفة القوية..

(*) امثلة عجيبة يمكن ان تكون شاهدا على تكرار العبارات التقليدية الميئوس منها ، وفي كل قطر عربي عبارات خاصة به يمكن للملاحظ ان يراقبها في مجالات الحياة المختلفة وخاصة في المآتم والافراح ولقاء الاصدقاء. كل جملة لها ردها ، والبادىء بالحديث يدرك مسبقا رد الاخر الذي يعرف بدوره جملة البادىء - قبل ان ينطقها..!!

منذ الف عام ويزيد طبخ شرقنا العربي على هذه الصورة التي نعيش عليها اليوم ، وربما غدا (!!) ماتت اجيال وتقدمت اجيال واجيال واجيال تشرب من نفس البئر التي شربت منها العصور السحيقة ، وفكرت بالشكل ذاته الذي فكرت به الاجيال السابقة ، وفي مأساتنا هذه ، لم تكن السلطة هي الجدار الذي تكسرت فوقه قبضات المفكرين العـرب النادرة ، بقدرما كان الجدار عواطف الجمهور ورضاه ، فقد كانت السلطة احيانا اضعف من أن تقف وحدها ضد تيار الاذهان الشاكة والمتحررة ... ولذلك استخدمت عواطف الجمهور وقوتها ، واختفت هي قانعة بالنتيجـة وفي ذهنها التجارب السابقة التي مارستها السلطة فـي التاريخ ..

العادة هي الصورة الاولى للتقاليد ، اما الصورة الاخرى فهي الدين .

ان الحقيقة لا تعرف الا بمقدار ما يتفق عليها الجميـع ويرضون عنها ، واذا حدث واعلن فرد واحد شكه فـي منطقيتها ، تزلزل مركزها واصبحت عرضة للانسحاق . والحقيقة الدينية لا يتفق عليها الجميع ، لا نها ضد المنطق والرياضة ، وتؤكد على الخرافة والوهم ، اما الحقيقـة التي لا يمكن لواحد من الافراد ان ينكرها وان يشكك فـي قيمتها فهي الحقيقة الرياضية العلمية (٢+٢=٤) والتـي تعتمد على التجربة والمنطق . الدين صورة من صـور التقاليد تؤكد على الانصياع والعبودية والرضى بالواقع ، وهذا الايمان المشكوك في نتائجه يساهم في قتل البقية الباقية من صور الارادة والتحرر التي للفرد الحديث ، والحقيقة الرياضية لا تظهر الا في جو تحكمه الحريـة وارادة الفرد والجمهور ، وبذلك اصبح وجودنا ذاتـه مصلوبا في التناقض والتضارب واليأس . .

الدين يؤكد السلطة، والسلطة تستعين باحكام الدين على منع روح العلم والنطق ، وتشريد الاحرار الذين ينادون بقص اجنحة الدين ، والتقليل من مظاهره التدميرية ..

وفي تاريخ المسيحية القديمة التي كانت تنادي بحرية الفكر في عهد الاباطرة الرومان ، ثم كان اول اعمالها حين تسلمت السلطة ان شجبت حرية التفكير وحرية العقيدة ، وقتلت واحرقت ومزقت الوثنيين ونكلت بهم .. فـي تاريخ هذا الدين والاديان الاخرى ايضـا مـن المواقـف المحزنة والوحشية ما يجعلنا نؤكد على وجوب المناداة بحرية الفكر اولا قبل ان نجادل منطقيـة الديـن او لامنطقيته ..

الفكر بناء معنوي قائم فوق الاساس الطبيعي للمجتمع، و يمكن لهذا الاساس ان يجمد او يتوقف ، وحركته هذه، لا بد ان تحرك البناء الفكري معه ، فاذا حدث ورفـض هذا البناء الحركة فانه ينهار كلية ، مخلفا في الميدان جيلا فاسدا عديم الحيوية ، جاهلا ، منهار القيم ، شديـد اليأس .. (ويمكن لهذه النتيجة ان تحدث لا بجمود الذهن عن مسايرة تطور الاساس الطبيعي المجتمع ، بل بمجـرد

المقابلة بين هذا الجمود ، وبين تفتح مجتمع فكري اخر .) وتصبح الاذهان عطالة بدون فائدة ، وفي نهاية الامر يستغني هذا المجتمع كلية عن الذهن ، قانعا بالزهد والعقيدة يجرهما حتى النهاية .. ويصادف ذلك هوى جامحا في نفس السلطة ، واذا بها ترضع هذا الكره للعقل وترضعه الاخرين ، حتى يتم لها في اخر الامر الحكم بكل اشكاله .

فعلى مر السنوات ظل الحكم المطلق والسجان والدكتاتور الباطش يأكلون الذهن العربي ، ويمعنون في ذلك حتى جاء يوم اصبح فيه التقابل النفسي بين الحضارة الغربية العظيمة ، والحضارة الشرقية الهزيلة واجبا . واصبح ضروريا اذن ان تراجع متانة الحدود التي كانت حدودنا قبل ان نغامر باجتياز التيار الجديد ! .. ان السلطة تزداد سمنة على حساب رضى الجمهور وقناعته .. وتزداد اذرعتها طولا وعددا ضد كل حركة تبغى الخروج على هذا الوضع المذل .

وآثر المجتمع العربي السلامة بالانكباب على دراسة الكتب الصفراء واستخراج الخرافة والتعقيد التشريعي والبربرية من بين سطورها ثم اتخاذها اخلاقا ..

بل ان التقابل الذي كان سيحدث من النتائج خيرها بين الحضارتين الغربية والشرقية ، يبرر هنا على اساس زيف المجتمع الغربي وكونه عرضا زائلا من اعراض الدنيا الخداعة .. !!

وفقدنا على هذا الاساس ما كان يمكن ان يصبح ركيزتنا في الدفاع ضد التقليدية . ان رفض اتخاذ التقاليد كوسيلة في المجتمع يحتم اتخاذ التحرر والذكاء والوعي والفعل والنشاط وسائل حيوية ، وتحتاج هذه الوسائل زيتا مستمر الانصباب ليكمن لها ان تصبح سهلة ولينة واكثر طواعية ، وهذا الزيت المقدس هو الاستعمال نفسه للوسائل ذاتها .. فكأن عملية التفكير المستمرة تشحم ذاتها بذاتها وتجدد عناصرها وتحيي خلاياها وتماشي التطور وتجدد الحياة .. !

وكلما جمدت خلايا الذهن ، وتشبث الفرد في قوة بالذيل الطائر لجواد الاجداد ، مفضلا ان ينجر ويسحب بدون ارادة ، فان طبقات من الجهل والتعصب والبربرية تتراكم فوقه ، وكلما زادت الطبقات كثافة تحول الانسان نهائيا الى صف البهائم ، وزادت اعوام الفرقة التي تفصله عن الغرب المتطور الملتهب .

ان اول نتائج التقاليد هو تعطيل الذهن ، وبذلك تتأكد الدكتاتورية وتسود الهمجية ويصبح الحاكم ، ليس ذلك الخبيث المستور وراء قصره ، والذي يعرف طبيعة عمله جيدا . !! كلا .! .. انه جارك نفسه ، هذا الرجل الذي كان الى لحظة مستعدا ان يفديك بقلبه .. هذا الاخر والاخر والاخر .. يضحون حكامك وقاتليك ..

وفي النهاية يقف الجلف الريفي الذي يتوج راسه بعمامة خضراء مرقعة ، والذي يحمل بين اصابعه تسعا وتسعين حبة زيتون في مسبحة ، تاركا لحيته وشاربه الوسخين في كامل نموهما .. الكحل في عينيه والزبد والقذر في فمه وجسده المقرف .. هذا الرجل يصبح آلهك وحاكمك باسم العقيدة والانبياء .. !

الفان من السنوات عبرت فوق هذا الجسد المسجى الذي اسمه الشرق العربي بدون ان تستطيع ايقاظ ذهنه ، وكل الذي فعلته تراجم ارسطو بواسطة شراحه الشرقيين ، هي ان عرّفت بالذهن اليوناني مئات من الافراد المتازين العرب ، وفي الوقت الذي نصّر فيه توماس الاكويني ، ارسطو الوثني ، كان الشرق يستعيد الغطاء فوق جسده قانعا بتوصيل ارسطو كاملا الى الذهن الغربي ... وعَدّ هذا انتصارا كونيا ..!(*)

ان حرية الفكر هي حجرة التفريغ بالنسبة للذهن الحبيس ، هي الارض المطواعة التي تقبل ان يشق لهب اخضر بطنها المسحوق ليعبر عن كيمياء الوجود النادر الذي اسمه الحياة .. حرية الفكر هي التي تمنح العقل الخصوبة والقاع والظهر الذي يسنده وبدونها يستحيل ان تتطور الامة او ان تتقدم ، فاذا كانت السلطة والدين والعادة هي التي تحبس الذهن وتعطله وتصادره وتحرقه ، وجب ان يتقدم الوعي ليطالب بالحد من دكتاتورية السلطة ومن عنت التقاليد ، وكما قلنا سابقا ، فان هذا الوعي ينشأ بطريقين احدهما الطريق الاساسي وهو انعكاس التطور الطبيعي للمجتمع على الفكر ، والاخر هو المقابلة بين المجتمع المتاخر والمجتمعات المتطورة ..

الدين في اوروبا طوطم في ظل جدار فوق مخدع ، ونصف ساعة احناء للرأس المشغول بهمومه في اصابيح الاحاد ، باستثناء الايمان القطيعي للبسطاء الذين يزرعون الارز والطماطم في سهول فلورنس وجامعي الكروم في جنوب فرنسا واسبانيا القديمة .!

الدين يموت في اوروبا بتأثير اولئك الابطال النادرين الذين قاوموا سلطة الصليب البشعة ، وقاوموا التهديد بالحرق ، وقتل الاطفال وبتر الالسنة والشوي احياء .(*)

قاوموا كل ذلك لان المنطق كان يؤيدهم ، ولانهم كانوا مع الزمن والحقيقة ، واكبر مأساة في تاريخ العرب الحديث هو خلوه من الشهداء الذين ماتوا في سبيل الحرية ، في حين لا يجد الكاتب او الفرد الحديث في شرقنا العربي عونا من السلطة ، او الاخرين الوقوف بجانبه .. والنتيجة لا تكون ابدا استشهاد هذا الكاتب او الفرد ضد الدين والتقاليد ، بل سمته الابدي وتخليه عن شرفه وضرورة كفاحه . .

واذا كانت سطوة التقاليد ترعبنا الى هذا الحد ..!!

(*) « .. الامة التي تعدل مجالسها القروية مرة في كل ثلاث سنوات ، لكنها لا تعدل احكام دينها مرة في كل ثلاثمائة سنة ، هذه الامة بحاجة الى ان تخلق من جديد ... » الانسان والسوبرمان – (حكم التاريخ) موجز الثوري ورفيق جيبه – جورج برنارد شو

(*) يحسن جدا الرجوع الى المؤلف العظيم لبول هازار (ازمة الضمير الاوروبي)

في تاريخنا الاف المتصوفين من طراز القديس اوغسطين، وليس هناك مفكر حر واحد كبير بابيل ..

نحن جبناء جدا اذا كانت السلطة تخيفنا الى هذا الحد.
ان هناك حقا لك لا يمكن لواحد من البشر ان يمنعه عنك ، وذلك هو حقك بالتفكير ، ولا بد ان يستتبع هذا الحق ، حق اخر لا يمكن لواحد من البشر ان يحرمك منه، وهو حقك بالتعبير عن فكرك بالوسيلة التي ترغب فيها . حقك بالتفكير والاعتقاد والشك والاستفهام .. وذلك معنى وجودك كفرد ..

ان العالم هو ملكك ، كما هو ملك للاخرين الذين يحملون الانف والعينين التي في وجهك .. انهم مثلك تماما ، فقد ولدوا من ابوين كما ولدت انت ، ويذهبون الى دورة المياه يوميا كما تذهب انت ، يصابون بالصداع والامساك مثلك ايضا ، يتمخطون ولهم ضعفهم الجنسي وجانبهم السيء ، مثلك تماما ... فاذا كنت واحدا من نفس الجنس والنوع الذي يحكم العالم ويملكه ، فانت اذن من حكام هذا العالم ومالكيه ، واذا كنت كذلك فباشر منذ الان حقوقك ، واولها حقك في الاعلان عن الذي تعتقد انه صحيح .. وحقك في التفكير واعلان هذا التفكير ونشره كما تشاء ...

ولا بد ان يصل الامر بينك وبين السلطة الى السجن والتهديد بالتشريد ولكن هذه الوسائل لم تمنع وما منعت قط في مطلق تاريخ الفكر الغربي ، الذهن ان يبزغ من الظلمات وان يطبع العالم بطابعه ..

لقدعانى الذهن الاوروبي مرارة الصمود ضد احكام الدين وضد تعاليمه وخرافاته، فوق ارض عارية بدون سند وبدون سلاح، لان العلم لم يكن متقدما كما هو الان ، بل ان الذهن الاوروبي اضطر الى استعمال الخرافة نفسها ضد الدين ليستطيع منازلته .. اما الان فهناك صف طويل من العلوم التي تسخر رياضياتها بالخرافة وتسقطها ، وهناك فضلا عن ذلك ، جمود التقاليد الدينية ، وفرصة الفرد في مناقشة احكامها عقليا فرصة كبيرة ، ويمكن دوما ان يهدم الخرافة وان يسحقها .. ان علينا ان نطهر الارض تحتنا من العناكب المشعرة التي تخيفنا باسم المحافظة على تراث الاجداد والاباء ..

ان امامنا معركة خطيرة وحاسمة ، فاما نعيش ونكتب مستقبلنا بايدينا ، واما نموت لتعيش تقليدية اجدادنا واجداد اجدادنا .. ولا بد ان تبدأ هذه المعركة بالمطالبة بحرية الفكر .. المطالبة العنيفة اللا متوانية ، والمخلصة ..
ولنعلم ذلك جيدا : لا بد من قتلى .. ! فالسلطة والتقاليد في شرقنا العربي هما اقوى صور الجمود فيه ، وهما المعقل الذي يجرنا الى ماضينا ويسحقنا ..

واذا قتل منا عشرة او عشرون او الف ، فان الشحم الغالي الذي ينتج من عملية احراقهم ، يكفي لايقاد المشاعل الخامدة في بلادنا .. ويكفي لايقاظنا من المخدر الذي نومنا الفين من السنوات ..

ان علينا ان نبدا منذ اللحظة ، عملية ايقاظ ذهننا ، وذلك يحتم ان نناقش ونصرخ ونجادل ونكتب ونناقض وندافع ونستميت في سبيل اظهار الحقيقة . ! بيد ان كل هذه المعارك الحيوية التي تدفع بالمجتمعات لا يمكنها ان تظهر في مجتمعنا العربي بدون اقرار مسبق من السلطات بحرية التفكير والعقيدة والنشر .. وذلك يؤكد المظهر الاولي الضروري لنوعية كفاحنا .. اذ يجب ان نبدا من صداعنا الذاتي : الدين والعادة ..

وضد ذلك .. فلتتقدم السلطة فتسجن اجسادنا وتشنقنا .. ، فذلك بالذات هو انتصارنا ، وشرفنا ..!!

القاهرة — **محي الدين محمد**



دفاعٌ عن المسيح ...

بقلم غالي شكري

قصتان قرأتهما حديثا ... الاولى للكاتبة الاميركية فيفيان روث ، والثانية للكاتب الانجليزي آلان رالي. والقصتان تلتقيان في معنى واحد هو : السلام . كيف نعيده الى الارض ؟ او كيف نعيد الارض اليه ؟

تروى لنا القصة الاولى خيالا جميلا ، اذا ما جاء السيد المسيح الى الارض مرة اخرى .. ترى .. ماذا يفعل الغرب برسول السلام ؟

ستدق الاجراس ، وتمتلىء الكنائس ، وتصبح امريكا واوروبا قطعتين من نور .. ويعقد مجلس العموم جلسة طارئة ، لاجراء اللازم نحو اقامة حفلة كبرى لاستقبال المسيح عند زيارته لانجلترا ... بينما يتوجه اعضاء الكونجرس في عربة ذرية الى البيت الابيض .. ويصيح نواب الولايات المتحدة هاتفين بالرئيس الامريكى ان يستيقظ ، فقد اشرقت شمس السلام .

وتعقد الكاتبة فصلا طريفا ، عما يدور في اسرائيل عندما تبرق لها وكالات الانباء بالحدث العظيم ، فتقول : « ... وتستورد الحكومة الاسرائيلية حينذاك ، هيئة دولية من الندابات ، لاستدرار دموع الندم من المآقي الخجلى ، التي ظلت تذرف هباء على حائط المبكى » .

ويتحول كل بيت في العالم الى مادبة استقبال ، وتصدح الموسيقى ، ويرقص الاطفال ، ويختفي بابا نويل خلف شجرة عيد الميلاد ، وعلى شفتيه ابتسامة مشرقة ، فهو لن يتكلف بعد اليوم مشقة شراء الهدايا للملائكة الصغار .

ثم يحضر المسيح ..

ويركض الجميع الى رؤياه .. ويبتسم للعالم اجمع ، وهو يقول :

«طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون . »

ويصفق اعضاء الكونجرس ، ومجلس العموم بحماس .. ونسمع صوت احد القادة الفرنسيين الذين اشتركوا في التنكيل بابناء الجزائر ... يقول :

ـ اجل .. اننا ابناء الله

ويستطرد المسيح :

« اريد رحمة .. لا ذبيحة ».

ويهمس احد اللوردات في اذن احد الوزراء :

ـ انه لا يريد الذبائح .. واذن فالميزانية تكفي.. الم اقل لك ان المسيح رجل طيب ، ويصوم كثيرا .. انه يريد الرحمة بنا ... الا تسمع ... ضع على المائدة الاطعمة الجافة فقط!

ويقول المسيح :

« احبوا بعضكم بعضا »

فينظر شاب الى فتاة جميلة ، تقف بعيدا عنه في تأفف ، قائلا :

ـ اتسمعين ياماري ... المسيح يأمرك !

ويصرخ المسيح :

« لقد جئت الى السجون » .

وتسري همهمة بين الناس « ماذا يعني .. ترى .. ماذا يقصد ؟ »

ويكمل المسيح :

« ... لادعو المسجونين الى الحرية .. والمأسورين الى الخلاص .. الى الانطلاق . »

ويرهف الجميع اسماعهم .. وتبدو علامات الاهتمام على وجوه النواب والوزراء .. بينما يقول المسيح :

« لن يمحى الشر من هذا العالم . »

ويسكت برهة ، فيعلق احدهم « لقد بدأ يخرف » ..

ويستطرد المسيح :

« .. لن يمحى الشر الا اذا انتهى استعباد الانسان لاخيه الانسان.»

ويقاطعه احد الجالسين :

ـ سيدي ... هل يوجد في السماء خمر ؟

ويساله المسيح : لماذا ؟ فيجيب :

ـ لانك تبدو للاسف في غيبوبة !

ويقول اخر :

ـ انك تبدو ياسيدي مضحكا للغاية .

ويعلق ثالث :

ـ انه لم يتعلم الاتيكيت !

ويضطرب الحفل .. وينفض عنه المدعوون .. بينما يجتمع الكونجرس الامريكي باعضاء مجلس العموم البريطاني في جلسة طارئة .. ويخرجون الى المسيح قائلين :

ـ يؤسفنا جدا يا سيدي ، ان نقرر ـ بناء على رغبة شعوبنا ـ اتهامك بالتخريب ، ومحاولة قلب نظام الحكم .. وعقوبة هذه الخيانة هي الصلب !!

ويحمل المسيح صليبه .. في هذا العالم .. للمرة الثانية .

*

والبراعة التكنيكية التي رافقت قلم الكاتبة من الصفحة الاولى حتى النهاية ، هي الطابع الواضح الذي تميزت به القصة . فنحن ازاء خيال جميل ، يرمي الى غاية اجمل ، ممكنة التحقيق .

ولكن السرعة الفلاشية للتكنيك الامريكي في القصة الحديثة ، احاطت الخط الرئيسي المنتظم احداث الرواية بهالة من التضخم الانفعالي ، كان في استطاعته ان يخدع القاريء بتوهمه صدق الاحساس لدى الكاتبة.. الامر الذي لا تؤكده النظرة المتانية للخريطة الفكرية التي رسمتها فيفيان روث ، لعودة المسيح .

فاذا كان السلام عملة ذات وجهين ـ او بمعنى ادق ذات عدة وجوه ـ فان السلام المسيحي هو الفائز باختيار الكاتبة الامريكية ، نموذجا ومثالا للسلام الواجب ان يكون بين البشر .وهي بذلك تتجاهل الظروف التاريخية والاجتماعية التي نبتت بين احضانها الدعوة المسيحية للسلام .

ثم هي اختارت « الغرب » ميدانا للصراع ، ظنا منها ان ذلك يخلق تعاطفا بينها وبين القاريء ـ الشرقي والغربي على السواء ـ وقد نسيت ان هذا التحديد المكاني ليس له ما يبرره على الاطلاق . اذ كلما كان الهدف انسانيا مطلقا كان الانسان ـ في اي مكان ـ هو الخامة الاصيلة للفنان .

ولكن .. هذا يدعنا نتساءل مرة اخرى : لماذا اختارت مسز روث ، الغرب فقط ، طرفا للصراع ؟

انه لا ريب ، الاحساس المنطقي بالازمة .. ازمة الرأسمالية المعاصرة في أعلى مراحلها .. وهنا نواجه الكاتبة في السلبية الواضحة التي املت عليها هذا الخيال الجميل : عودة المسيح الى الارض .

فليس شك ان المسيح موجود على الارض فعلا .. في ملايين الكنائس.. وملايين الكتب المقدسة ... فماذا فعلت المسيحية ؟ ان « الحب المسيحي » لا ينتظر عودة المسيح ليؤكده .. فالانجيل هو البؤرة الفكرية لدعوة المسيح الى الحب والسلام .. فماذا فعل الانجيل ؟

كل علامات الاستفهام هذه لم تجب عليها الكاتبة ... وانما افتعلت مسيحا اخر ، يمكن اتهامه بالتخريب ومحاولة قلب نظام الحكم (!!)

وهذا الافتعال المقصود ، ليس وليد الصدفة في الرواية . حيث انه من السهولة بمكان ، ان نلحظ في فيفيان روث هدفا هاما من وراء الخلط وهو يلتصق بذهن القاريء ، والحيرة تربكه عند اتهام مجلس العموم والكونجرس ، للسيد المسيح ، بالشيوعية (!!)

ومن السذاجة ان نفهم رسالة السلام المسيحي على هذا النحو ، وان كان هذا السلام مازال مستقلا في العالم الغربي على نحوه الصحيح . اي كونه تعبيرا حيا صحيحا عن مرحلة تاريخية معينة . ويبدو التناقض واضحا ، عندما تضع الكاتبة كلا من المسيح و « العالم الحر » على طرفي نقيض ... اذ ليس هناك مجال حقيقي للصراع ، لو خلعنا المنظار العاطفي.

واذن فالخطوط الانسانية المتشابكة ، المخيمة على القصة ، هي خطوط واهمة صنعت بمهارة ، بقصد التعمية او ذر الغبار .

ومسز روث ـ رغم سخريتها اللاذعة الجميلة ـ الا انها تصم البشر بأبشع ما يمكن تصوره من صفات التحقير . فحين يدعو المسيح الى الحب ، يلتفت الشاب الى الفتاة المجاورة له ويدعوها للغرام . وعندما يحذر من الشعر يصفه احدهم بالتخريف . اما اذا نادى بالحرية فانه مخمور !! وهي بذلك تريد ان تقول كلاما خطيرا ... تريد ان تصف البشر بانهم اعداء الخير الحقيقي والحب الحقيقي والحرية الحقيقية !! تؤكد ايضا ان الناس في لهو دائم بمشكلاتهم الصغيرة عن كبريات أمور العالم . لا تنسى كذلك ان تنبهنا كيف ان هذه الجماهير العريضة تهتم بالخبر المثير فقط .. بالنبأ الغريب فحسب .. تتلهف على رؤية المسيح وتحتشد حوله .. حتى اذا تحدث عن السلام والخير والحب .. سخرت منه ، وانفضت بعيدا عنه .

واني في دهشة ، كيف تجاهلت الكاتبة ، الفرق بين الديانة اليهودية والدعوة الصهيونية (؟) فهي تسخر من اسرائيل ، لكونها ستفاجأ بالمسيح وجها لوجه ، وتندم لانها عاشت طوال هذه السنين ، لا تصدق انه جاء من قبل . وتظن انها بذلك قد سخرت من الدعوة الفكرية لاقامة اسرائيل والحق ان هناك فرقا شاسعا من اليهودية كدين ـ لا يتأثر بعودة المسيح الا في المحيط العقائدي ـ وبين الصهيونية كمبدأ لا يستند على اساس علمي .

واذا صلب المسيح في هذا العالم للمرة الثانية .. فذلك ينطوي ـ من حيث لا تدري روث ـ على اتهام خطير للمسيح نفسه . انه يعني ـ ببساطة ـ ان تعاليمه لم تستطع ، في الماضي او في الحاضر ، ان تسهم في تغيير العالم . هذا اذا كانت روث قد اغفلت ان المسيح يصلب ملايين المرات في كل لحظة .. تحت ظلال النظم غير الانسانية .

ورغم ذلك كله ، فان السخرية الرائعة التي ملأت نفوسنا مرارة من القائد الفرنسي الذي يقتل الجزائريين ويعتقد انه ابن الله .. ومن الوزير الذي ميع تعبير المسيح عن المجازر البشرية بالذبائح ، فأمر بالاطعمة الجافة فقط .. هذه السخرية الرائعة هي الفضيلة الوحيدة التي احببتها عند روث .

★

والقصة الثانية لا تلتقي مع القصة الاولى في الطريق الى السلام . وانما اختار الكاتب لنفسه طريقا اخر... لا ريب انه كان اكثر نظافة وفهما ووعيا .

فالكاتب يصور لنا حفلة عيد الميلاد التي اقامتها احدى الاسر الانكليزية في جنوب افريقيا .. وكان برنامج الحفل يحتوي على تمثيلية ميلاد المسيح . وعبثا حاولت الاسرة ان تجد من يمثل « ملاكا » يبشر العذراء مريم بميلاد المسيح. كان عدد ابناء الاسرة وبناتها اقل من العدد اللازم للتمثيلية بفرد واحد . ولم تشأ الاسرة الانجليزية ان تضم الى التمثيلية واحدا من السود ابناء المنطقة . وانتهى الامر بأن يقذف احد الجالسين ، مصباحا قويا على خشبة المسرح في لحظة ظهور الملاك .. بينما يتلو احدهم من وراء الستار .. الكلمات اللازمة للدور .

وفعلا .. تم الترتيب على هذا الاساس.. حتى اذا حان موعد الحفل.. ورفع الستار .. واقبل دور الملاك .. ظهر على المسرح ضوء شديد .. شديد جدا .. واذا بملاك حقيقي يقف على المسرح !!

فماذا رأى ؟

رأى القاعة مليئة بعشرات القصص .. صاحب الحفل مخمور يضاجع زوجة صديقه في ركن منزو – بينما زوجته على فراش المرض !– واحد الابناء ، ممن يؤدون احد الادوار ، جلس بين الكواليس مع فتاة سوداء يتسلى على تمزيق جلدها بمطواه ، فيثير صراخها شهوتـــه ! وجلست احد البنات تفكر في الطريقة المثلى لقتل صبي اسود ، قال لها في رسالة مجهولة « هذه الارض التي تأكلون خيراتها ... هي ارضنا »

واذ يرى الملاك مشدوها هذه المناظر .. يحطم المسرح بكلا جناحيه .. ويصعد سريعا نحو السماء..

★

والواقع ان هذه القصة ، أغنى من القصة السابقة في مدلولها الانساني فقد استطاع الكاتب ان يفضح الاغلفة الانيقة اللامعة التي تستر الاخلاق الحقيقية للمستعمر الانكليزي .

ونظــرة الكاتــب الى الاخــلاق ليست نظــرة فلسفيـــة بالمعنـــى العلمي الدقيـــق . ولكنهـا نظرة واضحة سليمـــة .. لا افتعال فيها ولا تناقض ... تبسط القضية على وجهها الصحيح ... فهو يعرض للعلاقة اللونية بين المستعمرين البيض والزنوج السود. ويكشف لنا في روعة ، كيف تنحدر المثل العليا – التي يتشدق بهـا الابيض– الى هوة سحيقة .. فالرجل لا يتورع ، من ان يضاجع زوجـة صديقة في مكان الحفل ، بينما تبعد زوجته المريضة عن نفس المكـان بضعة امتار .

وتلتصق القيم الساحقة الرفيعة ، بالوحل .. عندما نرى احد ابنـاء الاسرة ، يمسك بالفتاة السوداء ، يمارس معها انحرافاته الجنسيـــة الشاذة ، غير عابيء بأية قواعد انسانية بدائية ، فيتسلى بتمزيق جلدها، لتتمزق معه شهوته .. وانسانيته ايضا .

ويبلغ مستر رالي ، الذروة .. حين يقدم لنا هذه المشكلة البسيطة جدا .. ان افراد الاسرة لا يكفون للتمثيلية .. حيث ينقصهم فرد واحد يمثل دور الملاك ...

وهذه لقطة بارعة من زاويتين .. الاولى ايحائية مباشرة ، اذ يحدث – مصادفة طبعا – ان توزع جميع الادوار ... ولا يبقى سوى دور الملاك ، وكأن احدا لا يصلح له .

والزاوية الثانية ، تظهر من تفكير – غير مسموع – يبدو انه دار حول طفل اسود يمكنه تأدية الدور .. وهنا تبرز عقبتان : فالدراما الدينية اخذت من اللون الابيض لونا للملائكة .. وبالتالي لا يصح ان يكون احدهم في التمثيلية اسود . وهذه سخرية جميلة ، وان كانت مغطاة بالاف الستائر الكثيفة . والعقبة الثانية ان الاسرة ترفض – اصلا – ان يشترك احد السود في حفلتها !! وهذا هو الهدف الاصيل للكاتب .

وقد اجاد المؤلف الانجليزي ، تصوير الاخلاق الانجليزية .. فاذا بنـا امام ميكرسكوب انساني نظيف ، يرى به مستر رالي اخلاق قومه فـــي سخرية مرة .

ونحن لا نستطيع ان نقدم الكاتب لمحاكمة ايديولوجية حين يهدينـا هذه الشريحة الانسانية في ثوبها النقدي الجميل . حقا ان هذا الثوب اخفى الوضع العلمي للمشكلة،وانبت بدوره هذه الرؤى المثيرة للسخرية.. ولكنه ابرز مفاتن الاخلاق الانجليزية الحقيقية .. فاذا بها شوهاء خالية من كل مبدأ انساني.

ناقش الكاتب ، الاخلاق ، كواعظ قدير لا تحس معه ، بانه يقف على منبر الكنيسة . غير انه ناقشها معزولة عن ظروفها المحيطة ، فبـدت لنا هكذا وليدة الفطرة الانجليزية او الطبيعة البشرية لهذه الاسرة . ولم تكن هذه الاخلاق – في حقيقة الامر – الا ظلالا حتمية لاوضاع معينة ، تخرج عن ارادة هذه الاسرة الصغيرة ، ودائرتها الخلقية .. والمجـرم الحقيقي اذن هو نظـام اتاح لها الفرصة ان تغتصب هذه البقعـة مـن الارض .

★

اكاد اجزم انها ليست صدفة ، ان اقرأ هاتين القصتين في هذا القالب الفني المتشابه . لان القلق السائد على كتاب هاتين القارتين – اوروبـا وامريكا – تعبير حقيقي صادق عن أزمة السلام في عالم اليوم . لان الظروف المحيطة بهما واحدة .. والمشكلات الصانعة لحاضرهما واحدة.. والسحب القاتمة المظلة لمستقبلهما واحدة . وربما كانت هذه السحـب الداكنة بالذات ، هي السبب المباشر في قصر النظر ، المميز للكاتب الامريكي او الاوروبي في الوقت الحاضر ، حين يعالج هذه الازمة الخطيرة: السلام .

ولم يكن السلام يوما ، أزمة ، فضلا عن توهمهم انه ازمة خطيرة . وانما هو الخيال المريض نفسه ، خلق فيهم هذا الشك والوهم .

وهناك ظاهرة جلية في اغلب ما قرأته من دعوات سلامية في قصص هؤلاء الكتاب . وهو انهم يمثلون عنصر الخير ، بمخلوقات غريبة عـن النوع الانساني . فقد جسده الكاتب الانجليزي المسرحي « ريتشارد جان توما » في رسول من المريخ جاء يهدي الارض الى طريـق الصـواب ، واتخذت روايته « لم يعد حلما » هذا الطابع الخيالي المشوق ، قالبا لفكرته . وها نحن نرى الكاتبة الامريكية فيفيان روث ، تتخيل عـودة المسيح مرة اخرى . ولا نشك انها رأت في المسيح ، رمزا عاليا للخير والسلام . وكذلك الان رالي ، اتخذ من الملاك نموذجا حيا للخير .

ولست اجد وراء هذه الظاهرة الا سببا واحدا . هو النظرة المتشائمة لهؤلاء الكتاب ، الدافعة بهمالى حد الهوس ، حين يظنون ان الجنس البشري خلا من عناصر الخير والحب والسلام . ولو انهم يعبرون فـي صدق وقوة ، عن نظام انساني يظللهم ، بهذه الغمامة الثقيلة من الشك والحيرة والتوجس والقلق . وان كان ذلك لا يعفيهم من مسئوليتهم الانسانية . فالكشف الجاد المثمر عن الاسباب الحقيقية الكامنة فـي احساسهم الاسود هذا ، والرغبة الحادة في معرفة ايسر السبل لتهيئة منظار انظف .. هي العدسة المنيرة ، لجوانب الخير العظيمة المحتواة بين اضلع البشر . مهما طحنت انسانيتهم آلات النظام الوحش . ونعرف جيدا ان هذا النظام ، غمامة سوداء ، تعميهم – اي هؤلاء الكتاب – عن ايسر الطرق الكاشفة في عمق للعوامل الخفية التي لونت الجوانب الاخرى الشائهة بالسواد .

وقد منعتهم الكراهية المتعمدة للجماهير – البادية في وضوح مـن خلال القصة الاولى لمسز روث – من ان يتلمسوا طريقا آخر السلام ، يحمى شعوبهم من هذا التوتر ، وينظف ما علق بهم من ادران ، ويجتث ما لديهم من جذور خلقية مريضة .

ولعل انتشار النظرة الجديدة المشرقة للواقع الانساني ، هي المصدر اليتيم ، لهذه النظرة الانهزامية المتنة . فقد اصبحت الطبيعة والمجتمع في المفهوم العلمي الحديث ... حركة دائبة مستمرة .. ومن غير المعقول ان يتخلف الانسان عن هذا القانون العلمي ، المستهدف به ، تغيير عالمنا والتقدم به الى امام .

الحقيقي للسلام ... وانما هو احد المظاهر الخارجية ، للجوهر الكامن

والانحطاط الخلقي البارز في قصة رالي – ليس هو بالتأكيد العائق في اعماق المشكلة . فنحن لا ندري شيئا عن ظروف الرجل وهو يخون زوجته في حفلة عيد الميلاد .. ولا نعرف معالم الدائرة التي يعيش داخلها الابن المنحرف . ولكنا نعلم شيئا واحدا ، هو ان طبيعة هذه العلاقات الاجتماعية المعقدة ، ترتد جذريا الى طبيعة النظام الاقتصادي المنهار الذي اقلهم بالطائرة من لندن الى جوهانسبرج .

هذا الشيء الواحد ، لم يهمس لنا به الكاتب . صحيح انه اشار من بعيد الى رد الفعل الطبيعي حين دفع صبيا اسود يقول للفتاة البيضاء في رسالة مجهولة « هذه الارض التي تأكلون عليها .. هي ارضنا » ولكنها اشارة اقرب الى التلميح منها الى التصريح الانساني المنتظر من الفنان اذا وعى هذا الوضع المنطقي تماما مع اساليب الرأسمالية والاستعمار . كنا ننتظر من رالي ان يقول هذه الكلمات .. لا من فوق منبر وانما في الشكل البنائي الرائع الذي اختاره لقصته . فلا يكفينا ابدا، ان تنطق رسالة مجهولة بهذه الكلمات حتى نفهم مكان الكاتب . ولكنا نراه جيدا ونسمعه حين يشرح مبضعه هذا المدلول الكبير ، في الاطار الفني المتماسك حيث تعانقت خيوط الحدث كله في مهارة جميلة .

كذلك اذا بدأنا بحثا جادا وراء « السلام » في قصة روث .. فاننا لا نجد ، كما سبق ان ذكرت ، الا خلطا منفرا من مفاهيم باهتة غير محددة .. ليس من بينها السلام على اية حال . حتى اذا كان الرمز الواضح هو المسيح ، فان المدلول الشبكي يفرض نفسه على الرواية في غير وضوح ... ولا يومىء بالغاية المباشرة التي قصد اليها .

واذا اتفقنا على ان هناك تفاعلا صحيا بين الاطار البنائي للعمل الفني، والمحتوى الانساني .. استطعنا ان نفهم السرعة الفلاشية في التكنيك ، البارزة كعنصر اساسي في الهيكل الروائي.

والمتامل للقصتين السابقتين ، لن يعاني كثيرا في تجنب الاضواء المركزة على مكان معين بالذات ، فنرى المسيح في القصة الاولى يعقد صداقة دائمة مع الكاتبة .. والملاك في القصة الثانية عدسة امينة تعقد معاهدة مع كل المرئيات . وتبدو القصتان بعد ذلك ، كاحلام جميلة .. استغلت للتنفيس عن رغبات كامنة .

والاحلام قد تبعد بالقصة عن الواقع ، ولا تبعد بها عن الواقعية . قد لا يستمر الكاتب امينا للواقع ، ويظل – رغم ذلك – امينا للواقعية . وتتضح هذه الواقعية الحالمة بجلاء في الادب الانجليزي المعاصر . وتبلغ ذروتها في مسرحية جان توني « لم يعد حلما » ، يروى لنا قصة قادم من المريخ ، يزور احد القراء المعنيين بدراسة الكواكب . ويقول الضيف المريخي لمستر هوراس – احد سكان لندن – ان الانانية اصبحت كالهواء على الارض . كلكم تحبون ذواتكم .. كلكم تعبدون انفسكم .. وقد جئت الى هنا لاعطيكم درسا . اذ من بين امم العالم لم اجد سوى انجلترا نموذجا لحب الذات . ومن بين سكان لندن جميعهم ، لم اجد سواك تقدس حبك لنفسك ، ولا تعترف بان كلمة « الايثار » توجد في القاموس الانساني .

ويرحب مستر هوراس بضيفه مازحا :

– وماذا عندكم في المريخ ؟ ان زيارتك جاءت في الوقت المناسب .. انني مهتم بكم هذه الايام .

ورسول المريخ لا يجيبه ، وانما ياخذه الى الشارع ، وينزل به الكوارث فيفقد ثروته ومنزله وكل ماله . ثم يفيق على حقيقة جديدة : انه لن يعيش الا اذا تعاون مع الاخرين .

ويبدأ اهتمامه بالغير يتخذ شكلا ايجابيا ... ويسري « الايثار » في دمه .... ويعيد اليه الرسول المريخي كل ما فقد . ويستيقظ مستر هوراس ... اذ كانت كل هذه الاحداث .. حلما . حتى ان ديكور الفصل الاخير هو نفسه ، ديكور الفصل الاول : هوراس مستلق في اغفاءة على مقعده بعد مطالعة طويلة لمجلة فلكية .

هنا تجسدت الواقعية الحالمة ، عندما احس الكاتب بان الحياة في واقع المجتمع الانجليزي لن تسعف فلسفته بالوضوح والتبلور .

★

ومما يدعم هذا الرأي ، عشرات القصص والمسرحيات التي دارت حول المسيح والحب والسلام ، واستلهم كتابها مادتهم من امراض الانسان . فقصة تشيكوف الرائعة « مولد طفل » ماتزال قمة شامخة . وقصة بيرل باك « صليب الساحل » تعتبر في طليعة الادب الهادف الى السلام . بل وفي الادب العربي المعاصر ، نعثر على احدى روائعه – « قرية ظالمة » للدكتور كامل حسين – تتخير نفس الطريق المضيء لخير الانسان .

ونعود بالسؤال من جديد : لم يلجأ هؤلاء الكتاب الى الخيال ؟ ونعود الى الجواب في مدرسة الواقعية الانجليزية التي أثرت في بعض الادباء الامريكيين .. فنتأكد من ان الهروب وحده .. الهروب اللبق من مشكلات الانسان الحقيقية .. هو الجاني الوحيد في القضية .

ولا ريب ان الواقعية الانجليزية المعاصرة .. هذه الواقعية الحالمة .. هي التعبير الصادق عن ازمة المجتمع الراسمالي الراهن في جزء من العالم .

ولحسن الحظ ان كثيرا من طلبة الفن في العالم ، يرفضون الالتحاق بمدرسة الاحلام .

★

الا ان الجدير بالملاحظة فعلا ، هو تخلص كتاب الغرب من النزعة المتعصبة في الكتابة الفنية عن المسيح . فلم تصبح المجادلات الدينية او المذهبية هي الخامة الماثلة في كيان الدراما المسيحية . وانما نلحظ ميلا عاما من جانب هؤلاء الكتاب الى النزعة الانسانية ، وان احتفظت من المسيحية بلونها الرومانسي الجميل .

ونحن نرحب دائما بكل المحاولات التي تحتك بالواقع البشري ، وتقرب مشكلاته ، وتبعد رويدا رويدا عن التحليق في فضاء الخرافة .

ولذلك فان المسيح والحب والسلام ... ستظل جميعها اضواء تجتذب اشعتها من قرص الشمس في وضح النهار ، وليست اضواء صناعية في ليل مدينة تهوى البريق والاحلام .

غالي شكري
القاهرة

العدالة الجانية

خرجت والصباح يفتح للشمس ذراعيه ضاحكا جذلانا
والهزار اللعوب في مهرجان النور يلقي نشيده الفتانا
والنسيم الثرثار يفضح سر الزهر آنا ويكتم السر آنا
غادة في لحاظها سكر السحر وغنى ولم يزل سكرانا
وكساها الشباب من حلل الحسن برودا تماوجت الوانا
روعة زادها الحياء كمالا وجمال يجل عن ان يدانى
خرجت والرجاء، يحدو خطاها ومناها تغالب الاشجانا
اين تمضي ؟ اتسأل الناس ان يحنوا عليها ام تسأل الرحمانا؟
هي في مطلع الحياة ولكن ناصبتها الاقدار حربا عوانا
سلبتها ذاك الحبيب الذي لم يعبد القلب فوقه انسانا
كان في ليلها شعاعا سنيا فتلاشى على الفضاء دخانا
كان في ايكها هزارا فلما طلع الصبح غادر الافنانا
كان دنيا من السعادة والانس طواها الذي طوى الايوانا
كل ذاك النعيم لم يبق منه غير ذكرى تجدد الاحزانا
وبقايا ابتسامة في مطاويها يؤج الاسى لظى حرانا
ووليد يلج في فمه الحرف ويرتد خائبا خجلانا
ان يجمع يملأ الفضاء بكاء واذا اقتات هزه الحانا
لغة لا يجيدها غير من يجهل فن الخداع والدورانا
هو في الكوخ صورة لابيه رسمته اسمى الاكف بنانا
افترضى بان يجوع ويغني برعما ناعما الشذا ريانا

*

ها هي الشمس يغسل البحر رجليها ويلهو بتبرها ولهانا
وابنة الكوخ ما تزال تلاقي اينما دار طرفها الخذلانا
لم تجد في الورى كريما يؤاسيها وحرا تشكو اليه الزمانا
رنة الفلس تفتح السمع لكن انة البؤس توقر الاذانا
يا لفقر النفوس ان سيطر المال عليها واسلمته العنانا !
كل باب دقته اطلع ذئبا كل نور بدا استحال دخانا
يا للؤم العطاء ان فحت الشهوة فيه وسنت الاسنانا !

*

وتمشي العياء في جسمها الواهي والفى القنوط فيه مكانا
فترامت تئن من ألم الجوع وتشكو الاله والانسانا
« رب عفوا اذا فقدت رشادي ان في القلب للاسى بركانا
رب ماذا جنيت حتى اقاسي انا وابني العذاب والحرمانا
امن العدل ان نموت من الجوع وكلب الغني يسقى لبانا ؟
امن العدل ان نتوق الى الطمر وهر الامير يكسى جمانا ؟
انت اوجدتنا من العدم الاعمى فهلا دفعت عنا الهوانا ؟
انت اسلمت للسفينة نفسينا فهلا وقيتنا الطوفانا ؟
رب ماذا ازق ان جاع طفلي وهو فرخ لا يحسن الطيرانا
آه لو سدت المدامع جوعا آه لو يرضع الوليد حنانا!
رب عفوا اذا مددت لرزق الناس كفا لم تعرف العدوانا
او لم يستحل داود لما جاع مثلي ان يسرق القربانا؟
رب ذنب نساق قسرا اليه وحرام نبيحه عميانا !

*

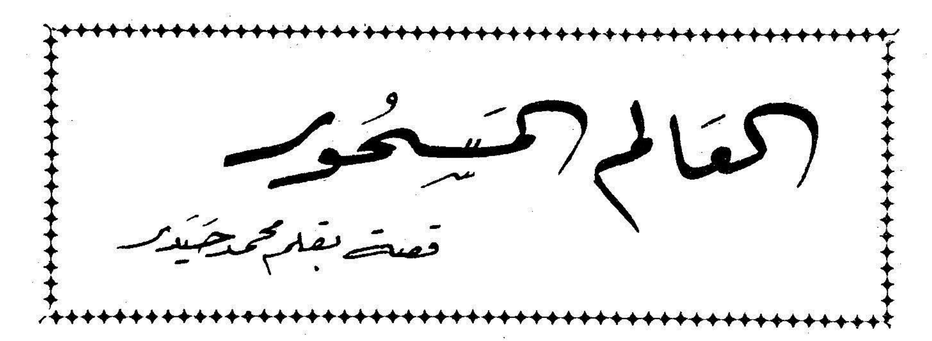
نشر الليل راية الصمت الا حيث القت يد الغني العصيانا
فتقاوت بنت الشقاء وشدت نحو قصر يشامخ العقبانا
ينطق العز في مقاصره الزرق ويزهو بحسنه نشوانا
قام فيه عرش جليل عزيز لم تر العين مثله مهرجانا
يتهادى كوبيد بين صباياه وباخوس يسكر الشبانا
دخلته كأنها خطرة الشك بنفس مملوءة ايمانا
تذكر الطفل يستغيث فتخطو بثبات لا يرهب الحدثانا
وتراءى لها الفضيحة والسجن فينهار قلبها خفقانا
لم تزل هكذا الى ان رآها حارس القصر تدخل البستانا
فانتحى بالعريس يهمس سرا هولته ظنونه الوانا
قال يا سيدي رأيت لصوصا يتهادون في الحديقة جانا
يلتظى في عيونهم لهب الشر كما هجت بالعصا ثعبانا
فاستوى السيد الجليل المفدى يستفز الشيوخ والفتيانا
فاذا القصر بالسيوف محاط واذا الشاة توقظ الذؤبانا
واذا القيد في يديها وقاضي العدل يملي احكامه غضبانا :
قد تجرأت يا شقية ان تسطي على ارفع المنازل شانا
فاقطعوا كفها الاثيمة ان العقل يقضي بان نقيم الامانا
هكذا وطد العدالة قاض لا يخون الضمير والوجدانا
هكذا كافح الرذيلة قاض يلبس الخز من دماء الحزانى

*

نفذ الحكم في الفتاة فضج القوم زهوا وزغردوا استحسانا
وتعالى هتافهم كفريق الجن آنا وكالزمازم آنا
فالتقى في الفضاء انات طفل مات في الكوخ جائعا ظمآنا

الارجنتين

زكي قنصل



العالم المسحور

قصة بقلم محمد حيدر

((١))

كنت ساحتفظ به في الظلمة .. في اعماق ذاتي ، كبقيـة الاسرار المحبوسة داخل الجدران . هناك .. في مقبر الاسرار ، حيث لا تناله الايدي ولا تقتحمه العيون . وقد حالفتها على ذلك ، واقسمت بحبنا بعينيها الحزينتين .. بالدموع التي سفحناها بالدم . اقسمت ان يظل دفينا الى الابد ، والا يطلع عليه اي انسان سواي .

لقد كنت احب لو اف يبالعهد ، وابقيه مجهولا فلا امزق ذلك الجدار من الصمت . لكنها الدموع .. وصوتك الراعش الابله ، والحاحـك المجنون ، واخوتها الصغار ، والاب الذي يتألم في صمت .. تعذبني بقسوة وتلاحقني اينما سرت .

ولكن ماذا تريد مني؟(وانا لا امنعها من الكلام). الاتذكرين قصةالرجل الذي حركه الطمع ، فذبح الدجاجة التي كانت تبيض له كل يوم بيضة من ذهب ، فلما لم يجد شيئا عاد يعض اصابعه من الندم ؟ وانا اخاف ان يتكرر المشهد ، واسبب لكما الآلام لو تكلمت . ولكن ما دمت تريدين ذلك ، فسوف اتكلم .. وتلك خطيئتك يا جارتي العزيزة .

((٢))

لقد خرجت من ألبيت ، واصبحت ((غرفتي)) الآنفارغة .. (أترى قلباكما ايضا اصبحا فارغين ؟ أيمكن لنا ان ننسى .. ننسى خمسة اشهر قضيناها بالدموع والالم ، والحب والخوف ؟)

خرجت الان من البيت، وسوف يأتيكم طالب اخر ، يطرق الباب كما فعلت .. وفي وجهه تساؤل ابله عن غرفة فارغـة . وتفتحين له الباب ويتكرر المشهد الذي مثلتموه مرات ومرات : يتحلق الاولاد حوله ، وترمقه الفتاة من بعد ، بينما تبتسمين له يا جارتي العزيزة .

ويحتل ((دوري)) .. ثم يرتفع الستار ، وتبدأ المسرحية ، كما ابتدانا في يوم من الايام .

* *

جئتكم مجهولا اول الامر .. طالبا بليـدا لا يحسن سوى الفـراغ والسكر . وكنت ابحث عن غرفة فارغة . (والفراغ في اعماقي كالرصاص) وفتحت لي الباب ، وبدأت الحديث عن الغرفة ... عن مغريات قـد اكتشفتها فيما بعد !! والتف حولي الاولاد ، وفي اعينهم ذل تعودوه من قبل . والفتاة في زاوية من الغرفة (وكدت ابكي) تنظر في صمت آلي.

ودفعت لك الاجرة ، ورأيت عينيك تلمعان (وطالما لمعتا من قبل) .. وحل بينكم عابر جديد لا تعرفون اي شيء عنه . وهكذا وجدت نفسي في عالم غريب ، كان عليكم ان تبذلوا ما بوسعكم لتجعلوه مألوفا لدي .

**

بدأت عهدي بينكم بالصمت . (وتلك عادة لازمتني من الصغر) لكن أيجب ان انبش الاسرار ، واحدثك عن نفسي ، عن امور فعلت المستحيل لابقيها بعيدا عن العيون ؟ لكنها (واعذريني اذا تكلمت) لا تنفصـل مطلقا عن المأساة .

* *

اذكر اول يوم قدمت ، وجئتكم مساء اطفح بالخمر .. ويداي مثقلتان بالحقيبة ، بحقيبة تكدس فيها كل صيدي من البؤس والتشرد . وكنتم في ((غرفتي)) ذلك الوقت : البنت على الاريكة ، واخـران صغيران كالقطط ... بينما تنسجين خيوطا من الصوف . ورميت الحقيبة ، وانطرحت على السرير بلا تحية . وسمعت همسا خفيفا.. واطفـأتـم بعد ذلك النور .

ومر اسبوع علينا او اقل منه ، وانا في عزلتي كأبـي الهـول . (الم اقل لك ان الصمت لازمني من الصغر) ورأيتكم تلاحقونني بابصاركـم ، واعينكم تدور في محاجرها دورات سريعة قلقة ، كانني حيوان جديد على الارض . ثم حل الاتهام والشفقة ، مكان الحيرة والدهشة . وسـمعتكم (لا تنكري) تتهامسون بذلك .

كنت اعلم انكم (وجارات كثيرات) تتحـدثون عنـي ، وعن اسـمي (تلوكه الافواه) اسود كالليل . كنتم تتحدثون عن الفظاظة ، والصعلكة.. وان في طبيعتي شيئا من الجنون . وفعلا كنت على شيء من الجنـون ، وكان جنوني من نوع لم يدخل بعد في نطاق العلم .. او حساب الاطباء والمتفقهين..

كنت (وما تبدلت) افعل كل ما يجعلني في نظر الاخرين موضـع الكراهية ، والدهشة والحقد ، وتلك هي الاشياء التي عمقت وجـودي اكثر من الحب ، ووضعتني بمفردي على صعيد واحد مع الكون .

لقد تمنيت (وفعلتموه فيما بعد) لو كرهتموني وحقدتم علي . ولكن!! ولكنني غدوت ((موضوعا)) للعطف والشفقة .

كنتم تشفقون علي السكر والتشرد ، والفراغ والصمت.. وتلك العزلة، تفصلني بوحشتها الرهيبة عن العالم . وبدافع الشفقة والفضـول (والشفقة اولى مراتب الحب) تسألين عن حياتي : عن الفوضى والكسل، ولماذا لا ابقى (كما اخبروك بذلك) اكثر من شهر في اي بيت !!

**

لماذا الفضول؟ (ولولاه لما اختلطنا يا جارتي العزيزة) بل ظللت في العتمة ، وظل حبنا ــ لا تجفلي ــ كامنا في القلب) .

لماذا يا غبية ؟!

هل سألتك يوما عن زوجك المخمور ، والاخوة الصغار .. والبنت ، ضاحكة لكل زائر ؟

لقد تخيرت اصعب الطرق ، واردت النفوذ الى اعمق الاسرار . اردت ان احدثك عن الفوضى .. والتنقل والكسل ، (جدراني الوهمية) فاهدم ــ بكل بساطة ــ ما بنيته خلال اعوام كثيرة وتعبت فيه . وكان علي لـو تحدثت ، ان اعود الى طفولتي (ويومها ما تشربت روحي الصمت) ... فانبش الاسرار .

لا .. لن احدثك عن هذه الاسرار، عن سر الفراغ والعزلة ، عـن الكراهية ، والحقد .. يتخثر في اعماقي كالحقد . وانما ساحدثك

بطريقة تفهمين بها كل شيء . سأحدثك عن التقزز ، والقيء والرعب ، كلما رأيتك تبسمين في وجهي (كالجثث الميتة) وتضحكين.

الي كنت تبسمين ، لي انا بالذات ؟ (جارك العزيز !!) ام كنت تبسمين لشيء اخر .. للنقود التي دفعتها ... لاضيف شهرا الى الرصيد؟

لا ... لا تكذبي يا جارتي العزيزة ، فقد رأيت كثيرات ، وكن جميعا يبتسمن في وجهي ، ولكنني كنت اعلم (وانا لا اخدع بسهولة) .. انني « ادفع »» « ادفع » :

للضحكة ثمن .. وللايماءة ثمن .. واللمسة الناعمة ، لها ثمن اغلى من الضحك والايماء . واما ان يرتفع الثوب (وكلهن يؤجرن اجسادهن) فهذا امر يدخل فيءنطاق العرض والطلب !!

اتدركين معنى ان « يدفع » الانسان ، وان يعلم ان كل شيء يباع في سوق العبيد .. حتى العواطف ؟

لقد كنت اعرف (ولا اخدع نفسي) ان القيمة لما « ادفع » . اما انا ؟ انا كانسان معين.. فلم يكن لي اي وزن على الاطلاق !!

وكان اكثر ما اشعر بالغثيان منه ، عندما تطلين في الصبح علي ، لتبصقي من وجهك المسلول (كرائحة اللحم النتن) تحية بلهاء .. لا معنى لها ولا رصيد.

ولكن أهذا فقط ما يثير في الرعب والقيء؟ لا .. فهناك اشياء كثيرة :

البيت الذي سكنته، والغرفة التي حللت فيها والسرير الذي ضمني ليالي كثيرة . هذا السرير اللعين ، كم طالبا يا ترى رقدوا عليه؟

سكنت غرفة، واثنتين .. وسبع غرف ... بل واكثر من ذلك ، وجاء دورك الان يا جارتي العزيزة ..

ولكن ..!!

ولكنني كنت دوما اراهم بجانبي، اولئك الذين جاؤوك قبلي. مئات الجماجم .. تزحم رأسي على الوسادة ، وتدب فوقه كالعقارب . والاغطية (لا تضحكي) كنت احسها مليئة بالشوك ، وكانت تخزني كالابر .

كنت اخاف اي شيء من الغرفة :

الخوان والكرسي ... ومقبض الباب (تراكمت فوقه الايدي) والاريكة وصحن السجائر . كنت كالمحرمات في نظري ، كما لو انها (لا ترفعي الحاجبين دهشة) تمائم القبائل البدائية . وما استعملتها يوما باخلاص وحربة تامة .

لم أرها على حقيقتها .. مجرد أشياء جامدة ، بل كانت (واحساسي بقلب الأشياء) حية نابضة كبقية الاحياء ، وما لمستها يوما الا شعرت بها تحت اصابعي كالضفادع !!

(وترغبني الضفادع ، وهذا من الاسرار)

وكان أكثر مايخيفني الليل !! وفي الليل يغفو العقل ، وينطلق الخيال ياجارتي العزيزة .. فيتبخر العالم الذي نعيش فيه ، ويجسد لنا الوهم عوالم لا نهائية ، فتنبت الاشباح من الظلمة .. كالعفاريت ايام الطفولة .

وعندما كنت أستلقي على السرير في العتمة .. في الموضع الذي كان يشغله جارك السابق ، وعيناي مصلوبتان على السقف ، في النقطة التي تجمع فيها بصره من قبل ، كان السقف يتحول (كأننا في عالم مسحور) الى شاشة للعرض ... فأرى عينيه تحدقان من نفس النقطة.. تحدقان في وجهي (كعيون الاموات المفتوحة) وتبسم لي في سكينة قاتلة ... مطفأة البريق ..

كانتا تنظران الي .. وترويان قصص الماضي العريق !! كان يلفها بذراعيه فترتمي على صدره ، ويداها تعبثان بشعره الاسود .. وتضحك في خلاعة ، وبحفر ثغرها المجنون .. الف قبلة على خديه .

وعبثا حاولتان ادبر لها وجهيءاو اغمضءالعينين... كانتءعيناهءتسمرانني كالمغناطيس ، وتحيلانني ــ كمادوز عند الاغريق ــ الى تمثال من حجر. (وامامي الان زجاجة من الخمر).. ما كان بدفعني الى السكر ، ولولاه جننت ! !

كنت اقتل الوهم بالخمر ، فيتبلد الاحساس ويموت الخيال والفكر .. وبالجرأة التي كان يشيعها الخمر ، كنت اتحدى (ببطولة هوائية) كل شيء في العالم ، عالمي المسحور .. في « غرفتي » المتواضعة :

أنحدى عينيه .. عينيه الجامدتين ، تلمعان كالزجاج الاسود ، والجماجم المقطوعة .. تكالبت على رأسي في تزاحم مسعور ، شبيهة بالدود الذي يزحف على الجيف

أنحدى الجماجم ، وعينيه .. وجدران الغرفة .. وسقفها .. كتابوت مظلـــم .

عرفت الان لماذا اسكر ، وآتي مع الفجر اخر الليل !!

**

كنت انسى هذه الاشياء.. أنساها اذا سكرت . ولكن مالم أستطع نسيانه على الاطلاق ، (وهذا ليس من الاسرار) ذلك النظام الثابت ، لا يتبدل ، توضعت به الاشياء :

السبت والجمعة .. وخمسة ايام أخر ، ورفاقي (وانا ابدل الاصدقاء بسرعة) أراهم كل يوم . والبيت الذي سكنته .. وان اضع المفتاح في القفل ، ثم الصور .. لم تغير مكانها على الجدران . والارائك الفارغة، كالمومياء المرصوفة .. تحملق في بلاهة كأعين عمياء .

ما معنى هذه الرتابة وهذا الثبات ؟ ما معنى ان تسير الحياة بهذه الالية الرهيبة الى الابـد ؟

كنت أخرج في الصباح واعود مع الليل ، أعود فاذا كل شيء مكانه .. وأزحزح الطاولة ، وأبدل موضع السرير .. وأغمض عيني واقبض في تشنج على الكرسي ، واخبطها بعنف على الارض . وأفتح عيني .. ولكن !! ولكنها لاتزال (رغم ارادتـي) موجـودة .. وتفـرض نفسها علـي بشكـل لايقـاوم .

وكنت ايضا .. (لاتسأمي فهذا اخر سؤال أجيب عليه) أكـره « الاخرين » ويملأونني بالرعب . كنت اخاف ــ لو اطلت الاقامة ــ ان أختلط بهم فتشف الحواجز .. والجدران تنهار . وكنت أقـرف من الصلات الانسانية المتبادلة ، من هذه التوافه ، وما تواضع الجميـع عليه : الصداقة والمجاملة ..والعطف والشفقة ، وان يحب المرء جـاره وسـاعد الاخرين . كنت (وهذا لازمني من الصغر) أحب نفسي وأكـره العـالـم .

كنت اريد حادثا فريدا يقوض أعماقي ويتركني كالرماد . أربـده لاخرج من نطاق التوافه ، واعطي « معنى » لهذا الوجود الذي استمر فيه . ولكن ..!! ولكنني أعيش في سوق العبيد .

عرفت الان سر التنقل ، وعزلتي ، وأواخر الليل .. ولماذا لاتجاوز الشهر في أي بيت !!

« ٣ »

ــ ... ؟!

اتشعرين بالملل ، تقولين ان الحديث قد طال ؟ لقد هدمت حـواجـز الصمت ، ولن اتوقف حتى ينضب الاناء . لقد ارغمتني على الكلام والحت علي .. وتلك خطيئتك ياجارتي العزيزة .

انك (وارى ذلك بوضوح على الوجه) تتساءلين بملل عن جدوى هذه الاحاديث ، وأية صلة لها « بالامر » !!

ولكـــن ..

مهلا . لو انتظر القاتل ، لمات القتيل . فقد وصلنا « عقدة » الروايه وهذه الجزئيات الصغيرة هي التي سببت المأساة .

« ٤ »

هنا الصعوبة . في البداية !

في الثالث من اذار سكنت . أستطيع ان احدد هذا التاريخ . ولكن ايمكن لي ان اقول متى .. ولماذا .. وكيف أحببت ؟

اللحب بداية ؟ أيحده تاريخ او يخضع للعقل ؟ (والحب ، كالحقد والكراهية ، يلقي ظله على المرء .. فاذا كل شيء قد تبدل في نظـــرة ، كأنه في عالم مسحـــور) .

ايمكنني ان احدد له بداية ؟ لا .. واعذريني اذا اختلط الامر وضاعت التفاصيل (وقد بدأت اشعر بالسكر) علي .

**

اذكر ان أعيننا تلاقت اول المأساة في صمت . كشخصين غريبـــين تلاقيا في تصالب الطرق . وهزتني رعشة حينذاك ، وقلت انها عابـــرة .. ولم اعطها أهمية ذلك الحين .

ثم يوم .. وأيام .. (والزمن سريع المرور) وتبادلنا خلال ذلك نظرات كثيرة ، شعرت بها تزلزل كياني وتغوص الى الاغوار . تبادلناها خفية عن الاعين .. وكانت تترسب في أعماقي نظرة بعد نظرة ، وتضيء اماكن لم يدخلها نور على الاطلاق . امنت حينئذ بالمستحيل ، وبالاعصار يحطم اسطورة العزلة ، والعتمة والصمت .. ويقلع جذورها الى الابد .

ولكـــن .. !!

ولكنني ..(والحقد والكراهية، واربع سنوات تغلغلت في الدم) مضيت في عزلتي دون ان اقيم احلاما عليها ، وأنا أحسبها (وكلهن كذلك) نظرات « مأجورة » في ســوق العبيـــد .

ظللت مكاني في الظلمة .. وراء حجب الصمت الكثيفة ، وستـــار من السكر والتمرد ، تائها حيران .. والقلق ينمو بصدري ويأكلـــه الليـــل والنهـــار .

**

النظرة الخفية ، واستعارة الكتب ، وسؤالها عن الجارات السابقات..!! وان تلبس ما اريد .. كلهاجرتسرا يا جارتي العزيزة .. ولكـــن !! اهذا (وقبلها كثيرات) مايسمونه الحب ؟

كنت أريد ماهو اعمق من النظرة .. لافتح النوافذ التي اغلقتها منذ ايام بعيدة . أريدها (ويتمطى الحقد والانانية) ان تركع .. وترمي .. في لهفة الهيمان ،حبها على قدمي .

وانتظرت « المستحيل » !!

واتى يوم تجرات فيه وابتسمت . ورأيتها تبتسم .. وابتسمـــت كذلك ، ومن عينيها يطل ندى حنان صامت . وغادرت يومها البيت ، وانا اود لو احتضن العالم.. وكان النور يغمر كل شيء في سلام ابدي .

وفي المساء رجعت ، وكانت وحدها حينذاك ..

كنت احسب انني ساقاوم ، وان العزلة والصعلكة ، وجدران الصمت.. ستبقى صامدة وتوقف الطوفان . ولكن ما ان علمنا اننا وحيدان .. حتى عرانا الاضطراب ، وطفت رغباتنا الحبيسة ، واحرقنا سياج من النار .

توقفنا لحظة جزعين .. وعالمنا يتلاشى رويدا من الوعي .. ثم لفنـا الاعصـــار . واخيـرا ..

اخيـــرا ؟

وقع « المستحيل » ياجارتي العزيزة .

**

ثم يوم .. ويومان .. وعشرة أيام .. وايام اخر .. وجارك « العزيز » يعيش في دنيا من السحر ، ويعب في لهفة الظمآن من الحب . وهجرت الرفاق والاصدقاء . وتبحث عني الشوارع .. عن ذلك المتشرد ، يترنح سكرا ويملؤها اخر الليل بالضجيج .

وأبي .. (اضخم مسكين على الارض) تراكمت رسائله في بريـــد الجامعة ، يسألني ، في عواء ، وقد رابه الصمت . وتركت الـدروس والكتب .. والمعهد الموقر والمعلمين الطيبين ، ورسبت (معذورا) ذلـــك العام . وقال يومها الاساتذة ، والطلبة ، والاذنون وبعض الرفاق : لمـاذا (ويسقط العالم) سقطـت ؟!

ومضى شهر ، وشهران .. وتوقعت ان اذهب ، كاربع سنوات فـــي دمشق . ولكن ..!! ولكنني (وعينيها .. بهما توسلت الي) اضفـــت شهورا للرصيـــد .

**

اضحكي .. (فقد ثملت الان) اضحكي طويلا ؟ فقد تبدل العالم وتغيـر كـــل شيء فيـــه .

فنسيت الماضي .. وأسأل في دهشة عنه !! وتخونني الذاكرة .. وعبثا احاول ان استعيد شيئا منه . فتغيب عن ذهني الطفولة والصمت ، وطريق المدرسة .. والعصا كلما تاخرت .

الفراغ والصعلكة ، والاشباح والظلمة .. والسكر والتشرد .. وان اتي اواخر الليل . ومقبض الباب واسواق العبيد .. والضفادع وعيناه.,. كلها (واستفاقت بعد ذلك) غفت واستسلمت للنوم .

— ... ؟!

اتعجبين من ذلك ويحفر وجهك الدهشة ؟ لماذا ؟.. والحب يـــاتي بالاعاجيب . لقد احببتها ، وتحبني ايضا . اتنكرين ذلك ؟

تعلمين جيدا ، ويعلم اخوها الصغير ، وأبوها الذي يجيئني اخـــر الليل مثقلا بالخمر .. تعلمون جميعا انها كانت تظل ساهرة حتى ساعة بعيدة من الليل ، وعندما كنتم تسألونها السبب ، كانت تقدم لكم اعذارا كثيرة .. ابسط هذه الاعذار ، انها تظل على الفحص وانها بحاجة للدارسة . وكنتم تعلمون أنها لاتقول الحقيقة ، وأنها لم تكن بحاجة الى هذا الوقت؟ فهي تقرأ طيلة النهار ،والفحص لايزال بعيدا .. بل ابعد مما تقول .

ولكن ..!! ولكنها كانت تظل ساهرة لترقب ضوئي المشعل ، او حتـى اذا جئت في ساعة متأخرة من الليل .. وما اكثر ماأجيء اواخر الليل .

**

لقد سهرت في الماضي حتى تعبت ، وغفوت بعد ذلك فقتلني النوم . وكنت ظمآن ، ثم أغرقني الماء .. فجرعت حتى بشمت . واخيرا ..

اخيـــرا ؟

تيقظ المارد ، واستفاقت الاشباح . فشعرت بالحنين للفراغ والصعلكة .. والتشرد والسكر ، وان اتي اواخر الليل . وتذكرت الطفولة القديمة والمدرسة .. والعصا كلما تاخرت .

وتأملتها طويلا .. شعرها المسدل ، وعينيها الحزينتين !! ولكنني لـم اجد فيها ما يثير ، فعجبت من الجنون الذي اندفعت فيه .

واجتويتها .. وشعرت بالسأم . (ويدفعني الحقد والانانية) فاضربها كـــل يـــوم .

انا مخطىء ياأعز جارة ، ياأتفه من عرفت ؟

وخالطها نوع من الجنون .. ونرمي حبها من جديد على قدمي . وفي أعماقي يتمطى الغرور والحقد ، واربع سنوات في دمشق .. في اسواق العبيد !! فأسخر منها وأمزق رسائلها الحمقاء وأبعثر خصلات شعرها المعتم ... تاريخ حبنا القديم ، واذكرها بالف جار (عزيز !!) تقدموا علي .

وتبكي .. فاضحك !! (أممنوعني من الضحك ؟) واخذت تهددني بالانتحار . تمنيت ، ساخرا ، لها النجاح . !! وفعلا اقدمت على الموت (ورسالتها الاخيرة لاتزال لدي) .. ثم ترسبت في صدرها الافراص .

سبعة افراص كما قيل ، واثنان واربعة .. وانتهى حبنا ياجارتي العزيزة. وحملتها الى مستشفى الجامعة ، وأنقذها طبيب هناك . وبعد ذلك عرفتم كل شيء !! وعقب ذلك خرجت . خرجت واصبحت غرفتي الان فارغة .. (اترى قلباكما اصبحا فارغين ؟)

« ٥ »

لقد هدمت لكم حواجز الصمت ، فعرفتم كل شيء . نرى ماذا ستفعلون الان ؟ هل تلومونناعلى ، وهل اراها يا ترى اذا مررت ؟

أم ستفتحين لي بوجه عابس عندما اطرق الباب ، قائلة بصوت مات الذكريات منه ، وفيه من التبرم والضيق اكثر مما اطيق : « تفضل ياسيدي بالدخول » ..!!

وادخل .. ونبقى بعدها الساعات ، صامتين في كآبة او نثرثر الى الغثيان ، بما لاطائل منه . بينما تتحرك عيناي في قلق الملهوف .. وفي أعماقنا شعور بما اريد .

سوف يمضي الزمان ، وننسى بعضنا في زحمة الحياة ، ويعفى النسيان على كثير من التفاصيل ، ويحتل « غرفتي » كثيرون . ولكن لن يتاح لواحد على الارض انيحل مكاني في القلب . ومهما تقادم بنا العهد ، واصطنعنا الكراهية ، فسوف يظل في أعماقكم شيء يمتنع على النسيان .

سوف تذكرون انني مررت ..

سوف ترونني في كل شيء : في « غرفتي » .. في السرير الذي احتواني والمكان الذي جلست فيه .

لقد خرجت الان ، ولكني تركت فراغا في قلوبكم .. وسوف يغزوكم القلق وتظلون كالضائعين . ولن يمتلىء الفراغ ان تشعروا بالهدوء ، الا (واسأليها ياجارتي العزيزة) اذا أتيت .

انني أراها الان .. لاتزال ساهرة في الانتظار . نحلم بالمعجزة وتأبى ان نصدق انني ذهبت . ولكن ..!! ولكني ذهبت .. ذهبت ولن اعود .

**

لقد اغلقت النوافذ من جديد ، وبنيت كثيرا من الجدران . وعدت للظلمة، السكر ، للتشرد .. والفراغ والصمت .

ولكن ..!! ولكن شعاعا من عينيها قد تسرب الى الظلمة .. واغلقت أعماقي عليه ، وسوف يظل فيها حبيسا الى الابد . سأحمله باخلاص ، واذكر دائما .. اذكر انني احببت .

**

لقد انتهيت .. وانتهت زجاجة الخمر . وكتبت كثيرا على الورق ، وسوف ارسلها في الصباح ، ونقرئينها ياجارتي العزيزة .

ولكن ..!!

اصحيح ان هذه الصفحات ، هي الاعصار الذي احرقني وخلفني كالرماد؟

درعا ـ الاقليم الشمالي — محمد حيدر

من « جمعية الادباء العرب »

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق : بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما حوالة مصرفية او بريدية

*

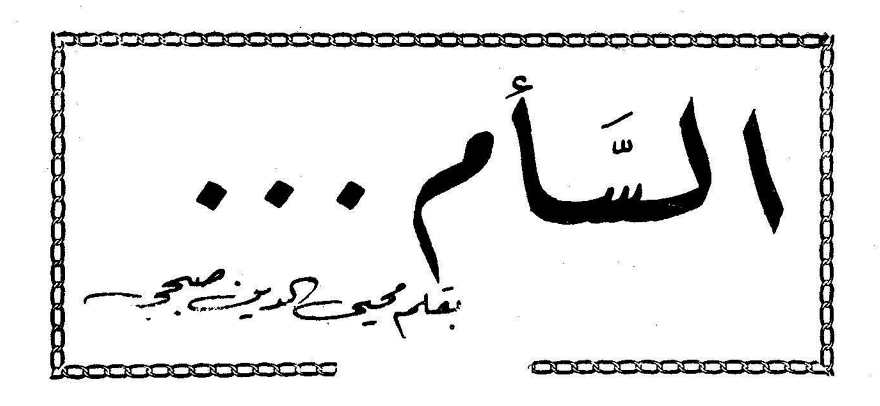
الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣



السأم ... هو شيء مائي لا طعم له ولا لون ولا رائحة .. منتشر في كل مكان ولا سبيل الى حصره . انه الكائن الاجوف الذي يملأ فراغ المكان .. اي مكان.

هو لصيق بالحياة وغير مرتبط بها فلو زالت الحياة من ارض الوجود لخلفها السأم ولعاش لا يخشى الا نفسه.

السأم شيء متمدن .. ينمو كلما نمت الحضارة وازداد وعي الانسان لانسانيته . ففي العصر الحديث صار السأم فلسفة اسمها « العبث »

السأم كائن راق مترف شديد الاعجاب بنفسه كثير المراعاة لمشاعره فلا يغتذي الا بدخان السجائر وبن القهوة والتطلع الابله الى وجوه الاخرين ، لذلك نراه قابعا في الرئات السود والاعصاب المهترئة والعيون المطفأة .

قد يكون السأم من الحيوانات الجترة ، بل لا بد ان يكون طيرا مجترا له ملاقط اذا علقها بانسان جره رويدا رويدا الى الانتحار . ولا يدري احد : أيترك السأم فريسته بعد الموت ؟

للسأم طباع وحركات وعادات . وحركاته اما ... متراخية او عصبية منفعلة . فمن الحركات الكسالى التثاؤب والتمطي واشاحة الوجه عن جريدة ما بعد تصفح سريع لها والتقلب نحو كل الجهات بلا راحة، ومن حركاته الهائجة الزفير والنفخ بغضب او ان يشد المرء شعره ويضرب الطاولة بحنق .. مسكين وجه الطاولة كم يتلقى لكمات !.

السأم ... لعله الكائن الوحيد الذي خلق بلا سبب . انه علة نفسه وسبب وجوده ، وما دام قد وجد دون سبب فان له ملء الحق ان يأتي دون سبب . فقد يستيقظ الانسان في بكرة الصباح هاديء النفس ، في سلام مع العالم ، وما ان يقوم بالقليل من الاعمال الصغيرة التي يعملها كل انسان في كل صباح .. حتى يشعر بانه مرتبك وانه حائر .. نسي ما يريد ولا يعرف ما يفعل. الامور تختلط. والارتباك في الامور اليومية التافهة هو بشير السأم . انه النفير المدوي الذي يعلن في ضجيج الوساوس ان السأم آت . وقدوم السأم بعد الارتباك شيء منطقي وبدهي: الم تحفظ ايها الانسان اعمالك ؟ الم تألفها ؟ واذن عليك ان تنساها من جديد . واذا كنت حاجزا فان عندي – انا السأم – مقدرة عليك وعليها !

والحق ان الحوادث عبده المطيع الخانع على الدوام . سرعان ما يبدأ التشويش : في الدماغ وسوسة وخرير ، ثم تنتقل هذه الاصداء الى العالم الفرد الذي يخص كل انسان على حدة ، فاذا بالامور والحوادث والذكريات والآمال والاوهام تغلي فتفور ثم تنصهر كلها في سائل زهم مقيت. لكن عناد الانسان يدفعه الى ان يجادل نفسه بغية اعادة الوضوح الى الاشياء المتشابكة ، فيكون كمن غرق في الطين : كل محاولة تزيد من سقوطه في اللزوجة .. وهكذا تصبح الامور دوامة دوارة ويفقد الصراع قدرته ويموت الحدس ... عندها يتم السأم احتلاله لساحة النفس ويجثم رابضا لا يريم . ومنذ ذلك الحين يبدأ بامتصاص كل عناصر الحياة في طاقة النفس .

يمتص السأم اول ما يمتص المسرة ، فهو هادم اللذات . اذ يتجوف الجمال المعبود ويغدو فارغا من معانيه ... ثم يموت الشبق المحموم واللهفة اللاهثة ويستحيل كل ذلك شبحا قاتم اللون يتجمع فيه ثقل كبير لا يتحمله القلب . انه هم .

ولا يدري احد ان كان السأم يستسيغ طعم السرور فقط ، لكن ما نعرف هو ان السأم لا يقرب الحزن ولا يطعمه ، فلعل نفس السأم تعاف مرارة الحزن ولذعة اللوعة. والسأم يطمئن الى الحزن فكلاهما ينتهي الى حال من التأمل الجامد والذهول المشرد والسخونة الفاترة مثل ماء الصيف ليس له لذة ولا يروي .

والسأم بعد ان يمتص السرور من رواء الحياة يفترس الحركة، فكأنه يراها ثمارا تترنح مع النسيم فيشتهيها ويقضمها بصمت كلب هرم يعرق عظمة مجففة لا تشبعه ولكنها تقيم اوده على كل حال. وحين يطمئن السأم الى ان فريسته اصبحت بلا ضحك ولا رقص يجر نفسه ساحبا ذيلا يترك لونا بنيا خامل الايقاع ليهدي الضحية الى مثواها الاخير .. الى مقبرتها في الحياة ... الى الغيبوبة . وتتجسد الغيبوبة في الجنس بدون حب وفي القمار بلا انقطاع وفي السكر دون نشوة .

المفاجأة هي التي ترد الروح على الساهمين ، ففيها دماء المراهقة واندفاعة الخطر، وشبوب النار التي يرمدها السأم. انها النور بعد عتمة خفشاء . وسواء اكانت لخير او لشر فانها قادرة على اخراج الانسان من دائرة سهومه وتصحيته

من غفوة غيبوبته ، وهي لذلك الهة منقذة وحبيبة كثيرة الدلال .

والرجل الذي قال : « عش في خطر » لم يكن يوصينا الا باحترام هذا السيل الذي يجرف ما تراكم من غبار السأم على صحراء حياتنا ، فهو قديس لانه كشف بعض الحقائق عن طبيعة الحياة .

في المفاجأة كل طعم الخصب لانها تدفع وانبثاق وارتطام وتكسر . ففي المفاجأة تصطدم الامور لكنها تبقى منفصلة. انها لا تنصهر في بوتقة ولا تختلط دائرة في دوامة ، كما في السأم ، بل يحتفظ كل عنصر بفرديته . فاذا كان السأم هو الحد الوسط الذي تتموضع ضمنه الامور ، كما انه الشعور برفض الحد الوسط ، وهو البحيرة الراكدة الاسنة التي تلقف الاحداث ، فان المفاجأة هي طرف الهاوية التي تتراقص امام فم الموت الفاغر . انها الحد الاقصى للحياة والحد الذي لا يقوى على الصمود امامه شيء .. فهي اذن تشبه السأم في انها غير ذات زمان ولا مكان. وهي تختلف عنه بكونها ذات طعم وبأنها تغذي الحياة اكثر مما تتغذى منها ... وتتشابه هي والسأم بانهما اذا كانا اكبر من الحياة حطماها .. فحدودهما مقيدة بامكانيات الفرد والضحية .

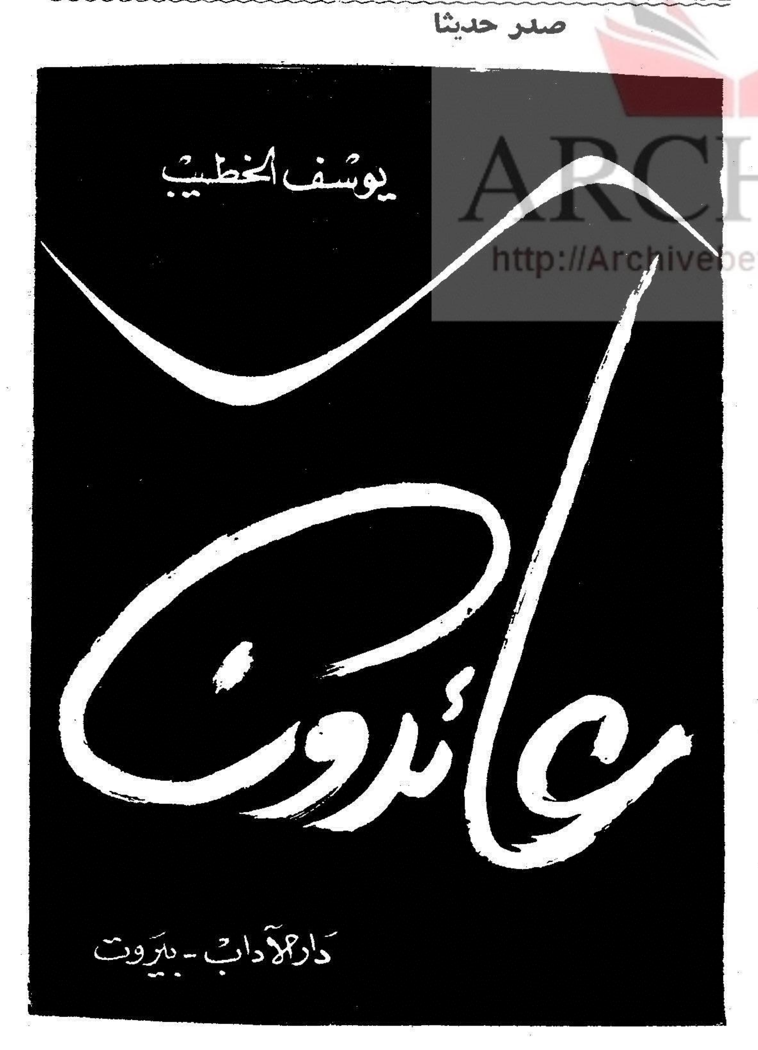
مع كل ذلك السأم شيء انساني اكثر من المفاجأة . ان في المفاجأة جبروت الالهة وقسوة القدر وشموخ الغيب الذي يحتمله ضعف انساني ، اما السأم فقادر متواضع لايحطم الاشياء بعنف بل يقلبها بالتدريج.. شأن الانسان الذي يحول مجاري الانهار العظيمة .. اما المفاجأة فهي الفيض الذي يخرج النهر عن طوره فيبتلع كل ما تقع يده عليه . والسأم حين يأتي لا يصحب الضوضاء والرعد بل يزور كضيف ينوي ان يطيل المكث ويتدخل فيما لا يعنيه . ومما يجعل السأم اكثر انسانية من المفاجأة انه ينبثق من طبيعة الامور فهو العصارة الصفراء التي يمنحها الزمن من مرارة الحياة . اما المفاجأة فهي شيء خارج عن طبيعة الاشياء تنقض وتحطم بدون تمهيد ولا تدرج.. من كل ذلك نرى ان السأم صديق الحياة اللازم لها ففي ركوده امكان الثورة ... ومجرد سأمنا من شيء يعني بداية الثورة عليه والتنكر له .

بين الناس من الف السأم ورأى في عفونته شذى وفي دبيبه انسا وفي اجترار معنى فاستكان اليه وصحبه في عالم الحلم وفي دنيا اليقظة وفي ساعات الرفاه وسني الفاقة . وهناك من جعله شريكه في عمله وراحته وفي مسرته وحزنه حتى نمت الفة صامتة بين الاثنين فلم يعد يعكر احدهما جو الاخر لانه صار جزءا من الحياة وطبعا من الطباع فصار طعم السأم في وجوده فتراه بين الاخرين غارقا في صمت ، ساهما ، لكنك تشعر بعمق نظرته وانها لمحة كروية تشمل كل الجهات والسطوح وتنفذ في الاعماق.

والذين يصحبون السأم يأمنون غدراته فلا يتهورون لانهم يعون سأمهم ويستوعبونه ، وتظل صفات الوعي اصلب من الحرارة المظلمة التي يشعها السأم خلال الزمن ... ومع ذلك يؤدون المكس للسأم بصمت وانسحاق فهم مرهقون بلا مطاليب، تعبون من غير ان يعملوا، يزهقون دون ان يوجد ما يثير اشمئزازهم .. هؤلاء الفاوستيون مروا بالتجاريب وذاقوا الطعوم ثم قاسوا ما عرفوا بما لم يعرفوا فتساوى لديهم الماء والبصل وماتت بذلك المفاجأة في حياتهم فهم في شيخوخة لن يعقبها شباب ، وهم في ظلمة يأس ما بعدها نور ولا امل ، وقع الزمن في وجدانهم مثل وقع الماء قطرة قطرة في مكان يرد الصدى خلال الليل البهيم .. فهم مستوحشون مذعورون لا ينتظرون اي أنس . وهم ذوو نفوس مغلقة طلسمها السأم فلا تنفتح الا له . لقد ودعوا الاحلام وشيعوا الطموح وعاشوا في عمق القاع الذي يحمل كل ضغط التفاهات الطافية على السطح. انهم يحومون حول جوهر الحياة ورجفة الرعب في مأساة كل وجود حي .. وهؤلاء وحدهم عرفوا الضياع والبيعة للشيطان ونادوا : « فاني شئت يا طرقي فكوني » . لقد تخلوا عن ارادتهم وتصميمهم وكل تلك الافكار ذات الجرس والرنين والحزم ما دامت الحياة الفردية في الاصل غير ذات معنى ولا هدف .

دمشق **محيي الدين صبحي**

صدر حديثا



يا قلب

***

ياقلب
ياسجن الاحزان المره
ياحقلا ترعـاه الاشـواق
ياحرا يحمل ألف وثاق
ياعبدا لم يعتق مـره
الا ويعـــود
والفرحة تنزف في الاعماق
اسعد بقيودك بعد فكاك
واضرب بجناحك في الافلاك
وتعذب فوق صليب الحـب
وكأنك لم تعرف يوما طعم الحب
ياقلـب
ياطفلا حمّلني همه
يمشي في النور ويتركني عبد الظلمه
الشعر الابيض في الفودين
وتهز كيانك نظرة عـين ..!
ياقلب كفـاك
الارض سمائي بعد سمـاك
فلقد عدت الى شكواك
ألنظرة عـين
وحنين مُر على شفتين
وعناق يـدين
ترمي بجناحك في الاشواك
لتكون دماؤك ري هواك ..؟
ياقلـب
ياقلب كفـاك .

***

القاهرة
كمال نشأت

العقاب...

قصة بقلم ثروت سرور

اخيرا وقع الفار في المصيدة ، وسكنت العاصفة الهوجاء التي كانت تقتلعني من جذوري .

وهانا في طريقي الان الى قسم « الموسكي » بعد ان تلقيت اشارة تدعوني وتقول انهم قبضوا على العربجي الهارب !!

وانني لشوق جدا لان أرى مرة اخرى ذلك الرجل الذي امكنه ان يريني النجوم وقت الظهيرة والذي استطاع ان يجعل مني في الاربعة الايام المنصرمة شيئا بالغا يصلح للموت اكثر مما يصلح للحياة !!

ان كل ماحدث وكل ماكان يمكن ان يحدث لو لم يقبضوا عليه ترتب على خطأ وقع في لحظات . لحظات قليلة أقل من ان يعتقد انها تكفي لعمل شيء !

كانت عربة الكارو تقف امام الاشارة المقفلة في نهاية شارع البوستة وسط القطيع الهائل من العربات المتباينة تنتظر السماح من الاشارة الخضراء لتندلف الى ميدان العتبة بينما أسرعت انا الى « كشك » مجاور لابتاع علبة سجائر . فدفعت جنيها للبائع . وتطلب رد الباقي لحظات قليلة . عاودت المسير بعدها وقد ادركت انني تخلفت اكثر من اللازم ، ذلك ان الاشارة كانت قد فتحت ، والعربجي كان قد غاب عن نظري !

وحاولت جاهدا ان استوعب ميدان العتبة في نظرة شاملة وأنا أفتش عنه والافكار المتناقضة قد بدأت تغزو رأسي وتمور فيه !

على انني كنت أدع لافكاري المتفائلة ان تطغى على ماعداها .

فالعربجي لاشك في طريقه الى عابدين ، ولان العربة مسرعة لابد ان تكون قطعت مسافة طويلة منذ ان فتحت امامها الاشارة ، ومن الواضح ان العربجي واصل سيره دون ان يشعر حتى بانني قد تخلفت .

وطفقت اعدو بكل قواي في شارع محمد علي باحثا عنه في طريقي نادما غاية الندم لانني تركته دون ان تكون معي رخصته او على الاقل دون ان تكون معي نمرة العربة خاصة وقد جئت به من لشارع وليس من موقف عربات !

واقتربت سريعا من ميدان « باب الخلق » دون ان اعثر له على أثر ، وظللت أعدو كذلك وانا أقيس بخيالي المسافة التي يمكن ان تقطعها العربة خلال الزمن الذي مضى على اختفائها فتأكد لي انها لم تكن لتصل الى ميدان « باب الخلق » بأي حال .

واذن فهي لم تدخل اطلاقا شارع محمد علي وهو انسب طريق يؤدي بعربات الكارو الى عابدين . فهل سارت في سراديب تحت الارض .

هذا ماساعرفه بعد قليل من العربجي ذاته ، وسأرى ما اذا كان ممكنا ان يتركني البوليس بعد ذلك لاشرب من دمه كي تخمد نهائيا جذوة الغيظ التي اضرمها في قلبي . فان شيئا مما سيفعله القانون لن يطفئها ولن يشفي غلتي !!

ساعرف كيف امكنه ان يختفي عن نظري بمثل هذه السرعة وهو انسان !!

فقد وصلت وقتها الى « باب باريز » دون ان اجد شيئا . ومن ثم قفلت عائدا الى العتبة عن طريق شارع عبد العزيز وقد ثبت لدي يما لا يدع مجالا للشك ان العربجي هرب عامدا وان ابة لحظة تمضي بعد ذلك دون العثور عليه ستكون مكسبا له وخسارة لي ، ولكني لم افقد الامل ولا كان في وسعي ان افقده ! فالعربة تحمل كل مانملك ، وكل مالا بد منه لكي نشعر ان لنا بيتا كسائر الناس !

الاثاث . ثيابي كلها الا ماارتديه وثياب زوجتي . خطابات وصور حبنا قبل وبعد ان تزوجنا . الهدايا الكثيرة البسيطة التي تبادلناها في فجر حبنا والتي لانقدر بمال لفرط اعتزازنا بها . كانت رغبتي الشديدة في العثور على كل هذا وارتباطي الوثيق به يجعلاني ارفض اليأس وأقاومه وأسقط من حسابي امكان عدم العثور عليها . تماما كمن يفقد عزيزا فجأة ثم لايريد لفرط ماتعلق به ان يصدق او يسلم بفقدانه !

كنت اشعر ان العربجي سلبني شيئا اكثر من حياتي ودنياي واكثر من كل مايربطني كانسان بهذه الارض ، وانه لابد من العثور عليه اذا كان هناك عمر يجب ان اعيشه !

ولاحظت ان العدو لايمكني من التفرس في الطريق كما ينبغي ، فبدأت اسير بخطوات سريعة وانا اتجه عائدا الى السكن القديم الذي تركته في شبرا عسى ان يكون العربجي قد عاد اليه بعد ان افتقدني .

وفجأة اكتشفت ان صورته قد ساحت في رأسي وأمست شيئا باهتا مهزوزا ، وحاولت باصرار ان استجمع ملامحها خشية الا يكون في امكاني التعرف عليه اذا رأيته مرة اخرى فرجعت استعيد لقاءنا الاول ! كانت الساعة في يدي وقتذاك تقترب من الرابعة مساء بينما كنت اقترب من دوران روض الفرج . وأحسست بغير قليل من الراحة عندما وقع بصري عليه . ذلك لان حماره كان يجر عربة تتسع لاكثر مما لدي من أثاث ، ولانه أيضا وفر علي عناء البحث والسؤال عن موقف العربات .

كان يبدو في العقد الثالث او ربما تجاوزه بقليل ، وكانت لحيته التي ارسلها قد اضفت عليه قناعا من وقار الشيوخ وطيبتهم ! اجل حتى لقد استشعرت الرغبة في ان أجزل له الاجر وانا اضع امامي ضعفه ونحوله وشقاءه الذي كان يطل ويصرخ من اطرافه .

وعادت ملامحه تشد بعضها البعض وتتضح في رأسي من جديد .

الوجه الذي صبغته الشمس ، واللحية الوقور التي تحيط به كاللثام وتلفه بطيبة زائفة .

العينان الضيقتان المثيرتان للشفقة بما فيهما من معان كاذبة للبؤس والتعاسة . المنديل المحلاوي الذي يلفه حول رأسه واذنيه ويعقده على جبهته في طرفين اشبه مايكونان باذني ثعلب !

واشفقت من ان تضيع ملامحه من رأسي مرة اخرى ولحظات ماقبل اختفاء العربة ماثلة امامي . لحظات الخطأ التي مضت كالقدر لتكشف عما وراءها من مجهول . كانت العربة منطلقة وانا اسرع من خلفها كي أجاريها وأظل ملتصقا بها وافكر في أشياء عديدة وأنا أراقب المارة بلا مبالاة واقرأ دون قصد لافتات بعض المجلات !

انني لازلت اذكر كل شيء ! فقد وقعت بعض الاواني النحاسية على الارض اكثر من مرة والتقطتها وأعدتها الى مكانها من العربة وأخرجت علبة

السجائر . لم يكن بها غير سجارتين فقط أشعلت واحدة وقدمت فأعطيته الاخرى ثم عدت الى مكاني من الخلف لارى مايمكن ان يسقط من العفش وانا ألقي بالعلبة الفارغة الى الطريق .

وبرزت في رأسي صورة المسكن الجديد الذي ازمعت الانتقال اليه وهو يأخذ يمينه ليفسح الطريق للعربات الكثيرة التي تتبعنا ، وشرعت بخيالي أوزع الاثاث في غرفة وأعود فأنقله من غرفة الى اخرى بعد ان أرى من الانسب ان تكون غرفة النوم هنا لا هناك !

ولم اجد في شبرا أكثر مما وجدت في العتبة وباب باريز ، فعدت مرة اخرى من حيث اتيت ،واليأس قد أترع قلبي تماما وقضى فيه على كل أثر لامل العثور عليها ، وغام بصري فماعت الرؤية الى حد انني لم اكن لارى العربة لو انها مرت من امامي !!

وبات من الواضح انه لم يعد بامكاني ان افعل شيئا او افكر في عمل شيء وتكشفت الحقيقة سافرة بكل مافيها من مرارة . لقد اصبحت في العراء كالمشردين بلا بيت ولا مأوى وليس لي غير أيام طويله سوداء تنتظرني لاستبدبن فيها وتضطرب حياتي .

على ان ثمة املا جديدا كان ينبعث فيقلبي كلما رحت استعرض مانحمله العربة ثم لايلبث ان ينفض عليه اليأس فيأكله في مهده .

كانت الساعة وقتئذ قد بلغت العاشرة مساء والبرد القارس يكاد ان يجمد الدم في عروقي واطرافي ، وسرت في جسمي قشعريرة نتيجة للبرودة التي تمشت في اوصالي وانا اتجه الى قسم « الموسكي » لاقدم بلاغا . واحسست انني ضعيف .ضعيف جدا على عكس ماكنت احس به في الصباح من قوة وعزم . وبدأت احاول الخلاص من الدوامة التي اعيش فيها مطمئنا الى نشاط البوليس الذي سيحمل شطرا من العبء ويبحث معي ، ولكني كذلك صرت اكثر احساسا بالالم العبقري الذي راح يدق وينبح في كياني !

حقيقة لقد كنت أتألم طوال بحثي عن العربة ولكن دون ان اقفلاتحقق من مصادر الالم واتذوقه !

كنت منصرفا عن كل شيء الا عن التفكير في حياتي التي سرقت على ظهر عربة ! غير اني رأيت بعد ذلك الدم الغزير الذي سال على جانبي الحذاء ولوث حوافيه ، وعرفت ان بركان الالم انما يندلع وينفجر اكثر ماينفجر من قدمي اليمنى ! وكدت اموت كمدا وغيظا . اذ كيف يكون بمقدور عربجي ان يسومني كل هذا العذاب ؟ وفكرت في انه موجود بلا شك في مكان ما . بل وربما اكون قد مررت اكثر من مرة امام ذلك المكان دون ان اشعر !

ووجدتني افكر في عجز الانسان وقصور حواسه وحاجته الماسة الى حاسة الهية خارقة لا لشيء الا ليرى العربجية عندما يهربون !

لقد صرت اكرهه الى حد العمى والى حد انني لم اكن لاتردد لحظة في ان انشب أظافري في عنقه وأذبحه بأسناني اذا رأيته !

وخلال الاربعة الايام التي خلت لم أعتمد على البوليس ليبحث وحده ، وانما عقدت ميثاقا مع نفسي ان اعيش في القاهر ةوفي غيرها اناستطعت لابحث بذاتي عن الرجل الذي امكنه ان ينكل بي ويمثل بأعصابي .

لم ادع مكانا يمكن ان اعثر فيه على عربة كارو دون ان اذهب اليه . كنت أروي ماحدث لكل من التقي به محاولا جهدي ان ارسم له صورة للعربجي الهارب .

ووجدت في ردهة القسم عساكر رائحين غادين ضاربين بأحذيتهم الضخمة على البلاط . بعضهم يحمل اوراقا ويسرع بها الى حجرة هنا او هناك ، والبعض يحمل اسلحته ويسوق متهما او ثلة من المتسولين ربطت ثيابها في بعضها !

وسألت احد العساكر عن العفش الذي ضبط فقادني الى الشاويش عطية واصوات كثيرة مختلفة تأتيني من مصادر متعددة لا أراها وتختلط في سمعي بضجة المواصلات الوافدة من الخارج .

سباب بذيء . وصوت مرتفع ينادي الشاويش علي . امرأة تبكي وتقسم بكل المقدسات ان جابر ضربها وباع المصاغ . واصوات تعلو على هذا كله زاجرة ناهرة و ..

والتقينا بالشاويش عطية امام حجرة الضابط النوبتجي : ورأيته بجسمه الضخم وبطنه التييحملها امامه كما لو كانت بطيخة هائلة ، وشواربه الكثيفة منفوشة ومتهدلة على فمه ويمسك بيده قطعة من الخيزران الغليظ وضعها تحت ابطه وانا احييه واقدم له الاشارة التي تلقيتها .

وقادني على الفور الى حجرة تعرفت فيها على العفش . ولاحظت ان هناك اشياء كثيرة قد اختفت لم اعرف اغلبها ، ومع ذلك سرني ان الحقيبة التي تحوي على الخطابات والصور لا زالت باقية على حالها لم تعبث بها يد .

ثم اخذني عبر ممر طويل وقفنا في نهايته عند باب اخرج من جيبه مفتاحا وضعه في ثقبه وراح يعالجه . وانفرج الباب عن حجرة ضيقة كالقبر ارضها غارقة في الماء ماعدا قطعة في احد اركانها تبدو كشبه جزيرة صغيرة لارتفاعها قليلا عن باقي مساحة الحجرة والعربجي لائذ بها من الماء ، مكور على نفسه كقوقعة !

وخشيت ان يبتل الحذاء فوقفت الى جوار الباب بينما دخل الشاويش عطيه في قلب الحجرة غير حافل بشيء !

وغاظه ان العربجي لازال قابعا في مكانه لم يتحرك فضربه بالعصا باقصى عزمه وركله بقدمه قائلا :

ـ قز قوم يابن الكلب .

وبدا لي انه يبذل جهدا فائقا كي يجمع نفسه وينهض ولكن دون جدوى فضربه الشاويش بالعصا مرة اخرى ولكنه لم يتحرك ايضا . فخرج الشاويش عن طوره وهدد وتوعد ورفعه من طوقه بقسوة قائلا :

ـ دلوقت عملت ميت . اياك امال تكسح يالص .

ثم اقترب مني وهو لايزال يمسك بتلابيبه .

وتبينت بوضوح ان ثوبه متهرئ يكشف عن صورة وعن اجزاء حساسة من جسمه ، وان ذيل الثوب مبتل بالوحل ونقط كثيرة تتساقط منه . وسمعت اسنانه تصطك بقوة من الخوف والبردوهو ينظر الى بعينيه الضيقتين كما تنظر الشاة لسكين الجزار !

واستطعت كذلك ان اتحقق من ان ماحسبته في بداية الامر وحلا يلون وجهه انما هو كدمات فيها الكثير من الوان الطيف !

ووجدتني اشفق عليه دون ان اقف لحظة واحدة لاتأمل مافعله بي ، بل على العكس وجدتني انسى له كل شيء ، وكأنه قد اصبح شيئا لايمت الى العربجي بصلة . بل اصبح كذلك فعلا . وعيناه ، لشد ماأشعر بالخجل من النظر اليهما ! انهما يتحركان في محجريهما برعونة مفعمة ألما وهلعا وكأنهما لكلب تعذب الى حد التشبع !

وفكرت في ان جسمه الذي تعذب بريء ، وانه لابد ان يكون هناك شيء اخر غير هذا الجسم هو الذي دفعه وساقه الى ان يهرب . شيء مسؤول لن تمكنهم الوصول اليه حتى ولو قتلوا العربجي ومثلوا بجثته .

وسألت نفسي : الم يحدث حقيقة ان سرقت في حياتي ؟؟

وتذكرت انني فعلت ذلك اكثر من مرة بل وسرقت احد اصدقائي قلمه الحبر . كان اعتقادي في باديء الامر انني امازحه ، ولكن القلم حملني على تغيير رأيي . انني لازلت اذكر هذا جيدا واذكر غيره سرقات اخرى يندى لها جبيني كلما ذكرتهما او فكرت فيها .

وقال الشاويش موجها كلامه الي :

ـ شوف ياافندي هو ده الواد اللي خد عفشك ؟

وكدت اصرخ بأعلى صوتي :

ـ لا انكم مخطئون . ليس هو !!

ولكني تذكرت العفش الذي تعرفت عليه منذ قليل وقلت انه ملكي لقد عثروا عليه عند هذا الذي يسألني الشاويش ان كان هو !!

وقلت برغمي وبصوت منخفض وكأنما اخشى ان يسمعه :

ـ نعم هــو .

قلتها وكأنها خرجت من فم غير فمي . وعندئذ رأيت الشاويش ينهال عليه ضربا بالعصا بلا هوادة ودون ان يتوقف لحظة حتى بعد ان سقط العربجي في المياه وسط الحجرة .

وأحسست بألم أعمق مما لو كانت الضربات على جسمي ذاته ، ووجدتني اصرخ في الشاويش بلا وعي :

ـ خبر ايه ياشويش . مفيش رحمة أبدا ؟؟

ـ خبر اسود يا افندي . ايش دخلك انت في الاعمال الرسمية ؟ رحمة ايه وبتاع ايه ؟ بقى انتو تروحوا تلعبوا وتضيعوا حاجتكم وبعدين تيجوا تقرفونا وكمان تقول رحمه وكلام فاضي ؟ ياناس ارحمونا انتوا يرحمكوا ربنــا !!

ولم ارد عليه واكتفيت بما وصلت اليه من نتيجة . ذلك انه كف عن ضربه ليوجه الى هذا الرد الطويل على احتجاجي ثم ترك الحجرة بعصبية شديدة واحكم رتاجها على البائس الملقى في قلب المياه !

واعتقدت وانا اتبعه ان العربجي لن ينهض بعد ذلك وان اقصى ماسيمكن ان يفعله هو ان يزحف على الارض او يمشي على اربع ! وتمنيت لو كان بوسعي ان اطلق سراحه ! وفكرت فيما يحول بيني وبين ذلــك . فالعفش المسروق هو عفشي وانا صاحبه الذي يعلم تماما ان اكثره قد تبدد . ولكني مع هذا لا اريد له ان يتعذب على هذا النحو اللانساني . لا ولا اريد له ان يسجن اخر الامر ويحرم مما تتمتع به اي حشرة تدب علــى الارض !!

وكنت اعلم انني سأبدو اكثر من غبي واكثر من ابله وان الشاويش سيسخر مني اذا سألته ان يطلق سراحه ومع ذلك فعلت . فضحــك طويلا حتى كاد ان يستلقي على قفاه . ثم قال في هدوء يشبه الهدوء الذي يسود بعــد العاصفة :

ـ انت عبيط يا افندي ولا مخلول ؟ أسيبه أزاي بس ؟ امال تعليم ايه ومدارس ايه يا اخواتي ؟! روح يا افندي روح . اجرى شوف لك قط غمضه ولا شوف لك عربجي تاني ياخد الكراكيب بتوعك يروحهم لك.

وسكت برهة ثم أردف :

ـ ومتنساش تبقى تاخد رخصة معاك وتمشي وراه خطوة بخطــوة

وخرجت ثائرا من القسم دون ان يكون في قلبي اثر للفرحة التي كنت اتوهمها من عثوري على العفش ابحث عنشخص يمكن ان يرشدني الــى اقرب موقف لعربات الكارو .

القاهرة ثروت سرور

وأنا أيضاً أهوى النور !..

***

وحدثوني انها رقيقه
وانها تودع الضيوف حتى الباب
وتغمر الاصحاب بالحنان
« فالليل ياضيوف مظلم طويل
لابد ياضيوف من قنديل
مع السلامه ... »
وتلتقي قلوبهم بكفها الصغيرة
« مسيت بالهناء ياأميره »
ويذهبون في الفؤاد صوره
لغادة ترف في غلالة بيضاء
كأنهـا حمامه ...

*

أمـا أنـا
يا طالما ودعت بيتها بلا ابتسامه
ولا سلامــه ..
ولا بصورة الحمامـه
كأنني بالليل صقر يرهب الحمام
كأنني ثعبان
لذا سأقطع الطريق كالثعبان
مادمت يامصباح لم تكن رفيقي
سأسأل الجدران عن طريقي
يكفيك يافؤادي ذلة الغريب
وملمس الحجاره
حسبك ياعيوني دمعة تنادي
في الليل دون سامع ولا مجيب

*

قولوا لطفلة المحيا انني وديع
وانني ـ والله ـ قد ولدت في الربيع
لاترهبي جهامتي وقلة ابتسامي
وحدة تصيبني في غمرة الكلام
فتحت معطفي هوى بديع
الناعمين بالسنا وبالسلام
الراشدين في الظلام ـ
لكل كف تشعل الشموع

القاهرة رشدي صادق



آراء في قضايا الساعة

محادثات بين الرئيس نهرو والمؤرخ تيبور موند

ترجمة مروان الجابري ـ نشر المكتب التجاري

*

« فائدة هذا الكتاب وقيمته لا ترجع فقط الى ان صاحبه هو البانديت نهرو المفكر والسياسي الهندي ذو المكانة العالمية بل الى كون الكتاب محاورات ونقاشا لقضايا انسانية وفكرية وسياسية هامة بين نهرو وتيبور موند الفرنسي وهو احد كبار المؤرخين والكتاب السياسيين المعاصرين .

وخليق بنا ان نهتم بالاراء الواردة في هذا الكتاب نحن ابناء الامة العربية اكثر من سوانا اذ تتشابه ظروفنا مع ظروف الهند من حيث ان بعثا جديدا خلاقا يهزها من الاعماق ليعصف بكل رواسب الماضي وليلفظ كل بذرة غريبة وليدفع بها الى مسرح الاحداث الانسانية لاكتابع يلتقط المبادىء والاتجاهات او تفرض عليه فرضا وانما كممثل لتيار اصيل نابع من حاجات الامة وروحيتها .

واننا هنا في هذه النقطة قد وقفنا على مفترق الطرق مع الشيوعية بعد ان تخلصنا الى حد كبير من الاستعمار والرجعية ! اذ علينا ان نختار بين طريقين للوصول الى المجتمع الاشتراكي ، اما طريق الشيوعية ، طريق الثورة والعنف والانجرار الى الحرب الباردة ، واما طريق الوسائل المشروعة والانسانية الديمقراطية ، والحل الثاني هو ماتبنته جمهوريتنا بقيادة زعيمها وهو نفسه ماتبناه نهرو في كتابه وفي قيادة ثورة الهند السلمية للنهوض بها مع المحافظة على صفتيها القومية والوطنية .

هذا ولا بد ونحن في هذا الصدد ان ناخذ بعين الاعتبار الزيف الذي تكشفت عنه الدعايات التي طلع بها خروتشوف على الناس في بداية بروزه وفي المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي حين ادعى انه يؤمن بالتعايش السلمي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد ، وان كل دولة يجب ان تصل الى اشتراكيتها بطرقها الخاصة وحسب طبيعة قوميتها وظروفها .

لقد ثبت زيف ذلك قطعا بعد تجربة العراق الاخيرة التي تمخضت عن التدخل المباشر السافر للروس في شؤون العراق الداخلية والتبعية الكاملة التي نهجها الحزب الشيوعي العراقي ، وان ذلك كله لم يكن الا لخداع الشعوب ومحاولة السيطرة عليها بطرق ملتوية واكثر مرونة وخداعا ، ومن تجربة العراق ايضا تبين لنا مايمكن ان تؤدي اليه المبادىء المستوردة من الخارج التي تتشكل بمعزل عن جذور الوطن ومشاكله الحقيقية ، انها تؤدي الى التبعية والى انحطاط القيم الاخلاقية واحتقار الانسان للانسان وحقده عليه واضطراب الحياة الاقتصادية وتجميد الفكر ، والتخلي عن المطالب القومية .

اما التجربة في الهند فانها انقلاب سلمي رائع يبني للامة كيانا قوميا واسع الافق ينسجم مع مفاهيم العصر الانسانية ، ومجتمعا اشتراكيا تعاونيا تتحقق فيه العدالة والمساواة والحرية والكل يعلم ان نهرو هو من وراء هذه التجربة الانسانية الاخلاقية ، وبنفس المستوى وعلى قدر كبير من التشابه تنبع تجربتنا القومية الاشتراكية السلمية ومن وراء هذه التجربة الرئيس عبد الناصر .

لطالما انتظرت الهند نداء البطل فدوى فيها نداء نهرو بعد غاندي ، ولطالما انتظر الشعب العربي هذا النداء فدوى صوت زعيمه ، وتلك هي الزعامة الحقيقية التي بامكانها توجيه التاريخ ، زعامة تهيىء اسيا وافريقيا للدور الجديد الذي ستقومان به ، وفيها الفكرة اقوى من الشخصية وهي ستمضي بعد ان انقدحت شرارتها الى اخر مداها ولو تغيرت الشخصيات ، وهذا ماحرص على قوله كلا الزعيمين نهرو وعبد الناصر .

نحن هنا في الشرق ـ اسيا وافريقيا ـ لا نطرح القضية على تلك الصورة المادية التي تطرحها بها الشيوعية والرأسمالية المؤلهة للاقتصاد بل نطرح قضية الانسان كاملة ، الانسان كاهتمام مادي ، وفوق ذلك ، كفاية ، وقيمة ، ومعنى ، وهذا لب تجربتنا والفكرة المحركة لاراء نهرو وفلسفته وسياسته وأسلوبه في الحكم ، لانريد ان نقع فريسة للوحش الالي ولا لتفاهة مفهوم الانسان الاداة ، وهل يمكن للانسان ان يجد معنى حياته ومبرر وجوده والدافع لتمسكه بالحياة في نظرة تحطمه فيها بلادة الالية وكثافة المادة ، وحقد يتعفن فيه القلب !

ليست العدالة ولا وفرة الانتاج غايتين في ذاتهما ـ وهذا سر الخلاف مع الشيوعية والرأسمالية ـ كلا ، انهما وسيلتان لتحرير الانسان الذي هو الغاية الاخيرة ، لتحرير ارادته وروحه من تحكم الانسان والطبيعة ، فرائده آنئذ المحبة لا الحقد ، والسلام لا الحرب ، بحيث تتفتح روحه للخير فيسمو بالاخلاق ، ويرنو قلبه للجمال فتشف نفسه بالفن وتشغفه الحقيقة فيطمئن للمعرفة والعدالة .

كذا انساننا العربي الاشتراكي المنتظر ، وكذا الهندي في رأي نهرو ، وكذا الانسان يجب ان يكون .

لابد ان يتذكر المرء هنا ماقاله « جيورجيو » في رواية « الساعة الخامسة والعشرون » والتي هي من اعظم واعمق ماكتب في الادب الحديث ، يقول الكاتب بصراحة ووضوح انه عندما تتحطم الحضارة المادية

الالية في كلا المعسكرين الشرقي والغربي ـ وهو يعتبرهما من منبت واحد ـ تدق الساعة الخامسة والعشرون دقاتها الرهيبة ، وعند ذاك اين الحل : لامفر من ان يتنسم الانسان العبير من الشرق الذي لم تحطم انسانيته المادية والالية ، القديم قدم الضياء ، والجديد بانبعاثه ويقظته .

هذا . ومن نتاج هذا الشرق كتاب « اراء في قضايا الساعة » وهو يقع في اربع محاورات ، فلنتابع نهرو فيها واحدة ، واحدة ـ مستهدفين النقاط الرئيسية ـ وهو يدافع دفاعه القوي العميق عن فلسفته واسلوبه في الحكم والسياسة .

ـ ١ ـ

يحاول تيبور موند في هذه المحادثة تلمس الملامح والاصول الاولى لشخصية نهرو الفكرية والسياسية وحدوسه البديئة في الحياة ، ومدى تأثره بهنديته وبالهاتما غاندي وبالعقلية الغربية ، والثورة الاشتراكية الروسية :

تيبور موند : « ارجو ان تسمح لي ياسيادة الرئيس ان اكون منهاجيا دقيقا في مباحثاتي معك دون ان ارمي الى ان اكون جلفا قاسيا ، ذلك انني اعتقد بان المرء يستطيع ظاهريا بعد ان يقرأ كتبك ومحاضراتك ان يتدارس تراثك الشخصي من اربع زوايا مختلفة :

١ ـ بالطبع زاوية طفولتك حيث هناك الوسط الهندي وبيتك في الله آباد حيث تلقيت دراستك الاولية وما رافقها من افكار تكونت في نفسك بفعل البيئة والتعليم ثم نفوذ أبيك الهائل عليك .

٢ ـ الصدمة العظمى في حياتك عندما اتصلت بالغرب لاول مرة

وعشت في بريطانيا طويلا .

٣ ـ من زاوية مايمكن ان يدعى بتأثراتك بـ « الماركسية » وهي الزاوية التي استعرضت منها جميع الحركات الثورية والاخطار العظمى في الشطر الاول من القرن العشرين .

٤ ـ من زاوية لقائك مع غاندي .

١ ـ وبالنسبة للزاوية الاولى يجيب نهرو عن نشأته الهندية :

« اعتقد ان الهند هي التي جعلتني على ماانا عليه ونظرا لانني هندي فقد جعلت الهند ماثلة في ذهني احملها دوما في قلبي .. واني اقول انني في طفولتي قد عرفت الهند عن طريق أمي ونساء العائلة ، ولقد كان ابي ينتمي الى جيل قاد النضال ضد طبقة المحافظين وضد ذهنيتها : ولقد اشترك ابي في الثورة ضد الكثير من العادات والاعراف الاجتماعية وبالطبع فان ثورته هذه أثرت في طفولتي واعطتها احد الوانها » .

ومن ناحية اخرى فاننا نرى ان نهرو لم يتخل لحظة عن نزعته الصوفية الاصيلة في اعماق ضميره يسأله « موند » : « يبدو ان ظنك في الصوفية الروحية قد خاب حكما معي على ماكتبته » .

فيجيبه « نهرو » : « اجل لقد شعرت بالخيبة لان الصوفية بدت لي تفتقر الى كل فعالية ، ليس لان التعاليم اللاهوتية الصوفية سيئة فهي تنطوي على شطر كبير من الحقيقة ولكن الاشخاص الذين كانوا يديرون المجمع اللاهوتي الصوفي كانوا يبدون انهم يعتبرون انفسهم النخبة المختارة » .

٢ ـ وأما بالنسبة لذلك الجانب من شخصية نهرو من حيث اتصاله بالغرب وبالتيارات الفكرية العالمية فانه لم يتلقها ابدا كاشياء قطعية وصالحة تماما للهند بل اعتبرها تجارب انسانية يجب الاستفادة منها ومن نتائجها مع مراعاة الوضع الخاص لكل شعب . وان الرجال الذين كان يستمع اليهم في الغرب كانوا يهتمون بمجتمعاتهم الخاصة وبايجاد النظم الصالحة التقدمية لها ، اما بالنسبة للشعوب المستعمرة فذلك شيء آخر .

يسأل موند : « عندما كنت تستمع الى رجال كبرنارد شو مثلا او الى الرجال الذين كانوا يمثلون جيل الاشتراكية الرواد ماالذي كان يجذبك اكثر من غيره فيهم ؟ هل كان يجذبك في كلامهم مايدعون اليه من نظام منطقي للمجتمع ام ان ماكان يجذبك في كلامهم هو ان مثالياتهم كانت جوهريا مناهضة للاستعمار ؟ »

« نهرو » : « يجب ان اقول هنا ان الافكار الاشتراكية قد وافتني وانا ادرس في كامبردج ، كانت تلك الافكار تنبثق جزئيا من الحركة الاشتراكية الفابية ـ حركة اشتراكية أسست في انكلترا ومن مؤسسيها ويلز ، وشو، وراسل ـ وجزئيا من الاراء الاشتراكية الاكثر عدوانية من الاراء الفابية... ولست اذكر انه كان في كل ذلك اية « مناهضة للاستعمار » بشكل معين ولا اذكر ان أولئك الناس قد تحدثوا كثيرا عن تلك القضايا وان كنت اذكر انه كان ثمة افراد كانوا يستنكرون ويشجبون الفظائع التي كانت ترتكب في افريقيا والهند او اشياء من هذا القبيل » .

٣ ـ والزاوية الثالثة هي مدى تأثر نهرو بالثورة الروسية وامكان تطبيقها بالهند .

« موند » : « لقد كنت ذلك الحين اذن ـ ايام الثورة الروسية ـ في الله آباد فهل خطر لك امكان تطبيق تعاليم الثورة الروسية على الهند » ؟

« نهرو » : « لقد حملتني على اعتبار السياسة اكثر من اي زمن مضى كوسيلة لادخال التغيرات الاجتماعية لان الثورة الروسية لم تنطو فحسب

على انتفاضة وطنية او على ثورة ضد الطغيان القيصري ، انما انطوت على احداث تغيير اجتماعي لمصلحة الشعب اذ جاءت له بقاعدة المساواة . وفي ذلك الوقت لم تكن تقلقني مشاكل الحكم الديمقراطي او الحكم الاستبدادي فهي مشاكل لم تعترضني الا بعد وقت طويل من ذلك » .

« موند » : « ولكن الم تبد تلك الثورة الاجتماعية الناشبة في روسيا كنموذج او على الاقل كأداة يجب دراستها ؟ الم يبد كذلك في انظار افراد ذلك الجيل الذي عايشها ، هذا بالطبع باستثناء الشيوعيين القلائل الذين كانوا في الهند حينذاك » .

« نهرو » : « في ذلك الحين اي في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين دخلنا تجربة السجن الاولى واذا كنت احدث عنها فانما افعل لسببين : الاول : لاننا كنا مأخوذين جدا بالنضال الذي كنا نقوم به وكان يستأثر بكليتنا فما كان هناك من امر خارج نطاق نضالنا يهمنا مباشرة الا على ضوء مدى استطاعتنا الافادة منه اذ نطبقه في الهند ... وبالطبع يجب التذكر بان غاندي لم يكف لحظة عن الدعوة لانصاف المظلومين اجتماعيا ولقد خلق لنفسه طابعا من النضال لانصافهم ليس هو طابع النضال الاشتراكي ولا طابع نضال حرب الطبقات ، كان نهجا خاصا نقوم على انصاف المظلومين المضطهدين وبشكل خاص الفلاحين في الهند ، هذا دون الارتباط بعقائدية موجهة متزمتة » .

٤ ـ والزاوية الرابعة لشخصية نهرو تتعلق بمدى تأثير غاندي عليه :

« موند » : « اننا بهذا نصل الى الفئة الرابعة من تيارات النفوذ التي تفاعلت مع شخصيتك . اننا نريد ان نعرف مدى نفوذ غانديوحركته « الغاندية » عليك ... فالغاندية بدت لي دائما في الشكلين التاليين :

١ ـ مسحة التحرر الوطني .

٢ ـ مسحتها الاجتماعية .

والسؤال الذي أوجهه هو : هل بدت لك الغاندية في تلك الفترة أي في بداية ـ ١٩٢٠ ـ كما لو كانت تنطوي في آن واحد علىاستراتيجية اجتماعية وعلى استراتيجية لتحرير الوطن » .

« نهرو » : « قطعا نعم فقبيل ان يصبح زعيم حركتنا الوطنية كان قد أنهى تدريبه على الزعامة في افريقيا الجنوبية .... ولما عاد بعد ذلك الى الهند زج بنفسه في معمعان نضال الفلاحين من اجل تأمين حقوقهم عندما أثاروا عندنا مشكلة الفلاحين والملاكين الاقطاعيين بشكل مباشر جوبهنا به في مناسبة الخلاف بين الاقطاعيين اصحاب المزارع وبين عمالهم الفلاحين . وهكذا فقد كان هذا الطابع للحركة الغاندية موجودا وقائما منذ البداية واذا كنا ثرنا على مصالح الاقطاعية الموطدة فاننا لم نفعل ذلك بدافع اشتراكي ولا فعلناه بدافع حرب الطبقات انما جرنا الى محاربة تلك المصالح . وقد يكون من العسير ايضاح الفرق اذ لاينطوي منهاجنا على كوننا نرفض حقيقة حرب الطبقات انما ينطوي على القيام باقناع ودي ، اي بحل المشكلة بالاقناع كرأي بنيناه لمعالجة المشكلة وهو رأي متصلب اذ انه يرفض كل تسوية وكل حل وسط يبقي المصالح الاقطاعية الموطدة » .

واما بالنسبة لتأثير شخصية غاندي المباشرة على نهرو فقد قال : « لعله مما يدعو الى مزيد من الدهشة ان يكون والدي كذلك قد وقع تحت تأثير غاندي وانه ايد الشطر الاعظم من تعاليم غاندي . ان ماغير والدي شيئا فشيئا ذلك المزيج من الاحترام الذي يكنه لغاندي ومن التسليم بقوة منطقه وسلامة احكامه ورجاحة عقله . هذا بالنسبة لابي ، اما بالنسبة الي فان الامور جرت بشكل مغاير ، كنت اصغر بكثير ولقد استطاع غاندي ان يهزني ويقلب كياني بسرعة » .

ويركز المسألة « موند » فيسأله : « ربما يمكننا اذن القول ان المهاتما غاندي لم يحولك الى شخص روحاني ولكنه نقل اليك تراث منهج معين وأورثك الاحترام الشديد لوسائل معينة ، أورثك الاحترام للمبادىء النظيفة » .

« نهرو » : « اجل ولكنني يجب ان اضيف انه على الرغم من جميع اختلافاتي في الرأي مع غاندي فانيازددت دوما اقتناعا بانه يمثل قوة ثورية هائلة ، تسير في الاتجاه السوي أي انها قوة تجر الجماهير باجمعها ولا تقنع ببسط سلطانها على نخبة صغيرة مختارة ، وهذا يعني انه يصعب علي ان ارد عليك حين تتحدث عن عملية تحويلي الى شخص روحاني ولكنني اعتقد « بالمعنى الواسع » بانه صبغني بالصبغة الروحية ولكنه ليس بالمعنى الديني الضيق » .

ـ ٢ ـ

هذه المحادثة الثانية ، تدور حول نقطتين رئيسيتين :

الاولى عن موضوع « تحدي الشعوب الناهضة للسيادة الغربية » ، وهل يرمي التحدي الى استبدال هذه السيادة بسيادة من جهة اخرى ؟

والثانية تدور حول المفاضلة بين الوسائل الديمقراطية النظيفةلتحقيق التقدم وبين وسائل العنف والارهاب والقتل والدكتاتورية ، الفردية او الحزبية .

اما بالنسبة للنقطة الاولى فان نهرو يؤمن بان الشعوب الناهضة في اسيا وافريقيا لاتريد ان تتخلص من الاستعمار الغربي لتزج نفسها في تبعية للشيوعية العالمية والشرق ، وانما تريد كل امة ان تتقدم بوسائلها وتتخلص من كل نفوذ خارجي ، فلا تضيع في التيارات الغربية ولا تقحم نفسها في اتون الحرب الباردة .

يسأل تيبور موند :

« لعلنا نستطيع ان نبدأ حديثنا اليوم بالموضوع الذي ربما كان يحتل المقام الاول من اهتمام الدول الغربية الا وهو الموضوع الذي يمكننا تسميته بموضوع « تحدي السيادة الغربية » .. فهل تظن ياسيادة الرئيس ان هذا التحدي لسيادة الغرب يرمي بالضرورة لاستبداله بجهة اخرى ، كما هو الحال عند مانشب نزاع بين امة وحكومة لاستبدال الحكومة بحكومة اخرى ؟ »

جواهر لال نهرو :

« من رأيي ان روح العصر الحالي تعارض كل شكل من اشكال التحكم سواء كان تحكما قوميا او اقتصاديا او طبقيا او اجتماعيا ، فهناك معارضة عارمة ذات زخم قوي لذلك التحكم التعسفي ... ان المخلوقات الانسانية تتباين بالطبع عن بعضها بعضا ... وان الجوهر هو ان تتاح لكل انسان فرص متكافئة للتطور والنمو .

« ويبدو لي من غير الصحيح ، ان هذه السيطرة الاوروبية لاتختفي الا لتترك المكان لسيطرة اخرى بحجة ان هناك دورة لاتتناهى من الحروب تذهب بسيطرة لتأتي باخرى . ان الحرب في عصرنا هذا تتبلور رموزها في الطاقة الذرية ، والقنبلة الذرية اصبحت من الخطورة بحيث انها خليقة بان تؤدي بالعالم الى كارثة ذات نطاق هائل . »

والواقع ان الرد العلمي على تساؤل الغرب عن تحدي الشعوب لسيادته، كان في مؤتمر باندونغ ، مؤتمر الشعوب الاسيوية والافريقية وما نتج عنه من مبادىء ومقررات اهمها حق تقرير المصير لكل شعب مهما كان شأنه وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد والحياد والتعايش

السلمي والوقوف في وجه الاستعمار .

« ... بما ان حديثنا يتناول جنوب شرق اسيا فانه يمكننا انتوقف قليلا عند التاريخ الحديث لنتحدث عن باندونغ ، فهل يمكننا ان نعرف مؤتمر باندونغ بانه صعيد التقى عليه العاملون على رفع المستوى الاسيوي أم انه لقاء بين عاملين متأنين وبين عاملين في عجلة من امرهم اجتمعوا ليروا اوجه الفعالية في وسائلهم وليحاولوا مؤالفة هذه العناصر الفعالة في منهاج مشترك وليحاولوا على اساس ذلك ان يسمعوا صوتهم للعالم ؟ »

نهرو :

« نعم ... لقد كانت الدول التي اشتركت في مؤتمر باندونغ مختلفة كثيرا عن بعضها بعضا .. فقد اشتركت فيه اقطار من اسيا الغربية هي الاقطار العربية واشتركت فيه اقطار افريقية واشتركت فيه دولة شيوعية هي الصين ، كان المؤتمر خليطا بشكل يوجب التساؤل عن العامل المشترك الذي يجمع عناصره .

« ان ذلك العامل المشترك هو بالصراحة معارضة السيطرة الاوروبية فكل الناس متفقون على هذه النقطة ، وهناك عامل مشترك اخر هو الرغبة في احراز التقدم . لقد احدث المؤتمر هزة جديدة الطابع في الرأي العام الاوروبي والامريكي وكذلك في الرأي العام الاسيوي ، وفيما يتعلق باسيا فقد خلق مؤتمر باندونغ نوعا من شعور التضامن . اما فيما يتعلق باوروبا وامريكا فقد خلق شعورا من القلق الطفيف ، اجل لقد قلق الاوروبيون والامريكيون لفكرة اجتماع الامم الاسيوية والافريقية واتفاقها على معارضة السيادة التي كانت تزاولها عليها الامم الغربية حتى امد قريب . »

وبالنسبة للنقطة الثانية من هذه المحادثة فان نهرو يصرح بان مثله الاقتصادية لا تتناقض مثل الشيوعية الاقتصادية اطلاقا ، وانما يختلف معهم في طرق الوصول اليها ، فحيث تقول الشيوعية (الغاية تبرر الواسطة) وتقبل ديكتاتورية الحزب المطلقة ، وتدعو للثورة الدموية والعنف وحرب الطبقات ، يقول نهرو كلا ، انا يمكننا الوصول الى غاياتنا بطرق نظيفة ومستقيمة وديموقراطية وبسرعة معقولة ، اننا ضد المنهج الشيوعي في العمل .

تيبور موند :

« اننا لنفاضل هنا بين الثورة الانقلابية وما يرافقها من عنف وقسر واستبداد وبين الديموقراطية البرلمانية البريطانية الكلاسيكية ، ولكنني اعتقد بان هناك في منتصف الطريق منعطفا او تقاطع طرق يمكن للمرء منه ان يعمد الى اتباع مناهج اكثر وحدة وشدة دون ان يتخلى عن تعلقه بمبدأ تحقيق التقدم ، التقدم بالتطور ، واذا اختصرت السؤال اقول : هل تستطيع المناهج الديموقراطية ان تخلق الاحوال الشرطية اللازم قيامها مسبقا والايلة الى قيام الديموقراطية »؟

« اعتقد انها تستطيع ... اجل هذا ممكن من الممكن تحقيق ذلك ولكن مع بعض التحفظات بالطبع .

انني مستعد للاعتراف بان النظام الاستبدادي يتطلب وقتا لتحقيق التغيرات هو اقل مما يتطلبه النظام الديموقراطي ولكنني لا اظن بان الفرق بين الوقت المطلوب لكل من النظامين هو من الكبر الذي يتصوره الناس . ان الفارق زهيد نسبيا .. وانه لمن الممكن ان تتفاعل الحركة القومية مع الحركة الشيوعية او الاشتراكية فتبث القومية الاعتدال في الشيوعية او الاشتراكية بينما تحفز الشيوعية او الاشتراكية الحركة القومية الى الاصلاح الاجتماعي. »

ويجيب موند :

« وفي الوقت نفسه تنشط كل منهما الاخرى » .

نهرو : « نعم »

وهنا لا بد من التعليق على الفقرة الاخيرة من هذه المحادثة بالقول ان الحزب الشيوعي لا يتعاون مع اي هيئة او تيار – وهذا ما اتضح لنا بقوة وبصورة رئيسية في العراق – الا بالمقدار الذي يكفل له مصلحته الحزبية فقط دون اعتبار للاهداف الحقيقية الاساسية للمجتمع . ولا يستوحي سياسته من واقع امته بل من الخارج . كذلك يجب عدم الفصل بأي حال من الاحوال بين الحركة القومية ومحتواها المثالي الاجتماعي والاشتراكي والا فانها قد تنقلب في اي لحظة الى نظرة ضيقة وخطرة .

ان نهرو كان متفائلا جدا بالنسبة لعلاقة الاحزاب الشيوعية وتعاونها مع العناصر والهيئات الوطنية والقومية ، الا ان العرب الان لا يمكنهم ان يتفاءلوا ولا حتى ان يقبلوا تعاون العناصر التقدمية معهم بل لقد ظهر بوضوح انهم اول الاعداء لتلك العناصر .

– ٣ –

في المحادثتين السابقتين اتضحت معالم شخصية نهرو واصولها ثم منهجه السياسي واسلوبه في الحكم ، اما هذه المحادثة الثالثة فهي على اهمية كبيرة نظرا لانها توضح بعض الافكار الرئيسية الانسانية والتي ترتبط الى حد كبير باسم نهرو وباندنغ: الحياد ، منطقة السلام والتعايش ، ومسألة المساعدات الخارجية .

تيبور موند :

« .. اننا نستطيع ان نبدأ بفكرة الحياد ، ان الحياد يرجع الى

الرغبة في عدم الانجرار الى درك الدمار بواسطة حرب ذرية ... وهذا راي متفق عليه عموما عندما يفسر الدافع الى الحياد ، ولكننا يجب ان نوفق هنا بين رأيين متخالفين : اولا الرأي القائل ان سلامة الدولة المحايدة تتوقف على ثقتها في لاعدوانية الدول القوية على اساس التسليم بأن عددا محدودا من الدول الصناعية يستطيع اليوم ان يخوض حربا ذرية .

« وثانيا الرأي القائل ان الضرورة الحتمية الاخلاقية توجب على الفرد او البلد ان يدافع عن معتقداته في عصرنا الحاضر عصر الخلافات العقائدية الحادة .»

نهرو :

« لا يحق لاحد ما اطلاقا بان يقول بانه لا يمكن ان يكون في العالم الا عقيدتان احداهما تمثلها روسيا الشيوعية والثانية تمثلها بعض دول الغرب. فالقول بذلك هو تقييد شديد تعسفي لقدرة الفكر الانساني وقدرة الفعل الانساني ، صحيح ان العقيدتين المشار اليهما تهيمنان على عالم اليوم وتتصادمان مع بعضهما بعضا ولعل السبب في ذلك هو ان قوة عسكرية واقتصادية هائلة تكمن وراء كل من العقيدتين ، فما يسيطر ليس في الواقع العقيدة وانما هو القوة التي تكمن وراء العقيدة .. ويجب التسليم على ضوء التطور الذري بان الحرب خليقة بان تؤدي الى كارثة عامة تصيب البشرية فان الحرب لا تكون حلا للمشكلة بل ان من شأنها ان تزيدها خطورة ، اما فيما يتعلق بالهند ـ وهنا يجب ان أشير بان كلامي ربما ينطبق الى حد ما على بعض دول آسيا ـ فيجب الحكم علينا على اساس ماضينا ، ان ماضينا هو نسيج من النضال من اجل الحريات السياسية ومن اجل الحرية الاقتصادية ومن اجل تحقيق امكانياتنا ومن اجل تأمين أن نحيا وفق خصائصنا ووفق تفكيرنا .»

ثم يمضي نهرو في دفاعه عن فكرة الحياد وامكانيتها ليس على اساس ضمان هذا الحياد من الدول الكبرى ـ فعند وقوع الحرب لا قيمة لضمان من هذا النوع ـ بل على اساس قدرة المحايد على مجابهة العدوان بالقوة ومساهمة بحياده وعدم انجراره الى الحرب الباردة في تخفيف التوتر الدولي الذي يجر الى الحرب وفي انتشار الايمان في الرأي العام العالمي بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى .

نهرو :

« وكما ترى فان وجهة نظرنا هذه تختلف اختلافا بينا عن وجهة النظر الشيوعية مثلا كما انها تختلف عن وجهة النظر الامريكية ، ولست ادري لماذا يريدون اجبارنا على الاختيار بين هاتين الوجهتين المتعارضتين او على قبول هذه العقيدة او تلك فنحن لا نفكر كالروس كما لا نفكر كالامريكيين.

« لنرجع الى موضوع الضمانات ، الضمانة يجب ان تكون ضمانة بتجنب الحرب وافضل من ذلك ان تكون ضمانة تتعهد بها الدول بتجنب التدخل في شؤون الدول الاخرى لان التدخل يهدد دوما باثارة الحرب وعلى الاقل يهدد قطعا باثارة العداء بين الامم » .

هذا بالنسبة للحياد . واما بالنسبة لوجود منطقة للسلام وامكان التعايش السلمي ، فان نهرو يؤمن بجدواهما واحتمالهما ، وتجدر الاشارة هنا انه بالنسبة للشعب العربي لا يمكن ان يفهم السلام الا ان يكون على اساس الحصول اولا على المطالب القومية المشروعة في الوحدة والتحرر، فلا معنى للسلام مع وجود الاستعمار والتجزئة والتبعية والتحكم الاجتماعي والدولي .

تيبور موند :

« لنتحدث عن منطقة السلام واذا ما كانت ذاكرتي تسعفني فان التفسير الصحيح لهذا التعبير هو ان « منطقة السلام » قررت دولها الا تزيد من اسباب التوتر السياسي القائم في العالم حاليا ، ولكن منطق دول السلام يلقى اعتراضات معينة من وجهة النظر الغربية التي تقول ان هذه الدول لا تفعل شيئا سوى انها تلقي عبء التسلح على كاهل الدول الكبرى المحكوم عليها بان تحافظ على التوازن في العالم المعاصر » .

نهرو :

« هذا ما يقال دوما ولكنني لا اعتقد بان مساهمة هذه الدول المحايدة خليقة بان تخفف اعباء الدول الكبرى من الناحية العسكرية اذا استمر الخلاف العقائدي واستمرت الحرب الباردة بين المعكرين . ذلك ان ما يخفف العبء عن جميع الدول العظمى وعن كاهل دافع الضرائب فيها هو تخفيف التوتر ، وهكذا فان دول منطقة السلام تقوم او تحاول القيام بعمل هام للغاية اذ تبذل جهودها لتخفيف التوتر الدولي الذي يؤدي الى تخفيف عبء التسلح» .

موند :

« في حديثنا عن السلام قارنا مشكلة فعالية المنظمات الدولية في الحفاظ عليه .. هل تعتقد يا سيادة الرئيس بامكان اناطة مهمة تحقيق الاماني والمطالب المشروعة بمنظماتنا واجهزتنا الدولية القائمة ؟ وهل باتت هذه المنظمات مهيأة للقيام بذلك ؟ »

نهرو :

« اعتقد انها تتهيأ ببطء ولكنها تسير نحو ذلك حثيثا ، لا اقول انها في مستوى الخطر ، ولكنها تستطيع ان تعرقله وتستطيع ان تكبح جماح الناس وتترك لهم فرصة التفكير وهذه مزية مفيدة للعالم ، انني لا اشك قطعا بان منظمة الامم المتحدة ـ مهما كانت ضعيفة الفعالية في تنفيذ قراراتها ـ هي عامل من عوامل السلام في العالم ... وهي تستطيع ان تكون عاملا متزايد القوة الان ، هذا التطور يتوقف في الواقع على تطور الرأي العام .»

وسياسة نهرو ازاء المساعدات الخارجية واضحة كل الوضوح اذ يعتقد انها ضرورية ولكن على ان تكون بشكل محدود وذلك لكيلا يتسرب الى ذهن الشعب انه يحرز تقدمه بالاعتماد على الاخرين ، بالاضافة الى ان المساعدات اذا تضخمت فقد تخل اخلالا كبيرا باقتصاديات البلاد المتأخرة ، هذا مع ملاحظة ان المساعدات الخارجية غالبا ما تكون مشروطة ومتجهة الى النواحي العسكرية وانشاء القواعد .

يطرح تيبور موند القضية على الشكل التالي :

« ... انه اذا كان للهند ان تسجل تقدما اقتصاديا سريعا وهو بالطبع ما تريده فان عليها اما ان تفرض على شعبها تضحيات جسيمة ، او ان تحصل على مساعدة خارجية كبرى ».

نهرو :

« اننا بالطبع نريد المساعدات ولكن قد تتعجب اذا قلت لك اننا لا نريد ان نترك المجال لشعبنا كيما يعتقد بان الاخرين هم الذين سيوصلون الهند الى مكانها اللائق ، ان هذا الاعتقاد يؤلف ما ادعوه بالمعنوية الرديئة بالتكوين النفساني السيء ، فعلى الهنود ان يبنوا كيانهم بذاتهم وان يشعروا انهم اذ يدافعون عن حريتهم فانما يدافعون عن اشياء ثمينة في حياتهم اتاحتها لهم تلك الحرية ... انه من المأمول قطعا ان تقوم الدول ذات المصادر والثروات الاقتصادية العظيمة بمساعدة المناطق المتخلفة على تحسين احوالها المادية والاستفادة من مصادر ثرواتها القومية ، وانه في مستطاع تلك الدول الغنية ان تفعل ذلك بسهولة لو خصصت لهذه

الغاية شطرا من المبالغ الطائلة التي تخصصها للانفاق على التسلح . »

— ٤ —

كانت المحادثات الثلاث السابقة تبحث في اصول ومبادىء وجهة نظر نهرو الفكرية والسياسية وارائه بوجه عام ، اما المحادثة الرابعة فهي دراسة لبعض مشاكل الهند ومنجزاتها على ضوء تلك المبادىء ، ومدى التقدم الذي احرزته في المجال العملي والصعوبات التي تعترضها .

هناك مشكلة الاعتماد على « الثورة التشريعية » والقواعد الديموقراطية، للوصول الى الاهداف بالسرعة المطلوبة ، ذلك الاعتماد الذي رأينا نهرو يؤيده فيما سبق .

سأل موند :

« لقد أكدت ياسيادة الرئيس في مناسبات عدة بان الهند مصممة على ان تحيا احداثها الحتمية وان تمر عبرها مرتكزة الى قواعد الديموقراطية البرلمانية اي ان حياة الهند ستكون بمثابة « ثورة تشريعية » الا ان هذا يفرض بالنسبة للمراقب الاجنبي سؤالا جوهريا هو : هل يمكن للتشريع ان يحقق بالسرعة المطلوبة الرغبة في التقدم وهل يمكن ان يساير الاحتياجات الاجتماعية ويمضي معها ؟ »

ويسأل مرة اخرى : « لمن الاسبقية ؟ للتكوين الديموقراطي ام للنمو الاقتصادي ؟ وهل يكون بناء الكيان الديمقراطي مرتبطا بتحقيق الاهداف الاقتصادية لمشروع السنوات الخمس ام ان لاهداف الكيان الديموقراطي الكلمة العليا والمقام المتقدم ؟ »

ويجيب نهرو :

« ان اخضاع الكيان الديمقراطي لاي شيء وربطه بأي شيء بمثابة التخلي عنه ، اما والحالة هذه فانني لا ارى اي احتمال بامكان تخلينا عن الكيان الديموقراطي فهذا ما لا نرغب فيه ، وفي تقديري اننا نستطيع ان نمضي بعيدا في تحقيق امانينا واهدافنا ضمن النطاق الديموقراطي وقد يتعرض سعينا احيانا لبعض العراقيل الا اننا مجبرون على قبول هذه العراقيل .

خذ مثلا ناحية الاصلاح الزراعي . لقد تاخرنا في تنفيذه ولم يكن السبب في ذلك الكيان الديموقراطي بالذات اي ان البرلمان لم يكن مسؤولا عن هذا التاخر ، انما كانت المحاكم هي المسؤولة بالنظر لكونها تتمتع باستقلال تام جعل احكامها تعرقل تنفيذ قانون الاصلاح الزراعي مما تطلب بعض الوقت كيما نعدل الدستور الهندي لنتغلب على تلك العراقيل التي نجحنا اخيرا في التغلب عليها . »

وفي الهند مشكلة وجود الاكثرية الساحقة من السكان في الارياف والذين يتوزعون على خمسمئة الف قرية ، اذ يجب عدم اهمالهم بالنهوض فقط بالمدن كما حدث احيانا في بعض الدول كالبرازيل مثلا وفي هذا يقول نهرو :

« ان حصر الجهود بتحسين احوال سكان المدن واغفال الريف امر لا يمكن ان يطول وربما حدث مثل هذا الاهمال في الماضي عندنا ولكنه بات اليوم عسيرا ففي برلماناتنا ومجالسنا التشريعية في الولايات عدد كبير من ممثلي المناطق الريفية المجبرين على ان يعيروا ناخبيهم اذانا صاغية هذا بالاضافة الى ان الضغط الناشيء عن الريف الهندي هو ضغط هائل... »

وهناك قضية تلفت النظر بالنسبة للهند ، فكثيرا ما يشاع عنهم انهم قوم يتعلقون « بالروحانيات » ولا يبدون كثيرا من الاهتمام فيما يتعلق بالتقدم الكلي والمادي.

يسأل موند :

« هل صحيح ما يقال ان الهنود وهم شعب « متعلق بالروحانيات » وبالتالي هم اقل اهتماما بالتقدم المادي من بقية الشعوب ».

نهرو :

« لا أقول ان الهنود هم « أكثر تعلقا بالروحانية » ولكنني اقول ان المجتمع الجامد هو الذي يكثر من الكلام عما يدعى بالروحانيات ... ولكن الهنود ظلوا على العموم يحترمون الفضائل اكثر مما يحترمون الثروة ولكن ذلك لا ينفي الرغبة العامة في التقدم المادي » .

ويثير تيبور موند مشكلة احتمال انقسام الحزب الحاكم الذي يرأسه نهرو

« ان كثيرين من الناس في الهند وكذلك بعض المراقبين الاجانب مقتنعون بان حزب المؤتمر الكثير الاعضاء المتعدد العناصر سينقسم ، في ظل بعض الظروف وخاصة اذا حرم من زعامتك ، الى نزعتين متنائيتين او الى جناح ايسر يهتم بالمشاكل الاجتماعية وجناح ايمن ويتالف من العناصر التقليدية الشديدة المحافظة».

نهرو :

« صحيح ان هناك نزعة جمودية رجعية ولكن لا تنس ان حزب المؤتمر قد تبنى رغم كل ذلك هدف اقامة مجتمع ذي طابع اشتراكي وغير ذلك من الاصلاحات الثورية مما جعل الحزب اليوم اقوى مما كان عليه في اي يوم مضى منذ احرزت الهند استقلالها فهناك عدد كبير من الناس يعملون لتحقيق هذا الهدف ،ان التاريخ يقيم الدليل على ان المنظمة التي تمتلك من القوة ما يمكنها من تحمل صدمة تمرد بعض عناصرها على اهدافها تخسر قليلا من العناصر ، ولكنها تعوض عنها بعناصر اكثر عددا او اقوى.»

ويسأل موند نهرو عن مستقبل اسيا :

« اريد ان اسألك بصفتك احد المهندسين الرئيسيين لاسيا الجديدة عن الصورة التي كونتها لهذه القارة الجبارة التي تتحرك منذ عشرين او

خمسة وعشرين عاما .

نهرو :

« اعتقد بان اسيا لن تتغير كثيرا سياسيا ، الا انها ستتطور وتنمو من الناحية الصناعية وستتصنع بعض مناطقها بشكل اوسع نطاقا من المناطق الاخرى وسيؤدي ذلك على العموم الى رفع مستوى الحياة الاسيوية، واعتقد مدفوعا باسباب عدة بان اسيا ستكون للسلم اكثر جنوحا منها للحرب .. ولهذا فلا بد ان تصبح آسيا قوة من قوى السلم والتعاون في العالم ».

ثم اختتم نهرو تلك المحاورات بهذه الحكمة :

« قد لا نستطيع دائما ان نعرف ما هو الخير ولكننا نستطيع دائما ، ان نعرف ، ما هو شر دائما ، وهكذا لنتجنب الشر لنتجنب بالتالي بعض العواقب الوخيمة .»

ولو قد اخلصت قلوب البشر لهذه الحكمة لكان فيها الخلاص لهم ، ولتجنبوا كثيرا من الكوارث ، ولتخلصوا من القلق ، القلق على مصير الانسان ، ومن توقع الكارثة في كل آن.

احمد مدنية

الحفة (الاقليم الشمالي)



ذات الخال

تأليف عدنان الداعوق

مجموعة قصص ــ دار مصر للطباعة بالقاهرة ــ ١٩٢ ص

★

لعل اكثر مايسترعي الانتباه في ادباء الشهباء ان ادب القصة يستهوي عددا منهم كبيرا ، ويكاد معظم نتاجهم الادبي ان يكون قصصا . وان من حلب لمع اول كاتب قصصي ناجح في سورية هو الدكتور شكيب الجابري ، ثم سارت على دربه ــ فيما يحضرني في مقامي الان من اسماء ــ قافلة طويلة من الكتاب منهم : مظفر سلطان وصباح محي الدين وعبد الوهاب الصابوني وعبد الرحمن جبير وجورج سالم ونهاد رضا وعلي بدور وعدنان الداعوق ومحمد التونجي وعبد الرحمن البيك وجورج طرابيشي وفاضل ضياء وبدر الدين الحاضري وممتوح مولود وكاتب هذه السطور وغيرهم، على تفاوت فيما بينهم في مضمار النجاح تبعا للثقافة والموهبة ومعاناة التجربة القصصية الاصيلة ... بل ان اثنين من اكبر ادباء الشهباء يكتبان القصة على اسلوب ما ، هما سامي الكيالي وخليل الهنداوي .

وعدنان الداعوق ، صاحب « ذات الخال » ، شاب اديب وقف على القصة كل ميله فاخلص لها كما تخلص القلة من الادباء ، ويكاد يستبين له مطلع الطريق المؤدية الى غايته التي يتطلع اليها باذلا في سبيلها الجهد والمشقة والعناء .

ولقد اندفع منذ سنين الى نشر اقاصيصه في مختلف المجلات ، تحدو به رغبة عارمة في ان يقرأ الناس نتاجه الذي يسهر في مخاضه الليالي . وكان ان تجمعت لديه مجموعة من القصص كاملة دفعها في كتاب اول سماه « ذات الخال » ، واحبب به من عنوان جذاب خلاب .

ان الاديب الداعوق قد شبع ، فيما يخيل الي ، ثناء نشره عليه واضع مقدمة كتابه الاديب المهجري الاستاذ نظير زيتون . لقد قال فيه قولا جميلا سخيا .. حتى لقد داخلني وانا اقرأ هذا القول الجميل ، شعور بالخوف من ان يأخذ القاص الغرور فيحسب ان قد غدا « زهرة » متفتحة ناضرة تفوح عطرا وهو « البرعم » لما يزل ! ...

يقول الاستاذ نظير زيتون : « وكان عدنان الداعوق ، يغمس براعته في قوس قزح ، ويجري بها بين جد ومرح ، واسى وفرح ، راسما دقائق الانفعالات النفسانية ، والاحاسيس البشرية ، والنبضات الخفية والعلنية .... » ، وانه « ذلك الفنان المبدع الذي يعبق في جوه ذلك الشذا الرخي الناعم ، وتتالق تلك الصور الهادئة الرصينة الوادعة ... » وقد « يخيل اليك وانت تطالع اقاصيصه وما تحويه من عمق الدراسة والتجربة وحسن السبك وبراعة الموضوع ، انه من اولئك الخمسينيين او الستينيين الذين وخط شيب الحياة مفارقهم ... غير انك لاتلبث ان تعجب اشد العجب عندما تعلم انه لايزال في أواسط عقده الثالث ..»(١)

وللثناء ، يسخو به الآدباء الشيوخ على الادباء الشباب ، بعض النتائج الحسنة فيما اظن . ولكن قولة الحق الصريحة المواضحة ، يهمس بها في اذن الاديب الشاب ، لتعطي النتائج الحسنة على وجه طيب أيضا .

ان هذا الكتاب ، بقصصه الاربع عشرة ، محاولة اولية لقاص ناشيء . واني ممن يقولون بالاتئاد في نشر الشباب كتبهم . ان على الاديب الناشيء ان يطالع في مثابرة ، وان يكتب في صمت ماتوحي اليه به تجاربه النفسية ويطويه الى حين ... فاذا احس باستواء النفس الادبي لديه ــ ان يحس به غيره لا هو ، فرأي الاديب بذاته قاصر وقاما يتخذ سيماء التجرد ! ــ كان له ان يطل على قراء المجلات اولا لفترة من الزمن ... حتى اذا استقام نفسه وغدا اكثر استواء ، اطل على الدنيا بكتاب اول وثان وثالث يكون للناس فيها رأي ...

فهل وصل الاديب الشاب عدنان الداعوق الى مرحلة اصدار كتاب ؟

الداعوق برعم من براعم القصة ، وقلمه مازال غضا لينا ، ومواضيع قصصه مازال تلك التي ترود خيال الفتى المراهق ، فهي غرامية عاطفية موغلة ، تعالج في اسلوب لايخلو من افتعال وقد ينأى عنه « الصدق الفني » في بعض الاحيان .

ولئلا اكون ظالما للاديب الداعوق ، فاني مقدم الحساب بين يديه والقراء شهود عدل .

ثلثا الكتاب قصص حب وغرام ، فيها لوعة وانين ودموع وحب يائس لا نعلم كيف بدأ ولا كيف ينتهي ... والثلث الباقي انساني جميل المعنى ولكن اين الاسلوب القصصي يغلف جمال المعنى فيسمو به الى مراتب الابداع ؟

« القلوب عند بعضها » و « بسيمة » و « حفنة من تراب » و « التمثال » و « عندما يخطيء الحب » و « ذات الخال ، قصص في المجموعة تقرأها فتغرق في خضم العواطف الهاطلة الغامرة ، ولكنك لاتنفعل بها او تحس باي تجاوب بينك وبين الابطال والاحداث .

هات « عندما يخطيء الحب » (٢) : الفتى في سيارته يصعد الجبل الى المصيف . تمر به سيارة مسرعة تقودها فتاة فتستهويه ، ويلقاها في الحفلة التي تقام في الفندق ، فيستأذنها في رقصة . ثم يكون بينهما اتفاق على ان يقوما بسباق في سيارتيهما ، فيسبقها . ثم « تمضي ايام

(١) مقدمة الكتاب .

(٢) الكتاب : الصفحة ١١١ .

(٣) هكذا ، مرة واحدة !

(٤) لماذا ؟

جميلة حلوة . واقول لها ذات مساء « احبك » (٣) وألمس ذراعهـــا فأجدها باردة كقطعة الجليد (٤) ، واقترب من شفتيها لاسمعها تهمس في آهة مجبوسة « احبك » وتقترب بيننا القبلة حتى تكاد انفاسنـــا تحرقنا .. ثم اجدها فجاة تهرع هاربة من بين ذراعي وتختفي » . وتصارحه بعد ايام : « انني زوجة لرجل كريم النفس طيب القلب غاب في بعثـــة حكومية سنوات ... وانا احب زوجي واخلص للعهد الذي بيننا » .

لقد قلت قبل قليل ان من مواضيع قصصه مايرود خيالات الفتيـــان ، فهل بعدت عن الحقيقة كثيـــرا ؟

هات اخرى : « القلوب عند بعضها » (٥) : موزع البريد يحب على غير طائل صبية رائعة الجمال ابنة لتاجر ، ويحرص على الا يسلم بريـــد الاب يوميا الا الى البنت في منزلها لا الى الاب في متجره المجاور (٦) . ثم « تشاء الظروف ان ينتقل ادهم (٧) من توزيعه في عمله ! من تلـــك المنطقة التي تقيم فيها وصال (٨) الى منطقة اخرى ، وتفصله عنهـــا مسافة بعيدة .. وينقطع عنها بالرغم من حبه لها وجنونه بها ... »

على اننا لانعدم في المجموعة قصصا ليست من هذا القبيل . ان « ابو صادق » و « أعمى » و « العم عزيز » و « بلا عنوان » و « عشرةقروش » قصص انسانية كانت تعد موفقة لو حالفها المزيد من الصدق الفني ومـــن الاتساق في السرد والمعالجة .

ان قصة « ابو صادق » (٩) تصور آذن المدرسة الذي يتصدق عليه احد تلاميذ مدرسته ببذلة ابيه المرحوم ، ولكن الموت يتعجله فيموت قبل ان يهنا بلباسها . فكرة انسانية طيبة ، ولكن يجرحها قصور المعالجة . فآذن المدرسة يمكن ان يعد في زمرة الفقراء ، ولكنه لايوضع في زمـــرة المعدمين الذين تظهر على وجوههم « تجعدات واخاديد كل منها يحكي سنه امضاها في الفاقة والجوع والحرمان » .. فهل هو لايملك عملا قـــط حتى يكون على هذه الشاكلة من العوز ؟ ولماذا يتكلم « في ذل وانكسار » وتهطل من عينيه الدموع ؟

وتحكي قصة « عشرة قروش » (١٠) مشكلة طفل فقير يعثر علـــى قطعة فضية من ذات العشرة قروش (١١) ، ولطالما حلم بها ليشتـــري « اصبع بسكر ؟ » وهو الفقير المحروم .. ولكنه يفضل في الاخير ان يمنح لقيته الى شحاذ عجوز في الحارة . فكرة نبيلة المعنى . ولقـــد كان ينبغي ليتقبل القارىء صنيع الطفل بارتياح وتصديق ، ان يرهص المؤلف الارهاص الوافي لهذه النهاية التي تصدر عن طفل محروم بسهولة .

وثمة قصة ارتكزت على مفهوم خاطىء ، هـــي القصـــة التي وسمت بـــ « فتحية » (١٢) . زوج يضيق بحرص زوجته عليه ورعايتها له ، فيزهد بها وبحنانها وعطفها لا سيما عندما « تزعج اذنه بعبارتها الرتيبة : لا تتاخر ياحبيبي » . ويهرب الى المقهى ، فيلتقي بصديق الطفولة « فريد » الذي يقرأ في محيا صديقه سيماء الكآبة ، فيسأله عما به ، فيتـــردد في الاجابة فيتهمه فريد بان ثقته به اذن قد تغيرت خلال الفترة البعيـــدة التي لم يلتقيا بها ! فيقول الزوج : (١٣) ، وهنا يحكي « مأساته » ، فيجد لدى صاحبه الحل السريع الحاسم : عليك ان تعامل زوجتـــك بمنتهى الحكمة وبمنتهى القسوة ، فاللين والمرأة ضدان لايجتمعـــان ، لتكون اسعد زوج في الدنيا !! ويعود الزوج الى البيت ليصيح بزوجتـــه فيرعبها ، فتلين وتهمس في منتهى الرقة : « امرك فانت السيد المطاع » ، وتغدو قطة اليفة بين يديه !!

اما الوحدة الزمنية ، فتكاد تكون معدومة في المجموعة كلهـــا . ان الاحداث في كل قصة تسرح في مجالها الزمني كيفما اتفق لها وللمؤلف ، فيمتد الزمن شهرا او سنة او سنوات ، فتجيء القصص كل منها اقـــرب الى الرواية المخطوفة منها الى الاقصوصة بسماتها الفنية المتعارف عليها .

ولعل خرق هذا المبدأ « الاقصوصي » – ان جاز التعبير – يتجلى بشكل تام واضح في قصة « بلا عنوان » (١٤) ، فهي رواية ملخصة : في اول ايام يصبح لـ « رامز » حذاء جديد . نفهم ان عمره اربعة عشـــر عاما ، وان اباه عجوز قعيد البيت ، وامه شابة جميلة رشيقة تحثه على ان يكون رجلا كما كان ابوه من قبل ان يقعد في البيت ... وتمر ايـــام ويحاول رامز العمل فلا يفلح ... وتمر سنون ، فيدخل الحياة « مـــن باب صغير جدا ، وبدات احقق لنفسي ماأصبو اليه وانشده » و « لمع » اسمي ونجحت بعد صبر وطول اناة ... واذا انا اليوم في مرحلـــة يحسدني عليها من قضوا معظم حياتهم في الاعمال والتجارات الواسعة ، وصار يشار الي في المهمات الجليلة والقضايا المستعصية » .

على ان الوحدة الزمنية المتقاصرة ، تتجلى في قصة « اعمى » (١٥) فقد برئت من هذا العيب الزمني ، وان غض من جمالها امور اخرى .

اما لغة الكتاب فلا غبار عليها ، وديباجته سليمة بالاجمال . وان ذلـــك بالاضافة الى اندفاع المؤلف الى الكتابة المتواصلة ، لحقيق ان يقوداه الى غايته المنشودة . وايا ماكان فان « ذات الخال » محاولة اولية لعدنـــان الداعوق يمكن ان تعتبر موفقة لاديب شاب يتطلع الى الامام .

درعا (الاقليم السوري)

فاضل السباعي

---

(٥) الصفحـة ٣١ .

(٦) نريد ان نتساءل : أليس المفروض ان يكون للصبية مدرســـة تمضي فيها نهارها بدلا من ان تظل في البيت تستقبل رسائل ابيها يحملها المـوزع كل يـوم ؟

(٧) مـوزع البريد .

(٨) الصبية المحبوبـة .

(٩) الصفحـة ١٩ .

(١٠) الصفحة ١٥٧ .

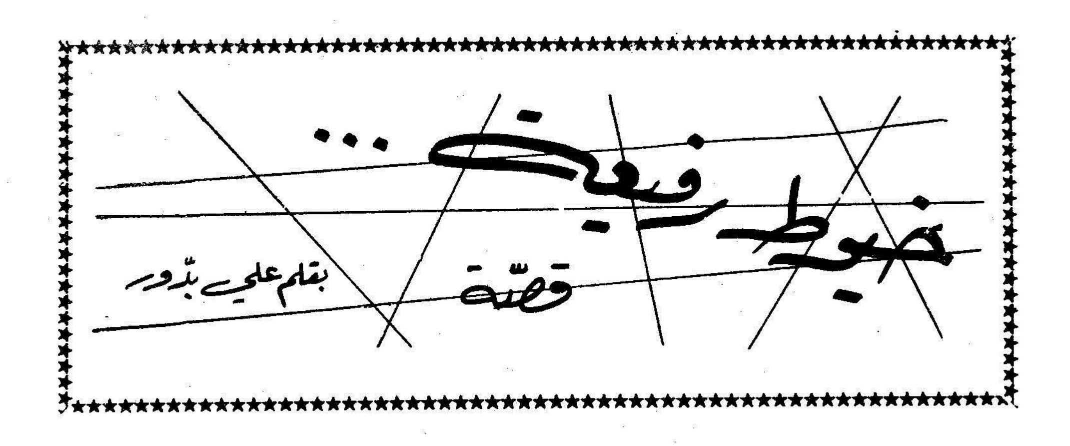
(١١) من المعلوم ان القطعة ذات العشرة القروش في الاقليم السوري من النيكل ، لا مـن الفضـة .

(١٢) الصفحـة ٧٩ .

(١٣) نلاحظ ان المؤلف يكثر من ايراد العبارات العاطفية المغرقـة حتى بين الابطال من الجنس الواحد !

(١٤) الصفحـة ١٢٣ .

(١٥) الصفحـة ٦٧ .



مشكلة الفراغ في حلب أخذت تثير نفوس الشباب في هـذه الايام . اذ اين يمكن ان يذهب المرء اذا لم تعجبه السينما ـ وكذلك كافة البرامج الليلية في الاندية ، حيث يكثر الضوء الاحمر الى درجة يشعر فيها ان الجمهور كله وكانه في مباراة لمصارعة الثيران . ويثقل ذلك الى حد كبير على الشباب . اذ لا يعقل ان يلقى الشاب فتاة ويحدثها ، اذا كان يريد ذلك خارج ضيق لا يتعدى ما يعرف من فتيات العائلة او صديقاتهن . وتزداد مشكلة الفراغ ، اثقالا على النفس اذا وجد الشاب زميلا له . عندئذ تغدو العلة ثقيلة ، وتضحى الشكوى مضاعفة .

وفي مساء كل يوم تمتلىء الشوارع بالسيارات الجديدة التي خرجت تتمتع بالعطلة . وكذلك فان من ركبوا فيها يبدون وقد صغروا عشرة اعوام . الدفء والحنان الغامر وكل المباهج تتجمع في لحظات نحسبها الدهر طولا ، تنشر على ثغور بعض الرجال ، وبعض النساء ، ابتسامة اين منها تفتح الوردة العذراء على عقد من لؤلؤ الندى . وفي مثل هذا الجو العابق بالعواطف والاخيلة ، التي تجسم حرمان الشبان ، رأيت صديقي هشام ، وهو قلق لهذا الفراغ الذي يصيب حياة الانسان، عندما يحس انه يريد ان يسمع صوت المراة ، وان يكون هذا الصوت موجها له وليس الى احد سواه . ووجدتني أسأل هشام :

ـ ألا تريد ان تسمع صوت الانثى يا هشام ؟

فاجابني :

ـ دائما .. ولكن اين ؟

قلت ببرود :

ـ في السموات .. ما رايك ؟

ولكنه بعد تفكير ، قال وقد لبس ثوب الوحي :

ـ انني أعرف خياطة . وللخياطة فتاتان جميلتان . فما رايك ؟

قلت بعد أن فركت كفي .. طلبا للدفء بينما كانت السماء قد بدأت تمطر :

ـ فتاتان .. وام تمتهن الخياطة .. فرصة عظيمة ، لا تفوت !!

كانت الطريق الى دار الخياطة خالية من المارة . السماء تمطر ، والارض تبتلع الماء المتدفق . والناس في سرعة من أمرهم ، والاضواء البيضاء منبعثة من مئات النوافذ على جانبي الطريق . ان هذه الغرف تضم مئات العائلات السعيدة . الزوج وزوجه واولاده . والحنان الذي لا ينتهي . والاضواء البيضاء تغمرهم وتبعث ببعض المسرة الى الشارع ، تنبه المارة امثالنا الى ان السعادة ، داخل الغرف الدافئة وليس في الشوارع المقفرة .. حتى ولو كانت هذه الشوارع ممتلئة بأفـواج الحسان ، وكانت الشمس تزيد من التماع الجمال في وجوه النساء والفتيات الجميلات !!

ووضع هشام اصبعه على زر الجرس . خيل الينا اول الامر ان الخياطة في سهرة . كانت الشبابيك مظلمة ، ولكننا تعجلنا الظن ، اذ سرعان ما اضيء الصالون ، وفتح الباب . وكانت احدى الفتاتين هي التي فتحته .. وسرعان ما صاحت :

ـ هشام يا أماه .. انه هشام .

وعلا صياح الام من الداخل :

ـ تفضل يا استاذ هشام .. انني اصفف شعري .. تفضل .

ولكن هشام اراد ان يتمنع بعض الشيء :

ـ لن ادخل . اننا مارون مصادفة . وقد أحببت ان اسأل عنكم أنا وصديقي .

فاعادت الام جملتها التقليدية :

ـ تفضلوا جميعا . انني اصفف شعري ولا استطيع القيام .

ودفعت هشام الى الداخل دون ان تراني الفتاة . كنت أخشى ان تكف السيدة عن ترحيبها ، وينصرف هشام خاويا فنحرم معا ، من سماع صوت الانثى اذا كان القدر قد قضى معاقبتنا فلا نملكه .

كانت الغرفة صغيرة ، والام جالسة على صندوق خشبي ستر بقطيفة حمراء . وامامها مرآة متعبة ، فبدا لي وجه السيدة متعبا . ولكن شعرها الاسود اللامع كان يقاوم تأثير التجعدات في وجهها . اما الفتاة التي وقفت تصفف شعر الام ، فقد كانت فتاة جميلة حقا .. بيضاء ، سوداء العينين .. ناعمة البشرة ، ذات قوام متناسق بـديع التكوين . وكانت الفتاة الصغرى أقصر من الكبرى ، ولكنها ممتلئة الجسم ، قد لبست ثوبا ضيقا يبرز مفاتنها التي ولدت معها . فاخذت تكبر وتمتد في مختلف الاتجاهات !!

وبدأ هشام حديثه مع السيدة . كان الحديث طويلا ، مملا بعض الشيء ، ولكنه على املاله ، كان يثير الفتاتين فتدخلان معه في نقاش حاد صارخ مثير . وكان هذا الجمال في صوت الانثى الذي نسمعه ، غاية ما نصبو اليه ، وكأن صديقي هشام قد فطن الى حرماننا من صوت الانثى فاراد ان يثير الفتاتين ليدعهما تتكلمان اكبر كمية من الكلمات تتغذى بها ارواحنا خلال اسبوع قد يمر دون ان نسمع صوت اية انثى مرغوبة !!

وفجاة خرجت على صوت الفتاتين وضحكات صديقي هشام ، فتاة يبدو عليها القيام من السرير لتوها . كانت الفتاة ذات اربعة

اعوام . سمراء حلوة ، ولكنها بحاجة الى شيء لم ادر ما هو . كانت عيناها تطلعان في الغرفة وكأنها في جو غريب لم تألفه بعد ولم تعرفه . وصاحت الام ضاحكة :

ـ ما الذي ايقظك ياسهير ؟

فردت بلثغة محببة :

ـ الصياح .. يا ماما !

حاولت الفتاة الكبرى ان تعنف سهير ، وأوشكت ان تدخلها غرفتها ثانية الا ان الصغيرة رفضت ، واخذت بالبكاء . ولا أدري ماذا غير جو الغرفة . كنا رغم كل شيء في طرب لا تحده حدود ، ولكن بكاء سهير قد قلب النشوة واحس كل منا ان سهير تصر على البكاء ، لتبقى معنا ، بينما الفتاة الكبرى تحاول ادخالها .. والام تتوسط فتاتها الكبرى ان تكف عن محاولتها ، وترجو فتاتها الوسطى التي فتحت لنا الباب ، ان تأخذ سهير من بين يدي اختها ، علها تسكت . وقد نجحت المحاولة وعاودت سهير هدوءها ، وسرني انتصار الصراخ على صوت الانثى ، فحاولت ان استميل سهير الي ، فمددت اليها ذراعي .. وصحت من اعماقي :

ـ تعالي يا حلوة .. تعالي ..

هالني ان تركض سهير الي . وان تلتصق بي كأنها قطة اليفة ناعمة الجلد ، قد وجدت ركنها الدافىء بعد طويل فراق . فطبعت على جبين سهير قبلة لم اشعر انها منحت لاي مخلوق اخر في العالم . ذكرتني سهير بفتاة صغيرة في مثل سنها . كانت اختي . قد فقدناها ولها من العمر اربع سنوات ، وحدقت في وجه سهير ، فرأيته يشبه وجه تلك الفتاة التي فقدناها ، ولكن ينقصها ذلك الشيء الذي فطنت اليه في اول لحظة دون ان اقدر على تحديده بالدقة الواجبة .

وتابعنا ، جميعا ، الحديث . كانت الفتاة الكبرى سطحية ، يعجبها في الشاب ان يرتدي الثياب الفاخرة . وكانت الصغرى تحلم بأن تكون كأختها ولكنها لم تنجح بعد . وكانت الام تشجع فتاتيها على المثابرة لصعود سلم الحياة الاجتماعية بخطوات جريئة واسعة مصحوبة بالثياب الغالية والاحذية الانيقة ، وكل ما يفتن لب الفتاة ويسحر نفسها اذا خلت من العقد والهموم .

كان صديقي هشام قد حدثني عن الخياطة والفتيات ونحن في الطريق الى منزلها . فعلمت انها امرأة لا تخيط الثياب فحسب ، اذ احيانا ما تصل ثوب اي رجل بثوب اية امرأة اخرى . وكذلك قد تسمح لبعض الشباب امثال هشام مثلا ، بأن يحدثوا احدى الفتاتين الناضجتين احاديث شائقة عن الازياء والملاهي وروايات السينما ، واذا كان احد الشباب من محبي الهدوء والعزلة ، جلس هو وفتاته في غرفة مستقلة ولا بأس من ان يمسح عن شفتيها بعض ما علق بهما من روج بمنديله او باحدى شفتيه او بكلتيهما اذا لم يكن معه المنديل المناسب !!

كانت الجلسة التي جلسناها في الغرفة الصغيرة مقترنة بالصور التي كونتها عن العائلة ، من حديث صديقي هشام عنها قبل الدخول . وكان خيالي كثيرا ما يتصور احد الشباب في خلوة بريئة جدا مع احدى الفتاتين في غرفة مستقلة بمسح عن شفتيها غبار الملل والوحدة بمنديل مناسب . وكنت اريد ان اضحك مع الضاحكين لكل نكتة كان يرويها هشام بينما كان صوت الانثى يصل الى اعماقي كأنه العطر وقد اخذ يتسرب من زجاجة سحرية ، قطرة فقطرة !! ولكن سهير كانت تعطل لي كل هذه الاحلام . فقد التصقت بي فاحسست بدفء بريء لاول مرة في حياتي . اذ قلما كنت أضم طفلة في مثل سنها الى صدري . وانتابتني عاطفتان متناقضتان : عاطفة رقيقة سمحة كانت تفرضها علي سهير .. وما كنت ارجوه لهذه الفتاة من مستقبل بريء وسط هذا الجو الذي كان يبدو متننا رغم مظاهر السعادة والرفاهية التي كانت تلقي بظلالها على كل ركن من اركان هذا المنزل الكبير . اما العاطفة الثانية فكانت عاطفة الشباب الذي حرم من عطف المرأة الصديقة ، وسره ان يسمع صوت المرأة ، صوت الانثى الذي قلما يسمعه في الاسبوع ولو مرة واحدة .

كان صديقي هشام في غاية السعادة . وكانت الام رغم مظاهر الصبابة المفتعلة تحاول ان تشعره انه مرغوب من قبلها . وكان هو ينفعل لذلك ، وخاصة اذا رضيت ان تخيط سترته وثوب اية سيدة جميلة محترمة بخيوط رفيعة . وكانت الفتاتان يتناوبان سؤاله عن ثمن الكرافات ، والخاتم الذهبي الذي زين اصبعه ، والسترة الزاهية . وكان هو بدوره يطري جمالهما واناقتهما ، ويمنيهما بسهرة عامرة ، تحقق كل منهما فيها احلامها الطويلة في الانس والمسرة التي لا تنضب . ولكنني رغم ذلك كنت منقبضا .. فلقد نامت سهير بين يدي او كادت ، وكنت لا اريد ان اشاركهم الضحك او الحديث لئلا تستيقظ . وكانت الاخت الكبرى ترمق سهير وهي في حضني ، من لحظة لاخرى ، بنظرات مشبعة بالغضب والتحدي . وكنت اعجب لهذه الفتاة التي لا تحب اختها . وكانت الام تقول من وقت لآخر اذا ارادت ان تحدثني عن سهير :

ـ ان اختيها تغاران منها . انها فتاة صغيرة ، ولكنهما تغاران منها .

وكان لا بد من ان اقترح على صديقي هشام القيام . لقد مللت رغم انني كنت مشوقا الى جلسة ناعمة اسمع فيها صوت الانثى .

عندما قمنا اسلمت سهير الى امها . فتقبلتها راضية ، ثم حملتها للفتاة الوسطى ودخلت بها غرفة النوم . وبدأنا نصافح افراد العائلة ، وكنت اشعر بحرارة كل كف وبحنان كل لمسة تنبع من القلب وتصب عند منتهى الانامل . وخرجنا انا وهشام من الباب الثاني بعد ان دخلنا من الباب الاول . ووجدتني اسأل هشام :

ـ ما هي الحكمة من وجود بابين لهذا المنزل يا هشام ؟

فرد هشام ضاحكا :

ـ لكل باب زبائنه . الا اذا كان هناك زبائن لكليهما . نحن مثلا !!

واردف :

ـ ماذا وجدت في سهير ، حتى حضنتها طيلة الجلسة ؟

فقلت :

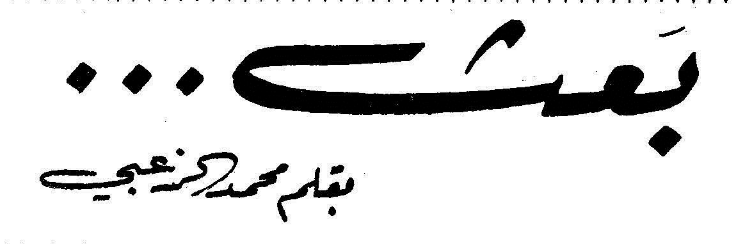
ـ لقد سرتني بصمتها وهدوئها البريء اكثر من تكلف اختيها الثرثارتين !!

فانبرى مصححا :

ـ ان سهير ليست اختا للفتاتين . ان امها تدفع للخياطة في كل شهر خمسين ليرة بدل الاقامة . انها فتاة مجهولة الاب .. وامها امرأة عاهرة مباحة لالوف الرجال !!

واحسست انني أطعن في الصميم . عندما علمت ان سهير كانت بحاجة الى شيء لم اتبينه اول الامر ... انه حضن الاب !!

حلب — علي بدور



« الى جميع الوجوه الصفر ، والاجسام الهزيلة أقدم رسالتها التـي ارغمتني على اختيـار « أطـول الطـرق » .

عزيزي « ... » .

آخذ الان بمقود قلمي الحرون ، في محاولة لقاء فجـة معك على خلاصة حرف أرجو ان تكون خيرة وكريمة وثرية ككل لقاءاتنا البكر التي كانت دائما تحمل في خلاياها ،حرقة الجمر ، وطراوة الندى وطعم الياسمين . واذا كنت سأرسم لك الكلمة على مهل فلكي لاأسمح لحرف مارق نـزق أن يخدش بداياتنا البكر ومحبتنا العروس ، يدفعني الى ذلـك أمل كبير في : علني أستطيع ان اضع عصا مباركة بـين عجلات عربتك الهابطة نحو العدم بشكل مريع .

بين يدي الان ، ياأنت ... رسالتك ، فهل تصـدق ان مجرد النظر اليها يخيفني !؟ أحرف تلهث تعبا وخوفا ، وفواصل شمطاء يتطاير منها الشرر والرعب ، وكـلام أصفر وأحمر لايكاد ينتهي من الموت حتى يبدأه من جديد ، حتى محبتك التي تؤكدها لي بين سطر واخر ، من انني : نشيد انشادك ، وسيمفونيتك الخالدة ، وجاندارك أحلامك ، حتى هذه العواطف الكريمة الصادقة ، لم تستطع ان توردها نقية خالصة فأنت ترشح قلقا ، وتقطر حيرة ، يقيدهـا الموت وتتنافر من حولها اشارات الاستفهام كأطفال العفاريت .

لا .. ياعزيزي ، ما هكذا تعاش الحياة ، ولا هكـذا يترجم الحب ، واعلم ان من صب نفسه في قالب « لماذا وكيف » ، ثم كور جسمه على شكل اشارة استفهـام أبدية سلبية لايمكنه ان يسعد . انني وانا اقرأ رسالتـك التي تحاول بها جري الى « قالبك » العقيم ، كنت أشعر بأنك انما تضعني من الحياة موضع البريء الساذج مـن السجن ، يقضي وقته يعد قضبان بابه ونوافذه وأعمدتـه ومسجونيه وربما وصلت به الحماقة الى محاولة معرفة كم يد وكم رجل ، وربما كم اذن وكم سن يوجد في هـذا السجن ، وهو في حيرة من امر سجانه الدائم أيدرجه في قائمة حساباته أم لا ؟! ، وهكذا يمر عليه الزمان بلا جدوى، وتصطاده المنون على عمد ...

.... أولا ترى معي ياأخي الغالي انه كان من الاسلم والاصح له ، أن يشارك زملاءه السجناء ـ مجتمعه ـ لهوهم وصخبهم ، وان يأتي مثلهم بجمع من « الخرز » الملـون فيحبكها « جزدانا » يقدمه الى حبيبة له أو صديق ؟.

ان الاجهاد للدخول من « الباب الضيق » ايها الحبيـب أمر رائع وكبير ، شريطة ان يخرج هذا الاجهاد من حيـز الحث الفكري والدوران في حلقة مفرغة الى حيز الممارسة التي تخصب الحياة ، وتزيد في اعتبار الانسان . وانا اذا كنت لا انكر عليك كانسان ان تحيا من خلال انك ستموت ، فان الذي أشفق عليك منه واعيذك هو ان تكون ميتا مـن خلال انك تعيش .

ألست تذكر ياعزيزي ، ماقاله لك الاستاذ (ز) ذات مرة

يوم طرحت عليه « مشكلة الموت » من انه لايفكر بالموت الامن نضب في عروقه نسغ الحياة ، وانه وهو ابن الستين ماطرح على نفسه مشكلة الموت بعد ، ولا فكر في انه سيموت ، انه يحيى وحسب ، وقد أعجبتك الفكرة يومئذ ووعدتني ان تفاجىء الحياة بعد ان طلقتها زمنا طويلا . ان هذه الارض .. ياأملي ، لمن سيخضبها ويزيد في عطائها وبهائها ، وينثر في ربوعها الزهر والثمر ، ويزرع أوتارها بالوحي والالهام ، وليست للذين يفرشون دروبها بالشوك والجدب ، ريسربلون آمالها العذاب باليأس والقلق والغثيان.

أفق مبكرا صبيحة غد ياحبيبي ، وبالحني الاغن ، وحاول ان تساهم جديا في ايقاظ الشمس ، وان تشارك في فك عقد الظلام المتشابكة فوق رأسها ، وانظر ياعزيزي انظر كيف تأخذ بنثر النور والدفء على الارض فتغمرها بالخير والعطر ... هكذا يفعل الحب بقلب الانسان حين تشرق عليه أشعته ، تغمره بالعطف والحنان وتجعله يفيض عطاء ، ويخفق حيوية وحياة ، حاذفا من حسابه ـ الى غير رجعة ـ أسطورة وقوفه عن الخفقان . وهكذا يصبح نفح الحياة « الناقص » ـ « تاما » بعد ان تشرق عليه شمس المحبة .

انني وخيط من الامل كبير ، بدأ يداعب خيالي ، أشعر انه من حقي عليك بعد ان اصبحنا قدر بعضنا ان أطلب منك ان ترفع يدك الى وجهك الاصفر المليح ، وتفرك بأصابعك السمحاء عينيك الجريئتين عل سترا أسود بنزاح عنهما فتنكشف لك الحياة نغما حلوا ونيسانا ثريا . فما أحلى الحياة ياأملي حين تعاش ببساطة ومرونة وفهم سليم، ولطالما كنا لانملك ان نموت قبل أواننا عن جد ، فعلام لانبعد عن أنوفنا رائحة الموت الكريهة ، وعن عيوننا شبحه المريع .

بكل بساطة ياأخي ... تعال نفترض اننا سنموت غدا ، وغدا بالذات ، أولا يكون الافضل من ان نغرق جسدينا في بحر من الخمر ، ورأسينا في دوامة من « اللامجديات » ، أو نجهش بالبكاء على حالنا ، ان نأخذ بيدي بعضنا ونطير فراشتين الى واحة رائعة الاخضرار حيث نعيش في ظلالها لحظة مملوءة حلوة مطبقين شفاهنا الندية السمراء على بعضها ، وغارقين في نشوة أننا سنموت غدا ، او اننا نشترك معا في دعك لبنة نضيفها على بناء أمتنا طالما لن تتاح لنا فرصة اخرى لاضافة لبنة ثانية .

قد نكون في اتخاذنا لهذا الحل أغبياء مرة ، ولكنا لن نكون أغبياء بأقل من مرتين في اتخاذنا للحل الاول . وختاما :
عفوك ياحبيبي ان تكون رسالتي اليك وهي الاولى أشبه ماتكون بتقرير ، وشافعي لديك هو أننا مازلنا بصدد وضع أبسس جديدة لحياة طويلة لن نعيشها غير مرة واحدة .
فالى رسائل مقبلة ، يفضحها العطاء ، وتستنجد هوامشها بالقلم ...... المخلصة « .... »

درعا — **محمد الزعبي**

غيمة الربيع

متى أهلت طلعة الربيع ؟
فقد دنا نسيمه الرطيب
ورقرق الغدير
وفي مدينة الشمال
كل فتاة في ذراع فارس صغير
على موانىء البحار
وارتفقت عجائز مشارف التلال
والشمس يغمر العيون وهجها الوديع
وانطلقت عرائس الجنوب تستحم في الظلال
وفي مدينتي تفتحت زهور
وغادرت مهودها الاطفال
حتى جنادب الحقول غردت على المياه
ما أبهج الوجود
لا غيم ، لا رياح تحصب الديار
لكنما سحابة على الجباه
دكناء في جهامة الجليد
لا نوء ، لا غبار
لا ظل ، لا جدار يحجب النهار
من أين جاءت غيمة الربيع ؟
كل الوجوه غضنتها غيمة صفراء
كأنها ما فارقت شتاء
ومنجل الحصاد في المروج يقطف الورود
والامهات أعين على الصغار لحظها شرود
ما أبهج الوجود
لولا يد تمتد في الظلام
لتسرق الاحلام
من أين جاءت غيمة الربيع ؟

القاهرة — **حسن فتح الباب**

حول اوزان الشعر الحر

تتمة المنشور على الصفحة ١٦

مستفعلن فان مستعلن(٢) لم تحتفظ به ، فضلا عن ان كلا منهما لم يحتفظ الا بارتكازين فقط من الثلاثة الموجودة في مستفعلن. اما التفعيلة الثالثة المزحفة لمستفعلن المعترف بها ايضا ـ وان كانت مكروهة ـ متعلن (فعلن) فلم تحتفظ الا بارتكاز واحد فقط في اخرها كما ان كمها اقل بكثير لسقوط حرفين صامتين .

وهكذا نجد ان مفاعيلن أقرب في عناصرها الموسيقية ـ من حيث الكم والارتكاز ـ الى التفعيلة الاصلية مستفعلن من كافة زحافاتها التقليدية ، ولذلك ارى انه يجب الاعتراف بها ما دامت قد تكررتفي كثير من الشعر الجديد .

وهكذا حين وجدت في قصيدتي « ذكرى جواد » هذا السطر « والبحر مكفهر الوجه قاتم النواح » كان بامكاني ان اجمله « والبحر اسود الاديم قاتم النواح » مثلا ، فيستقيم الوزن دون استخدام مفاعيلن ، ودون الاخلال بالمعنى في صورته العامة ، بل لقد غيرته بالفعل في مسودة القصيدة ، كما غيرت سواه لاتخلص من مفاعيلن حيثما وردت، ولكني حين اردت نشرها عدت الى الاصل الذي صدر عن نفسي تلقائيا لانه ادق في التعبير عما أردت ، ليس من الناحية اللفظية فحسب ، بل من الناحية الموسيقية النفسية . فالاحساس بالثقل في كلمة « مكفهر الوجه » الذي شعر به الاستاذ الحساني ، هو ثقل مقصود ليعبر عن جو المأساة التي ستتحدث عنها القصيدة ، وليعبر عن ثورة البحر الغاضبة ، فكلمة « مكفهر » التي تبدأ في وسطها تفعيلة مفاعيلن تعبر ـ ليس فقط عن اللون القاتم ، بل عن شكل الامواج الهائجة وما فيه من تلاطم وثقل ، يناسبه الثقل الذي احدثه دخول مفاعيلن بمقطعيها الاخيرين وما فيهما من ارتكازات ، خصوصا وان تفعيلتي هنا قد خلت من المقطع الطويل المفتوح الذي اشار اليه الاستاذ الحساني مما احتفظ لها بثقلها المقصود.

وكذلك كان الامر في السطر الذي وردت فيه مفاعيلن من قصيدتي « نجمة الغروب ـ القصيدة الثالثة » والذي اشارت اليه الانسة نازك في « منبر النقد » وهو : « لكنه ملح يا صديقتي ، دؤوب » . ولست بحاجة الى توضيح حاجتي النفسية الى وجود الثقل في كلمة « ملح » ، فلا شيء احوج الى الثقل من الالحاح .

ولقد أعجبني تفسير الاستاذ الحساني لاستعمال مفاعيلن في السطر الثاني من سطري عبد الصبور :

« وكان جائعا وظامئا ممزق الثيـــاب
ولم يكن له... في الكون من احباب »

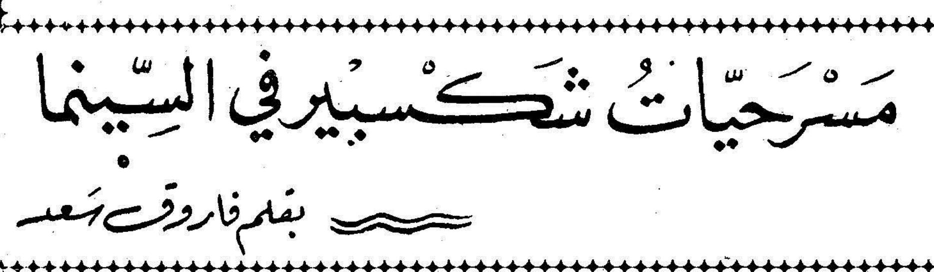
اذ تبدأ تفعيلة الهزج من له (بشرط ان نشبع الهاء) ، فقد قال « ان « له » هذه يمكن ان تكون مع الوتدين قبلها جملة موسيقية وحدتها الوتد . وبعد وقفة قصيرة بعد « له » يمكننا ان نستانف باقي البيت « في الكون من احباب » كجملة موسيقية جديدة . ولعله ليس مصادفة ان الاحظ انه كثيرا ما يوجد مقطع طويل مفتوح بين مقاطع هذه التفعيلة الغريبة يسمح للاذن ان تمطه قليلا او تقف عنده لكي تنسى تأثير موسيقى الجملة السابقة وتستعد لاستقبال الجملة التالية . فاذا لم يوجد ذلك المقطع كان الاحساس بالثقل اكثر وضوحا » . نعم أعجبني هذا التحليل، ولكن ما لم يشر اليه حضرة الناقد هو ان الوقفة القصيرة التي اشار اليها ، او الثقل الذي نحسه اذا لم يوجد المقطع المفتوح ، كل ذلك لم يأت عفوا ، او لمجرد الخطأ بل للتعبير عن حالة خاصة من حالات النفس، فهو امعان من الشاعر في دقة التعبير . فالوقفة بعد « له » في بيت عبد الصبور ، او اشباع الهاء ، انما تعبر عن التحسر والتالم لذلك الذي « لم يكن له في الكون من احباب » و « كان جائعا وظامئا ممزق الثياب». ولكننا نحس بالخطا او بالكسر الموسيقي اذا لم نحسن قراءة الشعر كما اراده الشاعر ان يقرأ ، فمشكلة الشعر الجديد ليست فقط في طريقة كتابته ، بل ايضا في طريقة قراءته ، ولعلنا نهتدي الى وسائل في الكتابة تعيننا على ذلك ، بأن نزيد من عنايتنا باستعمال علامات الترقيم ، بحيث يصبح الوقف او الصمت نفسه في بعض الحالات مكملا للنغم ، كما هو الحال في الموسيقى ، وكما هو الحال في بعض الشعر العربي(١) .

ملك عبد العزيز
القاهـرة

---

(١) راجع « في الميزان الجديد » ص ١٨٧ في الحديث عن كتاب الاستاذ جرامون عن الشعر الفرنسي .





كانت القصة وما زالت مصدر الوحي الاول للاعمال السينمائية ، ولكن الظاهرة الجديدة الحرية بالاعتبار هي محاولة بعض المخرجين الاستفادة من الامكانيات التي يتمتع بها الاسلوب السينمائي لعرض الاعمال الفنية الاخرى من مسرحيات واوبرات وباليه وفنون تشكيلية !.. على انه وان كان المسرح يشكل مصدر وحي جديد للاعمال السينمائية فلا ريب انه يأتي مباشرة بعد القصة في ميدان الوحي السينمائي. فلقد اظهرت السينما عددا كبيرا من مسرحيات شكسبير وبرناردشو واونيل وسارتر ووليامز وسواهم . ولكن الفنون الاخرى من باليه واوبرا وفنون تشكيلية ما لبثت ان خرجت الى ميدان الوحي السينمائي فكان ان ظهرت في السنوات الاخيرة باليه « بحيرة البجع » لتشايكوفسكي في فيلم روسي واوبرا « عايدة » لفردي في فيلم ايطالي واوبرا ـ باليه « حكايات هوفمان » لاوفنباخ في فيلم انكليزي وكان ان ظهر نتيجة لذلك مفاهيم فنية وانسانية جديدة لهذه الاعمال ، ولم يقصر الاسلوب السينمائي امكانياته على القصة والمسرح والموسيقى بل عرضها للفنون التشكيلية بالذات (١) ، وهذا هو فيلم « لغز بيكاسو » للمخرج « كلوزو » لايزال حتى اليوم مادة لابحاث تتناول الاسلوب السينمائي وفن التصوير المعاصر (٢)

ان الاسلوب السينمائي يستطيع ان يسدي خدمات جلى للفنون وذلك لما يقوم به من تعميمها ونشرها بين الشعوب ومن جهة ثانية لما يعطيه لها من اشكال جمالية ومضامين انسانية جديدة تفتح امام نقاد الفن ودارسيه افاقا جديدة للبحث والمناقشة .

ولتركيز بحثنا لابد لنا من الاقتصار على مااسداه الاسلوب السينمائي لفن واحد من الفنون ولاعمال فنان واحد من الفنانين . وقد اخترنا المسرح لتعدد الوجوه وتنوع الاشكال التي تناوله بها الاسلوب السينمائي دون سائر الفنون . واقتصرنا على اعمال واحد من كتاب المسرح وهو الشاعر وليم شكسبير نظرا لما لاقته اعماله من اهتمام مخرجي السينما الذين برزت محاولاتهم في اظهارها على الشاشة باشكال من تعدد الاخراج وتعدد صور العرض .

لاتزال مسرحيات شكسبير حتى اليوم مصدرا لاينضب لظهور مفاهيم فكرية تفسر تطور احداثها وتوضح مخطط مسلك شخصياتها فكان ان ظهرت نتيجة لذلك مدارس مختلفة في تمثيلها واخراجها .

ولكن عرض مسرحيات شكسبير في السينما اضاف شيئا جديدا او بالاحرى ابرز قضية جديدة : هل يمكن الابقاء على الطابع المسرحي لاعمال شكسبير وخاصة من حيث توازي السياق المسرحي مع السيناريو السينمائي وموافقة المسرحي للحوار السينمائي ؟ وهل تستطيع السينما ان تعطي لاعمال شكسبير ، كما اعطاها المسرح ، مدارس فكرية وفنية تقوم بتفسيرها واعطاء قيم جديدة لها ؟

ان المبدأ المسلم به عند نقاد الفن المحدثين هو ان ابرز ميزات مسرحيات شكسبير قابليتها للاخراج السينمائي ، وكما عبر عن ذلك احد ناقدي فيلم « ريتشارد الثالث » المستوحى من المسرحية الشكسبيرية : « ان مسرحيات شكسبير تؤلف بحد ذاتها سيناريوهات كاملة فريدة بنوعها . »

لقد تعددت محاولات اخراج هذه المسرحيات في السينما فمنها ماكانت ناجحة ومنها مافشلت وهذا يعود لسوء فهم المسرح الشكسبيري وقلة المقدرة في تكييف العمل المسرحي مع الاسلوب السينمائي .

وسنتناول كل مسرحية على حدة معددين محاولات اخراجها محللين قدر الامكان الاعمال الناجحة بينها .

١ ـ روميو وجولييت

ظهرت مسرحية « روميو وجولييت » مرتين في عهد السينما الصامتة ولم يأت هذان الفلمان بجديد فقد همهما عرض موضوع القصة العام وكان الفيلمان قصيرين فجاء العرض ساذجا هزيلا . فالواقع ان السينما كانت في ذلك الحين لاتزال في طور التكوين وكان الاهتمام منصبا على الناحية الفنية اكثر من الاهتمام بالمواضيع .

وفي سنة ١٩٣٧ اخرجت هوليوود فيلما مستوحى عن مسرحية روميو وجولييت قامت بتمثيله نورما شيرر «جولييت» وليزلي هوارد « روميو » (٣) وكان ظهور هذا الفيلم فاتحة لعرض قضية المسرح والسينما اذ ان نقاد هذا الفيلم سرعان ماطرحوا هذه القضية للبحث : الى اي مدى يمكن تحويل مسرحية شكسبير الى قصة سينمائية كاملة من حيث السياق والحوار ؟ ولكن الفيلم نفسه لم يفسر هذه القضية او بالاحرى لم يبد مخرجه اهتمامه بهذه القضية فلقد اعتمد السيناريو على موضوع القصة العام .

وفي سنة ١٩٤٤ اخرج المخرج العربي الكبير المرحوم كمال سليم فيلم

---

(١) لسنا نقصد افلام الفنون التشكيلية المعدة للدراسة في مناهج الاكاديميات الفنية .

(٢) Preuves No. 65 Max Berger : Le mystère de Picasso

(٣) عرض هذا الفيلم في بيروت مرات عديدة خلال (١٩٤٨ ـ ١٩٥٢)



روميو وجولييت ـ الفيلم الايطالي
جولييت ـ في الفيلم الاميركي

« شهداء الغرام » « تمثيل ابراهيم حموده وليلى مراد » المستوحى من مسرحية « روميو وجولييت » : لقد جاء هذا الفيلم بقضية لا زالت حتى اليوم محل مناقشة عند نقاد السينما والمسرح : « هل يمكن للسينما او للمسرح تغيير الطابع المحلي للاعمال الفنية ؟ » لقد جعل المخرج سليم احداث المسرحية تدور في اطار شرقي ولم يكتف بذلك بل وضع لمسرحية شكسبير تفسيرا « اجتماعيا » يتوافق مع طابع المجتمع العربي القديم او بالاحرى مشكلة الريف المصري في ذلك الحين . فعلى الرغم من ان الفيلم كان فيلما غنائيا فلقد جسد مشكلة الثأر مع عدد من المشاكل الاجتماعية الاخرى . وعلى الرغم من ان هذا التجسيد كان باهتا نوعا فلا يسعنا الا الاشادة بتجاوب هذا المخرج الكبير مع مشاكل وطنه الاجتماعية في وقت كانت فيه السينما العربية في بداية نشأتها .

وقد قامت السينما الايطالية بمحاولة لاخراج هذه المسرحية سنة ١٩٥٣ . فانتجت شركة « اونيفرسالسين ـ فيرونا » (٤) فيلما ملونا مستوحي عن رواية روميو وجولييت قام باخراجه انيانوكا ستلاني ومثله لورانس هارفي (روميو) وسوزان شنتال (جولييت) وعلى الرغم من عدم تقيد هذا الفيلم بالطابع المسرحي الشكسبيري فلقد ابرز بتعبير شاعري فذ روعة الحب . ولا بد من الاشارة الى الجهود التي بذلت في ابراز الطابع المحلي للاحداث والدقة في ابراز الاماكن الحقيقية التي قيل ان الاحداث وقعت فيها . ولا بد ايضا من الاشارة الى المجالات التعبيرية التي عرضتها الكاميرا ان كان في تصوير الشخصيات او في تصوير اماكن الاحداث .

(٤) Unitalia Film - Agosto No. (Edition française)

وفي ربيع سنة ١٩٥٦ عرض في بيروت فيلم باليه روسي مستوحى من مسرحية « روميو وجولييت » (٥) وقد جاء هذا الفيلم بميزة جديدة فلقد عرض لمقدار توافق الاسلوب السينمائي مع فن الباليه ومن جهة ثانية ابرز هذا الفيلم المحتوى الانساني في مسرحية روميو وجولييت .. ان المقدمة الموسيقية (المبهجة) التي ترافق مشهد مدينة فيرونا وهي تستفيق في الفجر تعبر عن جمال الطبيعة وسمو الحياة.. ولا تلبث الاحداث ان تتطور فتأتي الموسيقى الصاخبة وحركات راقصي الباليه السريعة لتعبر عن الصراع المحتدم بسبب الحقد والافساد .. وتأتي مشاهد الكرنفال لتصور بدورها صخب الحياة الاجتماعية ... وينتهي الفيلم كما تنتهي المسرحية بالمأساة العنيفة . لقد عبر الباليه تعبيرا كاملا فاضاف على مأساة الحب لمحات من قساوة الاقدار ولؤم الحظ واذا بمأساة السلام تسير متلازمة مع مأساة الحب .

٢ ـ هملت

تذكر كتب تاريخ السينما ان اول محاولة سينمائية لاخراج مسرحية هملت كانت سنة ١٩٠٧ عندما اظهر احد مؤسسي السينما بعض فصول هذه المسرحية في فيلم صامت .

وفي سنة ١٩١١ ظهر فيلم انكليزي صامت ينقل حرفيا تمثيل فرقة مسرح « دوري لين » اللندني لمسرحية هاملت .

وخلال سنة ١٩١٤ ظهر فيلم امريكي صامت استوحى موضوعه من مسرحية هملت وكذلك ظهر فيلم دانمركي .

ولكن ادق وافضل اخراج سينمائي لهذه المسرحية كان ذلك الذي قام به الممثل البريطاني سير لورانس اوليفيه سنة ١٩٤٩ ومثله مع جين سيمونز (اوفيليا).

ان شخصية هملت كشخصية « الملك ليز » و « عطيل » و « الليدي ماكبث » و « فولستاف » و « بروتس » و « شيلوك » تعرضت لاراء ومباحث عدد كبير من النقاد كل يفسر مسلكها على اساس مفهوم فلسفي او اجتماعي معين . هناك مثلا مباحث وجدل حول طبيعة مسلك هملت السلبي من الملك كلوديوس في بداية المسرحية ؟ لماذا لم يقتله مباشرة بعد تأكده من قتله لوالده .. لماذا وقف هذا الموقف الغامض من امه ولماذا تصرف ذلك التصرف المحير من حبيبته وما مقدار مسؤوليته عن موتها ؟ ان تفسيرات برادلي او كولريدج تختلف عن اراء جونس في هذا السبيل واراء بانيول تختلف عن اراء ستلافنسكي ! وهذا هو اوليفيه يعطي عن طريق السينما التفسير الذي تبناه عن تمثيله لشخصية هملت على المسرح. ان هملت عند اوليفيه هو ذلك الفرد المعقد التواق الى الموت يعبر عن نفسيته بالقلق المتسمة به حركاته والنحو الذي تسير عليه تصرفاته مع كل من هم حوله .

لقد استفاد « اوليفيه » من امكانيات الاسلوب السينمائي افادات كبيرة لقد حاول جهده ان يستخدمه في كثير من الاحيان ومع ذلك لم يتأثر الطابع المسرحي الشكسبيري لهذه المأساة . ان اوليفيه استفاد ايضا والى درجة قصوى من تأثيرية التصوير الفوتوغرافي والديكور السينمائي .!

وكانت عند شارلي شابلن رغبة قديمة في تمثيل شخصية هملت ولكن حدسه الفني جعله يخشى الفشل وهو الممثل الكوميدي الذي اعتاده الجمهور . ولعل لشابلن رأيا في شخصية هاملت ومفهوما خاصا يتوافق

(٥) الفيلم من انتاج ستديو موسفيلم . سيناريو واخراج ارنستام ولفروفسكي تمثيل ورقص زادنوف : روميو ـ اولانوفا جوليت موسيقى بروكفيت

مع مفاهيم الشخصية التي قدمها في افلامه الاولى : شخصية الرجل الذي لاحول له ، الرجل التافه بنظر الجميع (انما هو الرجل الكامل في قرارة نفسه) لقد لاحق (شبح) هملت شابلن لفترة طويلة من حياته .. انه شبح (المادة الشعورية) الذي يلاحق الفنان ويطارده . وكانني به اراد ان يتخلص من هذا الشبح فاذا به يقوم في فيلمه « ملك في نيويورك » بتمثيل بعض ملامح شخصية هملت خلال دقائق قليلة . فكان ان فتك بهذا الشبح فتكا ذريعا اذ جعله سخرية الجمهور وارتاح بذلك من مطاردته الى الابد !

٣ ـ كيفما تهواه

وكما اخرج اوليفيه مسرحية هملت فقد سبق له ان اخرج مسرحية « كيفما تهواه » وقام بتمثيله مع اليزابت برجنر . ولم يضطر لورانس اوليفيه الى بذل كثير من الجهود وذلك للبساطة التي تتسم بها هذه الدراما الشكسبيرية الخفيفة التي تدور حوادثها في فرنسا بين دوق مغتصب لعرش اخيه الذي يعتزل هو واتباعه في غابة « اردن » وهل من بساطة اكثر من تنازل الدوق المغتصب عن العرش لاخيه بعد لقاء عاصف دون ان تسفك نقطة دم واحدة .

٤ ـ هنري الخامس

وكما نال اوليفيه جائزة الاوسكار على فيلمه هملت فلقد نال ايضا الجائزة نفسها عن فيلمه الملون هنري الخامس .

وقد صور هذا الفيلم على مسرح « الجلوب » في لندن وحاول فيه اوليفيه ان يحافظ الى اقصى حد على الطابع الشكسبيري او قل ان يحافظ على الطابع المسرحي .

٥ ـ ريتشارد الثالث

واخر اعمال اوليفيه كانت اخراجه وتمثيله لمسرحية ريتشارد الثالث في السينما . وقد اعتنى اوليفيه عناية كبرى في اختيار الممثلين الذين سبق لهم ان لعبوا ادوار مسرحية شكسبير مثل كلير بلوم والسير جون جيلجور ورالف ريتشاردسون . ان الطابع المسرحي سيطر سيطرة كبيرة في بعض مقاطع الفيلم ولكن كان هذا الطابع يختفي من حين لاخر ليحل محله الطابع السينمائي الخالص بدون اي محاولة للتوفيق بين الطابعين .. ولكن مما لاشك فيه ان السينما قد افادت من حيث انها ابرزت بعض المشاهد التعبيرية التي لاتسمح امكانيات المسرح بتقديمها !.. ان جاك نيل ناقد السينما في مجلة « آنال » Annales يقول بان التبديلات السريعة للمشاهد وتعارض الاماكن والمواقف هي متوفرة في ريتشارد الثالث كما هي في الاعمال المكتوبة خصيصا للسينما . ان « نيل » يستشهد بمنظر ريتشارد امام اعدائه وهو يصيح من اعماقه : « ـ مملكتي مقابل حصان .. » لنرى منظر التاج يتدحرج بين ارجل الخيل تدحرج الكرة . ان هذه « الصورة الرمزية » على حد تعبير نيل لاتظهر الا عن طريق السينما وحدها (٦) . ولعل اهم ملاحظة جدير ذكرها هي دقة « الكاميرا » وبراعتها في مرافقة ريتشارد الثالث في جميع خطواته لتنفصل من حين لاخر مؤامراته التي يدبرها .

٦ ـ ترويض العاصية

قدم « دوغلاس فيربانكس الاب » هذه الكوميديا الاجتماعية سنة ١٩٣٠ ومثلها مع ماري بيكفورد التي قامت بدور كاثارينا الزوجة العاصية بينما قام فيربانكس بدور بتروشيو الزوج الروض .

ولم يراع هذا الفيلم او بالاحرى لم يوضح ان الكوميديا الشكسبيرية

(٦) Les Annales No. 75 Janvier 1957



فيلم هملت



لورنس اوليفييه

قابلة لان تتحول الى فيلم سينمائي بدون ضرورة المحافظة على الطابع المسرحي الخالص « ولا يعني هذا اهمال الطابع الشكسبيري » .

ولعل فيلم « الليلة الثانية عشرة » الروسي هو الفيلم الوحيد الذي يمكن القول انه عرض لهذه القضية . وسنتناول ذلك حين ذكرنا فيلم « الليلة الثانية عشرة » .

٧ ـ حلم ليلة صيف

اول مرة ظهرت فيها هذه المسرحية على الشاشة كانت سنة ١٩٣٦ في فيلم امريكي استعراضي قام بادواره الاولى اوليفيا دي هافيلاند وميكي روني وجيمس كاجني .! (٧)

ولكن اخراج هذه المسرحية الجدير بالذكر كان الذي قام به الفنان «جيري ترانكا» المؤلف والمخرج لسينما الدمى المتحركة Les Marionnettes في تشيكوسلوفاكيا (٨) .

ان فيلم « ترانكا » تجربة جديدة ان كان لجهة مسرحية شكسبير او لجهة نطاق سينما الدمى المتحركة . ان ابطال مسرحية شكسبير لم يعودوا عند « ترانكا » من لحم ودم .. انهم دمى تتحرك امام الكاميرا وتعبر بصورة درامية رائعة عن مسرحية شكسبير .

انتهى العمل في هذا الفيلم سنة ١٩٥٧ وهو ملون ، بايستمان كولور » ومصور بعدسة « سينما سكوب » ومجهز بصوت « ستريوفونيك » والان لنترك الحديث لمجلة « الفيلم التشيكوسلوفاكي » : « عرض « ترانكا » ابطال شكسبير في نماذج جديدة تماما من الدمى المتحركة مختلفة عن التي سبق استعمالها . ان نسبها وخطواتها تعود بها الى التماثيل القديمة وسيماها تتفق مع خصائص الابطال الشكسبيريين .. لقد احتفظ « ترانكا » في سياقه الدرامائي على الحدث الحقيقي لكوميديا شكسبير الكلاسيكية .. ولكنه وسع تماما المضامين الاسطورية التي لم يستطع المسرح ان يعرضها تماما . » ان دنيا العفاريت التي تزخر بها هذه المسرحية تؤلف جوا شيقا لسينما ومسرح الدمى المتحركة .

(٧) اعتمدنا ذكر هذه المحاولة اعتمادا على ما قرأناه عنها في احدى الصحف الدورية ولا ندري مقدار صحة وجود هذه المحاولة .

(٨) Le film Tcéchoslovaque (6-7) 1957



ريتشارد الثالث ـ لورنس اوليفييه

٨ ـ يوليوس قيصر

لعل فيلم « يوليوس قيصر » هو افضل ماأخرجته هوليوود من مسرحيات شكسبير فالواقع ان جهودا ضخمة قد بذلت لابراز روعة المأساة ، الشكسبيرية من دقة في اختيار الممثلين وتوزيع الادوار عليهم ومن ناحية التصوير وابراز كثير من النواحي التعبيرية التي لم تسطع امكانيات المسرح ان تعطيها لها (*)

لقد اختارت شركة مترو جولدوين ماير (منتجة الفيلم) اقدر ممثلي المسرح والسينما في بريطانيا والولايات المتحدة مثل السير جون جيلجود (كاسياسي) ولويس كالهرن (يوليوس قيصر) وجيمس ماسون (بروتس) ومارلون براندو (مارك انطونيو) وادمون اوبرين (كاسكا) وجرير جارسون (كاليبورنيا) ديبوراه كير (بورشيا) .

لقد عرض « جوزيف.ل. مانكيوكز » مخرج الفيلم كثيرا من الصور التعبيرية التي لم يقدمها المسرح لهذه المسرحية مثل اثر خطب تأبين قيصر على وجوه الشعب والاستفادة من طريقة (المقابلات السينمائية) فيتوضيح هذا الاثر وذلك باختيار شخصيات معينة وابراز تعبيرات وجهها عند كل خطبة او خلال بعض مراحلها .

لقد امتاز الفيلم باستيعابه لاغلب المضامين النفسية التي امتازت بها المسرحية الشكسبيرية ولكن ظهرت في هذا الفيلم ظاهرة غريبة وذلكفي المشاهد الاخيرة (معسكر بروتس) فقد كانت ازياء الجند ازياء مسرحية بسيطة بحيث لا تتوافق مع مقدار الاهتمام باتقان مظهر الازياء كما يحدث ذلك عادة في السينما وخاصة في هوليوود .

٩ ـ ما كبث

اذا ذكر اسم « لورانس اوليفيه » عند الحديث عن مسرحيات شكسبير في السينما فلا بد من ذكر اسم « اورسون ويلز » الىجانبه .

لقد كانت ما كبث افضل اعمال « اورسون ويلز » السينمائية في اخراج مسرحيات شكسبير .. لقد حافظ هذا الفيلم على الطابع الشكسبيري واستفاد استفادة كبرى من تأثيرية تعبير الكاميرا وعلى الرغم من ان اخراج ويلز لهذا الفيلم كان خلال مدة قصيرة فقد كان هذا الفيلم كاملا من الناحية الشكلية . ومع ذلك فلا بد من الاشارة الى ان اخراج ويلز لهذه المسرحية في السينما وان كان قد حافظ على طابع شكسبير فانه لم يعرض اي مفهوم جديد لهذه المسرحيات .

وقد عرض في مهرجان البندقية منذ سنوات فيلم ياباني للمخرج « كوروسوا » Kurosowa مستوحى من مسرحية ماكبث..

وعلى الرغم من موقف (العداء) الذي وقفه النقاد من هذا الفيلم ابان المهرجان فان جورج سادول الناقد والمؤرخ السينمائي يعد هذا الفيلم في طليعة الافلام المستوحاة من مسرحيات شكسبير !

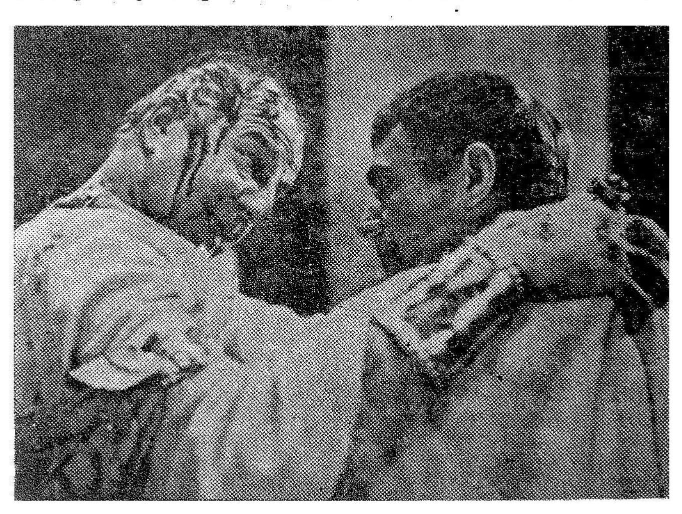
١٠ ـ عطيل

اول محاولة لاظهار مسرحية عطيل في السينما كانت الفيلم الالماني القديم الذي قدمه « اميل جانينز » .

ومنذ سنوات ظهر لاورسون ويلز فيلم « عطيل » . لقد ظل ويلز يعمل في هذا الفيلم طيلة سنتين كاملتين واشترك معه في تمثيله سوزان كلوتير وفاي كونتون وروبرت كوت وميشال ماك ليمور وميلتون ادوارد .

وعلى الرغم من ان هذا الفيلم قد نال عدة جوائز عالمية وعلى الرغم مما اشاد به النقاد حول حسن استخدام المؤثرات الصوتية والمواقف الصاخبة التي تمتاز بها الدراما الشكسبيرية ودقة في ابراز الحوار الشكسبيري الضخم فان هؤلاء النقاد انفسهم وخاصة جورج سادول يرون ان تفسيرويلز لشخصية عطيل ومسلكه كان ضعيفا جدا .

ان « عطيل » ويلز هوذلك القائد العسكري الغبي الذي يعتقد خيانة زوجته « لمجرد تقرير يقدمه اليه ياوره » وهو في انتقامه كان ذلك الانسان البدائي الذي يثأر ممن خانه . اما « ياجو » فكان « الشخص الوحيد الذي يمتاز في هذا الفيلم بالذكاء » اما « ديدمونة » كما يصورها ويلز « فليس لشخصيتها من القوة والتماسك اكثر مما لورقة من اوراق



يوليوس قيصر ـ فيلم متروغولدين ماير

(*) لسنا نقصد من ذلك ان المسرح يعجز عن التعبير الفني الكامل .

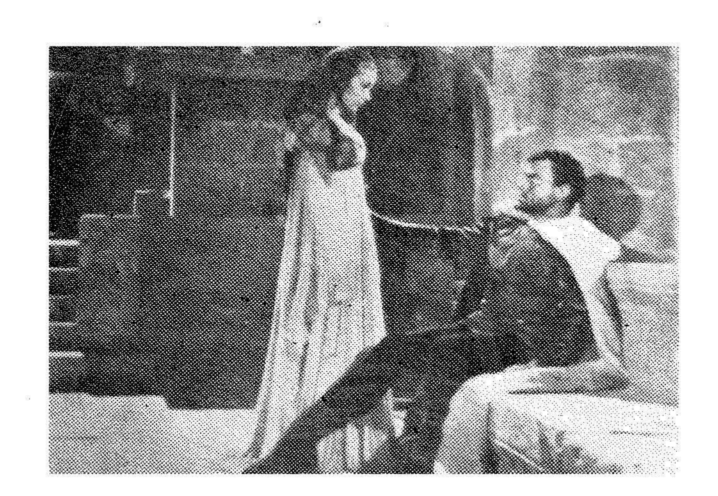
١١ – الليلة الثانية عشرة

عرض الفيلم الوحيد المستوحى من مسرحية « الليلة الثانية عشرة في بيروت منذ سنتين ونصف تقريبا . وكان الفيلم روسيا ملونا . والواقع ان هذه الكوميديا تكاد تكون اكثر كوميديات شكسبير قابلية للاخراج السينمائي بما توحيه من تضارب الشخصيات وعناصر التشويق والخدع والتوريجات وتعدد الاماكن . وهذا ماسمح للمخرج ان يرتب الاحداث ترتيبا سينمائيا جميلا ويظهر في هذا الفيلم الاهتمام المركز على المونتاج بصورة واضحة (مشاهد القاعة والبحر) . وان كان من مشهد لاينسى فهو مشهد البرج وهو جالس على حافة النافذة يغني وهو يعزف على القيثارة .. ان هذا المشهد يشكل اطارا لاحداث المسرحية . وهناك شخصية لاتنسى ايضا وهي شخصية القزم مع الاميرة الحزينة فعلى الرغم من تصرف الممثل في ابرازها كثيرا عن طريق الكياج فقد جاء هذا التصرف في محله .

وان كان من ملاحظة اخيرة على هذا الفيلم فهي ان اخراجه قد تم بسرعة وبدون عناية . ولو بذل على الفيلم من الجهد اكثر مما بذل لكان من الممكن اعتباره مدرسة جديدة في اخراج كوميديات شكسبير في السينما .

وبعد فلقد اردنا من هذا البحث عرض المحاولات التي تمت لاخراج مسرحيات شكسبير في السينما مع شيء من التحليل للمحاولات الجديرة بذلك . وقد يكون بدا في عدة مواضع من هذا البحث سمات تقريرية ووصفية ، ولكن لاشك ان القارىء سيشعر ان ذلك كان امرا حتميا املاه علينا مقتضى البحث ، الذي به اتصل ، وضرورة الموضوع الذي عالجناه .

فاروق سعد



عطيل – فليم اورسون ويلز

النشاف الواهنة » .

وفي ربيع سنة ١٩٥٧ عرض في بيروت فيلم « عطيل » الروسي . الذي نال عدة جوائز كبرى في المهرجانات الدولية . اخرج هذا الفيلم المخرج « سرجي يوتكفيتش » وترجم الحوار الشاعر بوريس باسترناك وانا ردلوفا . ولا شك ان باسترناك « باقرار النقاد العالميين يعتبر ادق من ترجم مسرحيات شكسبير الى اللغات الاجنبية . وقد قام بالادوار الرئيسية في هذا الفيلم سرجي بوندارتشوك « عطيل » وايرتياسكو بتزيفا « ديدمونة » ويوبوف « ياجو » .

يعتبر هذا الفيلم من افضل الافلام التي عرضت مسرحيات شكسبير لقد جاء التصوير والاخراج دقيقا للغاية . وكانت الحركة تتناسب مع الجو التراجيدي للمسرحية . وكان تصوير المناظر الخارجية يبدو مركزا لدرجة جيدة (صورت المناظر الخارجية في المناطق المحيطة بمدينة يالتا (*))

ويمتاز التصوير بميزة شعر بها كل من رأى هذا الفيلم . فلقد استوعب كل مشهد استيعابا كاملا وكانت اللقطات تتناول جميع الزوايا والمراكز الحساسة في المشهد بطريقة هادئة تجعل المتفرج يشعر بضيق جو احداث المسرحية ..

ولم تقتصر العناية على الناحية الشكلية . بل ظهر عند المخرج خاصة اهتمام كبير في خلق مفهوم جديد لهذه المسرحية . ان تفسير يوتكفيتش لشخصية هاملت يمكن ان يفيد افادة كبرى في دراسة ادب وفلسفة شكسبير المسرحي بل ويمكن ان يثير الجدل والنقاش .

ان يوتكفيتش قد عبر عن رأيه بذلك في مقال نشره في مجلة الاداب الفرنسية في ايار سنة ١٩٥٦ اذ كتب يومها ان عطيل هو « انسان صادق شريف حاد العاطفة يتغلب على بلبلة الافكار في القرون الوسطى باحثا في صراعه عن المثل الاعلى للانسانية » .! ان عطيل بنظره يعتبر مجرد باحث عن الحقيقة . ان يوتكفيتش يوافق « بوشكين » بما راه في عطيل من انه « ليس متشككا ، سيء الظن بطبعه انما هو سليم الطوية طيب القلب » ويرى يوتكفيتش رأي « تومازوساليتني » ان حزن عطيل واكتئابه يفوق في حدته تعطشه الى الثار والانتقام » (٩)

(*) صورت مناظر فيلم ويلز في المغرب

(٩) Les lettres françaises No. 702 - Janvier 1958

مُناقشَات

الفراغ العقائدي .. تملاه عقيدتنا

بقلم ميشيل جرجوس

في بحث قامت بنشره « الاداب » في عددها الاخير تحت عنوان « معركتنا مع الشيوعية » كتب الدكتور فائز صائغ يقول « بان الشيوعية حركة تآمرية .. ودعوة لخلق مجتمع شيوعي .. وهي اخيرا عقيدة لا تحارب الا بعقيدة تقع مسؤولية تحمل اعبائها على عاتق الافراد والهيئات الاهلية والاحزاب القومية - وعلى عاتق المفكرين قبل الجميع - لا على عاتق الحكومات » .

« والشيوعية لا تقاوم مقاومة جدية الا عندما تقدم القومية العربية المتحررة عقيدة اجتماعية ذات محتوى مفهوم يحاول ملء الفراغ العقائدي الذي تفتقر اليه القومية العربية ، ورجال الفكر مدعوون الى صياغة هذه العقيدة وتحديد مفاهيمها ، واستكمال محتواها ، وتعميق معناها ... ولن يتوفر لنا الفلاح في مقاومة الشيوعية الا حين نعمل على استبدال الفراغ العقائدي بعقيدة واضحة متحوطين في الوقت عينه دون انتحال العقيدة لنفسها صفة الشمول الكلي ... » ...

انه لصحيح - الى أبعد حدود الصحة - ان الشيوعية حركة ثورية دكتاتورية هدامة .. وحركة تآمرية تطمح الى خلق مجتمع شيوعي يكون - في كل وجوهه - نسخة طبق الاصل عن الاحزاب الشيوعية العالمية التي ربطت مصيرها بموسكو ، دون ان تعير ثمة انتباها ، او اهمية للمنبت الذي تنمو فيه الشيوعية ، ومتجاهلة ان النبات كي ينمو ويثمر تجب العناية به في مجاله الذي غرس فيه ، وان كل محاولة لنقله من موضعه الى موضع اخر يختلف عن الموضع الاصلي في كل شيء - في طبيعة التربة .. وفي وجود امكانية النمو ... واخيرا « المناخ » اللازم والضروري من اجل حياة النبات - انما يؤدي الى اعاقة نمو النبات .. وذبوله .. وبالتالي الى موته ... وهكذا الشيوعية - تماما - اذا نحن حاولنا ان ننقلها من بيئتها الخصبة - اذا كانت حقا خصبة كما يدعون - الى بيئتنا « غير الخصبة » فان شيئا واحدا ينتظرها لا غير : هو الموت .. وانعدام وجودها الذي قد يؤثر على وجودها في البيئات الخصبة ايضا .

نقول ان محاربة الشيوعية كعقيدة لا يمكن ان تكون - كما يقول الدكتور صائغ - الا بعقيدة اخرى تستطيع ان تؤمن للانسان من الهناء والرفاهية اكثر مما تقدم له الشيوعية .. ولكن الشيء الاساسي الذي نختلف فيه مع الدكتور صائغ هو قوله بان هذه العقيدة ليست موجودة ، وعلى رجال الفكر في الوطن العربي ان يعملوا على ايجاد هذه العقيدة التي يفتقر اليها المجتمع العربي المثالي الذي تطمح الى بنائه القومية العربية لابناء الامة العربية .. وان الفراغ العقائدي قائم بتركه غموض العقيدة وعدم وجودها .. وشمولها الكلي . بينما نرى نحن ان الوضوح الذي احيطت به القضية العربية - في الوقت الحاضر - لم يسبق له مثيل في اية قضية اخرى في التاريخ السياسي .. وان الشعائر التي يمكن ان تروي ظما المتعطشين من جماهير الشعب العربي الى الايمان بمثل اعلى واضح يدعو الى التفاني ويفعل في القلب والضمير ... لم تعد شعائر مزيفة .. واذا كانت هذه الشعائر تزيف على نطاق واسع قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ووجود قيادة جمال عبد الناصر ... فلقد اصبح من الصعب جدا تزييفها بعد قيام هذه الجمهورية ووجود القيادة ...

ولقد اصبح الطريق واضحا جدا ... وكل محاولة من شأنها ان تشوه حقيقة هذا الطريق ، وتطمس معالم وضوحه بالابهام والغموض انما هي محاولة مجرمة تسيء الى القضية العربية وتجرها الى الوراء وتعيق سيرها وتقدمها المحتومين ... فقيام الجمهورية العربية المتحدة ليس عاديا في التاريخ.. واقل ما يقال فيه انه بعث للامة العربية تمخض عن نضال الشعب العربي وكفاحه الطويل الذي ما زال يعمل له منذ وجد التاريخ ... وكذلك قيادة ناصر ، ليس وجودها شيئا عاديا ، او حادثا كبقية حوادث التاريخ البطولي ، وانما هي نتيجة عميقة لتفاعل القدر مع التاريخ الذي لا يتم الا في كل عدة قرون مرة واحدة .. وهذا يعني ان الطريق الذي تسير عليه الجمهورية العربية المتحدة بقيادة ناصر انما هو طريق بعث الامة العربية الذي انتظرته الاجيال مدة طويلة وناضلت من اجله جماهير الشعب العربي نضالا مريرا ... ولانه تفاعل القدر مع التاريخ فقد تحتم على كل عربي مخلص لعروبته ، ومؤمن بحق امته بالحياة الحرة الكريمة ... ان يعمل للحفاظ عليه لانه يمثل كيانه الذي ليس شيئا اخر غير جزء من هذا القدر ... وجزء من هذا التاريخ ... ومن المعروف ان مادة هذا البعث العربي ليستغير النضال الشعبي الذي قدر ان تكون طليعته -هذه المرة- جماهير الشعب العربي في مصر وسورية التي آمنت ان ثمرة النضال هي - حتما - الوحدة العربية الشاملة التي ان تحققت اليوم بين قطرين عربيين متحررين فستتم غدا - لا محالة - بين الاقطار العربية الاخرى التي تسبق غيرها الى التحرر والاستقلال ... ومن هنا يتضح لنا دليل اخر على ان القضية العربية وحدة قائمة في ذاتها لا يمكن تجزئتها اذ نلاحظ ان الشعب العربي قد ربط ربطا اصيلا وعميقا بين وحدته وبين تحرره من الاستعمار وفساد الاوضاع في الداخل ... لان الوحدة من جهة والاستعمار وفساد الاوضاع في الداخل من جهة اخرى ، لا يلتقيان ، والسبب بسيط جدا : فالوحدة تعني موت الاستعمار وخنق الفساد لانها تعني التحرر من هاتين الافتين والقضاء عليهما ... والمعروف ان اعداء الشعب العربي في الداخل اشد خطرا على قضيته من اعدائه في الخارج لان ابناء الوطن الذين يبيعون انفسهم وضمائرهم للاجنبي ويخرجون بالتالي عن ارادة شعبهم مضحين باغلى المصالح والاماني القومية في سبيل مصالحهم الخاصة ، هم خطرون بقدر مايحسبون انفسهم على القضية .. وقد قدر للامة العربية - بما لها من اصالة وعمق - ان ينحصر هؤلاء الخونة والعملاء في حفنة صغيرة من الحكام الواعين في عدائهم للوحدة ، وقلة من الحزبيين المنحرفين الذين خدعوا الشعب يوم كان جاهلا ان طريق النضال الذي انتهى الى الوحدة والتحرر ، ينتهي بداهة الى الاشتراكية .. وان الوحدة بدون تحرر ، كالتحرر بدون وحدة يبقى ناقصا ، وان التحرر بدون اشتراكية ، كالاشتراكية بدون تحرر تبقى مشوهة بكون وجودها مهددا دوما اذا لم تحافظ عليه بالرباط الروحي الذي هو الوحدة ..

وهكذا نصل الى القول بان القضية العربية التي يعتقد البعض خطأ انها غامضة الملامح ، انما هي غاية في الوضوح ، وهل اوضح

من القومية العربية المتحررة التي تعرف اعداءها من مستعمرين في الخارج ، وخونة وعملاء وانتهازيين في الداخل ؟؟ وان الطريق الذي اعتبروه مبهما ليس اوضح منه طريق : وهل اوضح واجل من نضال الشعب العربي في الجزائر وعمان والعراق من اجل الحرية والاستقلال ؟ وان العقيدة ذات المحتوى المفهوم ليس غير الاشتراكية العربية التي تحرر الانسان العربي من جور الاقطاع ، وظلم الرجعية ، وتؤمن له حدا كافيا من العدالة والرفاهية ..

ان الفراغ العقائدي المزعوم تستطيع – على ما اعتقد – ان تملأه الوحدة .. والحرية .. والاشتراكية .. وان العقيدة التي تستطيع ان تجابه الشيوعية ، وتقاومها ، وتقضي عليها هي الاشتراكية العربية التي انتقلت من حيز القول والنظريات الى ميدان التطبيق والواقع .. وفي جمهوريتنا – لو اتسع المجال أمثلة كثيرة تأتي برهانا صادقا واكيدا على نجاح الاشتراكية ، ومدى ملاءمتها للواقع العربي ، وانسجامها مع اهداف الشعب العربي في الوحدة والحرية ..

اما انتحال العقيدة صفة الشمول الكلي ، فاذا كان المقصود بها الزعم بامكانية قيام الوحدة بدون التحرر ، والقدرة على التحرر دون توحيد النضال ، وايجاد الاشتراكية بعد قيام الوحدة او بدون التحرر : فاننا نقول بان امكانية القومية العربية على البقاء انما تكمن في هذا الشمول الكلي الذي ربط ربطا قويا وعميقا بين الوحدة والتحرر والاشتراكية ... وان محافظتها على وجودها وانقاذ الانسانية كلها انما يتصل اتصالا اصيلا بهذا الترابط العميق بين مقومات القومية العربية هذه ... وان اية محاولة للفصل بين مرحلة واخرى انما هي محاولة تجزئة للامة ذاتها ...

اما النظرة السطحية التي يبدو للبعض فيها سبق الوحدة للحرية او هذه للاشتراكية وترجمته انفصالا يمكن ان تتحقق الغاية بدونه ، فهذا وهم ما بعده من وهم ، اذ ان من البديهي ان التطبيق لا يأتي دوما صادقا كل الصدق ، متفقا كل الاتفاق مع الخطة والتصميم الموضوع له ، فأحيانا يرجح مطلب على اخر ، وتكون الظروف في بعض الاحيان سببا في هذا التفاوت بين مطلب واخر لا يجوز الفصل بينهما ولا التراجع . فالاشتراكية ليست ارجح من الوحدة ، والوحدة ليست افضل من الاشتراكية ، ولا يمكنها ان تحافظ على ديمومتها ان هي استغنت عن الاشتراكية وابتعدت عنها .. وفي التاريخ وحدات كثيرة قامت على اساس رجعي اقطاعي تعصبي .. وعلى اساس الاستغلال ، واحتقار الفرد والمواطن ،والحرية .. يحدثنا عنها التاريخ بانها فشلت جميعها ، لان النظر الى الوحدة كصنم يستطيع – لوحده – ان يحقق رسالة الامة ليس صحيحا ، ولا مضمونا ،ان لم نقل انه اسطورة وخرافة .. وكل وحدة لاتظهر ملامحها منذ البداية يكون نضال ابنائها مشلولا عاجزا عن تحقيق الغاية والوصول الى الهدف – ولقد ظهرت هذه الملامح في حركة البعث الثورية النضالية عندما اعلن منذ البدء ارادته في بعث امة حرة كريمة تؤمن بالانسانية والقيم العليا .. لها رسالة .. رسالة خير للانسانية جمعاء .. ملامح هذه الحركة الثورية النضالية هي : الوحدة .. والحرية .. والاشتراكية ..

ميشيل جرجوس

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون ٢٢٩٢١

«الضوء الرمادي» والقضية العراقية

بقلم ابراهيم ونوس

.. لم نر مفكرا او صحفيا من مفكرينا يبحث قضية الثورة العراقية وملابساتها وما احاط بها من غموض وتعمية ممن عندهم الاطلاع على امورها وممن عاشوا داخلها وشاهدوا بأعينهم جل حوادثها او حتى الذين لديهم القدرة على الاستنتاج والتعمق من القوميين العرب في كافة اقاليم الوطن العربي على مستواها الواقعي والجدي .

.. وكل ما سمعناه او قرأناه او خضنا الحديث فيه او استنتجناه كان غموضا يلف القضية العراقية ويزيدها ابهاما ويعطينا افكارا وصورا مشوهة عن القوميين العرب في العراق اقل ما يلصق بذهن المرء منها «اللامبالاة» والجبن والغباء السياسي والثوري وعدم فهم للقضية التي يعملون من اجلها وغير ذلك مما يفهمه الانسان العادي. وهذا بالتأكيد ما يريدنا الاخصام في الطرف الحاضر ان نعرفه . وعندما اقول الاخصام اقصد الثلاثي الجديد : الشيوعية والاستعمار والصهيونية . وكأن كل ما يهم القوميين العرب هو الحماس والفرح في بدء الثورة . ثم الوقوف امام رصاص وسكاكين وحبال الشيوعيين مكتوفي الايدي .

.. أهذه صورة القومي العربي في العراق ؟.. أهذه صورة افراد الحزب الوحيد في الوطن العربي الذي يتبنى القضية العربية ككل قومي واجتماعي « حزب البعث العربي الاشتراكي » صاحب المدرسة الثورية المعروفة ؟ أهذه صورة المناضلين العرب في العراق الحبيب ؟ . وكأن العرب في العراق أقل عقيدة وشجاعة وفهما للقضية العربية منه في كافة الوطن العربي ..

.. صحيح ان الثورة العراقية فاجأت الجميع حتى اسكرتنا وتركتنا نعيش احلامنا عذابا طروبة . ولكن شعبنا كان اكثر تحفزا مع البهجة والفرحة . لم يتم لكي يظل حالما . وانما كان يعد العدة لشيء ضخم . ووقف في كل الجبهات يقرر المصير العربي الواحد . ولم تعمه فرحة ثورة العراق ولم يستكن الى الدعة والسذاجة « ونظم الشعر في الحبيبة » ان هذا ليس من المستوى البطولي في شيء . ولن يكون ابدا مستوى قيادات الشعوب المؤهلة للنجاح من هذا النوع . البطولة العربية في ظرفها الحاضر ان تشعر انك تحمل آلام امتك على كاهلك وتحس بالثقل وعظم الحمل . البطولة حتى خلال نظمك الشعر . ان كنت شاعرا حاملا السيف لتحمي الشعب العظيم الذي خلقت للعمل من اجله . لا تترك هجينا ضعيفا في الميدان يدوس قيمك . ويصهر جهادك . ويقضي على ثوريتك واصالتك . البطولة يقظة وانتباه. البطولة اشياء كثيرة على العربي حملها حتى نهاية ايامه في الحياة .

.. كانت بطولة حقة عربية صميمة بطولة الشواف . تذكرنا ببطولة الغافقي وقتيبة بن مسلم الباهلي وصلاح الدين الصباغ . وليس كما صورها « احد » من مر على عدد كبير من سجون العراق بعد ثورة الشواف وادعى انه رافقها وسمعناه يحاضر عنها في احدى المناسبات . وعن المستوى البطولي للقومي العربي في العراق . حتى حسبنا ان القوميين العرب هناك ليس لديهم قيم يقاتلون من اجلها . واصبحنا نتساءل: لماذا يقاتلون ويقتلون اذا ؟ ثم قال امام عدد من الاشخاص العاملين باخلاص في الحقل القومي العربي باللهجة العراقية : « الشواف سكير اهوج » ثم قال عنه بعد فترة في تحقيق صحفي نشرته جريدة عربية واسعة الانتشار:

« انه بطل ثائر » بعد ان اعطاه صورة هزيلة خلال التحقيق الصحفي المذكور . فكيف نأمل من مثل هؤلاء اعطاءنا المعنى الحقيقي لبطولة القومي العربي بالعراق ؟

انها صورة زائفة اذا تلك التي نسمعها . ان البطولة العربية لم تظهر كما ظهرت بالعراق . لا فرق بينها وبين بطولة الجزائر وبور سعيد . انها تأتي من نبع واحد عذب صاف . وانما لم يتح لنا من يسجلها . من يرسمها . من يجسمها بحقيقة وامانة . لا كما صورها لنا الاستاذ مطاع الصفدي في قصة « الضوء الرمادي » وهو الذي عهدناه قاصا قوميا منذ « صفعة سوط » .

نحن لا نناقش الاستاذ الصفدي في الاسلوب والشكل والمضمون وبناء القصة الموضوعي . ولكننا نناقش الفكرة التي بنى عليها صورة البطولة للشباب العربي في العراق . وكأنه ينقل صورة لانباء العراق عن الوكالات الاخبارية العدوة . ولولا ثقتي بعروبة الاستاذ الصفدي لقلت : الانباء التي رسمت في موسكو .

.. ولعل قارىء « الضوء الرمادي » يشعر ان الكاتب اعطى للمرأة العربية في العراق صورة بطولية فذة ونادرة . الا بين النساء العربيات وقصة جميلة ورجاء ليست ببعيدة . والحقيقة ان بطولة المرأة تطغى في حوادث العراق الاخيرة على غيرها . فهذه حفصة العمري بنى عليها الشاعر الكبير سليمان العيسى قصيدة ملحمية رائعة تشبه الى حد اخت بطل « الضوء الرمادي » حتى كأنها منقولة عن حادثة واحدة . مما يدل على ان فتاتنا العربية تملك اللفة التي تجعلها في مصاف رجالنا . والمرء يلاحظ ان هناك خطة مرسومة من قبل ذكاء خارق لتشويه الحقائق ومحو البطولات العربية في العراق ، واظهار اولئك الشباب الثوري المقاتل بعنف ولا هوادة بمظهر السذاجة والبساطة والشاعرية الحالمة على شواطىء دجلة ، تاركين دفة سفينة الثورة العراقية « للافاعي » .

.. لقد جعل الاستاذ الصفدي بطله يتنبأ بالمصير على لسانه قبل ثورة العراق بزمن : « .. واما نحن هناك فما زلنا طاقة كامنة كبرى . طاقة تخيفني ستجرف نفسها وابطالها . ستتحول ضد ذاتها ان لم نستطع قيادها وتوجيهها في الوقت المناسب » .

.. ان من يقرأ هذه الكلمات يشم منها رائحة المستقبل بالنسبة للقوميين العرب . وهذا التقدير الظاهر لا يمكن ان يصدر عن انسان بهذه الدقة التي ظهرت بعدئذ . الا بعد ما حصل بالعراق ما حصل . نتيجة لغموض التنظيم السياسي . ومفاجاة الثورة . ووجود خطة شاملة لدى الخصم « الشيوعيين » ومن لف لفهم تقودها من خارج لهدف بعيد تضيع امامه اقوى العوائق ما لم يباده بتنظيم اقوى ويجابه بصلابة ليتحطم بها ... الفشل ليس بتحول الطاقة القومية ضد ذاتها . ولا بجهل للمسائل السياسية . او سذاجة وطيبة . وانما كان بالوثوق باشخاص ربما كانوا هزيلين امام فكرتنا الصلدة وعقيدتنا الصريحة .

.. هذا شيء قليل من كثير يمكن للمرء استنتاجه . بطولة نادرة اصيلة تضيع . حقائق تجابه خداعاً . مثل تقابلها دناءة وخسة . ثم يقضي على البطولة والحقيقة والمثل وينتصر اعداء العراق العربي . والاسباب التي يستطيع المرء ابداءها نتيجة لهذا الانتصار كثيرة .. يصعب بيانها الان .

.. وبعد نكبة القوميين العرب في العراق ما الذي حدث ؟.. كانت ثورة الشواف ردة قومية وجواباً للتحدي . ومحاولة انتحارية للقضاء اولا على المؤتمرين الشيوعيين في الموصل . ومن ثم ثانيا القضاء على حكومة عبد الكريم قاسم . والمصادر الصحيحة التي نأخذها عن ثورة الشواف هي من الذين خاضوا المعركة الى جانبه وصوروا بطولاتها . لا كما صورها صحفيون مدعون مغرضون .

والقوميون العرب .؟ ما هو عملهم لمناصرة ثورة الشواف في جميع انحاء العراق ؟ سيناصرونها بالدم . وفعلا فقد قدموا الدماء الكثيرة عن رضا في سبيل نصرتها . فالى اي مدى استطاع الاستاذ الصفدي ان يظهر لنا انتصار القوميين العرب لثورة الشواف العربية واسلوبهم العملي الجديد !

.. هل نزع الاستاذ الصفدي عن بطله الصفات السابقة ؟ - والتي سببت الفشل - شاعرية ، سذاجة ، لا مبالاة في بعثه الجديد لعمل ثوري جديد .؟ لقد تركه وهو الذي ينتظر منه ان يؤازر بعد حين ثورة الشواف في شوارع بغداد ، يعاود قراءة قصيدة قديمة له . حتى وكأنه يحاول ان يفهمنا سلفا تكرر الفشل . وكأنه يقول : انا ما زلت ساذجا ، لا مباليا شاعرا . حتى اخته بدأت تهزأ من بطولته الشعرية بعد المأساة وتسلم الشيوعيين الحكم . ولم يستطع ان يدافع عن نفسه فاتهم اخته بالغيرة من ذات « العيون الرمادية » .

..لو ان الاستاذ الصفدي جعل من بطله حصانا عربيا اصيلا كبا ثم نهض من كبوته بعزم وتصميم جديدين ، لو انه اظهره بمظهر من تعثر ثم قام من عثرته اكثر قوة ، منتهجا خطة مرسومة اكثر ثورية تساعده على النصر او الموت لحق علينا التفاؤل والصمت . وانما اشعرنا ان بطله ظل كما هو - والخطأ سابق - وهو على اعتاب عمل ثوري جديد فيه تحقيق آمال امة كبرى .

..مستوى البطولة العربية في العراق لم تصورها هذه القصة . انما شوهتها ومسحت وجهها الحقيقي الرائع وجعلتها ضبابا . اما الحقيقة بطولة شعبنا العربي في العراق فستظهر جلية ناصعة ولو بعد حين .

ابراهيم ونوس

الاقليم الشمالي - سلمية

حول « مدينة بلا قلب »

بقلم غازي القصيبي

كتب الاستاذ محي الدين محمد بحثا قيما عن «مدينة بلا قلب» للشاعر حجازي ، بدأه باستعراض ما قاله رجاء النقاش ، وفجأة وجدناه يصدر حكما راسخا على الديوان « ليس الا محاولة ذاتية جدا وشخصية جدا وموجهة بالدرجة الاولى الى التعبير عن الاحساس النامي في قلب الريفي » لم ينكر احد ولا الشاعر نفسه ان الديوان موجه الى التعبير عن الاحساس الريفي .. ولكن الموضوع اعمق من ان ينتهي عند هذا الحد ... ان الغربة واحساس الريفي ليست الا المظهر . اما الجوهر فابعد من ذلك .. انه يمثل معالم حياة الجيل العربي الطالع ، كل ما يقاسونه من جفاف وقسوة وقلق .. نفس القلق الذي وصفه الناقد بانه (ينشلنا من رياضيات العقل والدراسة والرصانة النظرية ليغيب بنا في حصر هائل تكونه دوامة اسئلة كثيرة مثارة) واذا كان الناقد يقرر ان الديوان لايمثل الا الشاعر (والريفيين الاخرين الذين يفدون على الازهر والجامعة) فلا اعتقد ان الكثيرين يشاطرونه الرأي .. لقد وجد جميع الرفاق من الشباب انفسهم على صفحات الديوان .. وجدوا ضياعهم وغربتهم وتحرقهم الى الحنان .. وجدوا حيرتهم المكتومة تنفجر في ابيات دامعة .. رغم ان احدا منهم ليس ريفيا ولم يهاجر من قريته ..

رغم انهم ولدوا جميعا في المدينة فالمسألة ليست مسألة ريف او مدينة انها مسألة جيل ... والخوف هنا ليس خوف الريفي من الحضارة او فزعه من الترام وانما هو الخوف من المدينة .. من ذلك العالم الغريب المجهول الذي تختلط فيه المثل بالذنوب . ان الفرد منا ينطلق الى ذلك العالم فتبهره انواره ويقف مشدوها امام صراع لا ينتهي .. واقدام كثيرة تكاد تسحقه .. ويشعر بالوحدة .. والجوع .. والضياع ... يتحرق شوقا الى الحنان .. ولكن اين الحنان في مدينة بلا قلب ؟! .. هذه هي حقيقة الديوان ولم يبالغ رجاء حين قال انه « وثيقة تشهد على عصرنا وتصور جيلنا » واذا كان الناقد لم يفلح في ان يرى نفسه على صفحات الكتاب فلعل السبب الوحيد انه يعيش بمعزل عن آلامنا وآمالنا .. او ان ثقافته ودراساته ـ الغزيرة كما يظهر ـ حددت له مفهوما معينا للقلق فما انطبق عليه كان قلقا (هائلا) كما يقول .. والا فالامر لايعدو انيكون محاولة ذاتية جدا وشخصية جدا .. ولعل الناقد قد احس بقسوة حكمه وارتجاله فعاد يعتذر بانه لا يمكن حتى لشكسبير او اليوت الخ .... ان يصبح شاعرا عظيما من اول عمل فني .. والقارىء العربي الذي وجد في حجازي لسانه الناطق لا تهمه نتيجة المقارنة.. ولا يهمه كون شاعرنا عظيما او مجرد حقيبه متخمة بالوعود .. بقدر ما يهمه انه اهتدى اخيرا الى شعر طالما افتقده .. شعر يصور خلجاته واحساساته التي ضاعت في طوفان من روائع شكسبير واليوت الخ... ولا ادري لماذا داخلت الرقة قلب الناقد فعاد يطمئننا ان الشاعر من اكثر الشعراء مهارة وارحبهم افقا واعمقهم نفسا .. وان ديوانه ، باستثناء احدى القصائد ـ يناطح الناقدين والحساد .. الحمد لله وشكرا ياسيدي ..

وبعد ان يفرغ الناقد من حكمه يقسم الديوان الى اربع مراحل مرتبة حسب تاريخ نظمها :

المرحلة الاولى : بدأ بقصيدة (الطريق الى السيدة) فقرر ان احساس الشاعر ليس الا (احساسا ضيقا بالوحدة والفقر والجوع) ولست ادري لماذا مر على هذه النقطة مرور الكرام ولم يقرر ان عصرنا براء من هذا الشعور .. وانه شعور خاص بالشاعر (والريفيين الاخرين الذين يفدون على الازهر) غير انه لم ينس ان يظهر لنا مدى اطلاعه فاتحفنا بابيات لشاعر امريكي فقرأناها شاكرين .. وبعد ذلك نفاجأ بحكم خطير (ان المصرية سمة تظهر في قصائد حجازي القديمة وتختفي كلية من قصائده الحديثة بسبب ارتباطه المذهب السياسي وسوف يؤثر ذلك في انفعالاته بشكل يخشى منه) واذا صرفنا النظر عما في هذا الحكم من نظرة اقليمية ضيقة تتنافى مع نظرة الجيل الذي يصر الناقد على ان حجازي لايمثله .. اذا صرفنا النظر عن هذا فلا ادري لماذا سيؤثر المذهب السياسي في انفعالات الشاعر بشكل يخشى منه ؟! ثم ان الناقد ينتقد المحاولة الذاتية جدا والشخصية جدا .. فلماذا يصر على السمة المصرية .. المصرية جدا ؟! لعل علم هذا في دراسته القيمة لديوان اغنيات مصرية .. تلك الدراسة التي زف الى القراء بشرى فراغه منها .. ينتقل الناقد بعد ذلك الى (مذبحة القلعة) ولا تهمني الان مناقشة ارائه فيها فقد تكون صائبة ولكنني اعجب من اصراره على مقارنة شعر حجازي بشعر اجنبي لينتهي الى ان حجازي يقف امامه عاجزا عن ان يصور لنا حتى الالم ..

المرحلة الثانية : بدأ الناقد فقرر ان العام السادس عشر تنتمي (الى ضباب اللاتحدد والرمانتيكه البالغة) وهذه القصيدة لم تعد بحاجة الى مزيد من الكلام عنها بعد ماقاله رجاء .. ثم يستنكر الناقد تحذير الشاعر من العودة الى تلك الايام والسبب (انها دعوة متاخرة فقد اجتزنا كأصدقاء للشاعر تلك السل بمسافة بعيدة !!) أفادك الله ..

ويقتضي الانصاف ان اقول ان الناقد وفى القصيدة الاخرى (الى اللقاء) حقها كاملا وان كان لم ينس ان يقول ان ساندبورغ سبق الشاعر في الدعوة الى نبذ المدنية والعودة الى القرية .. والناقد لايطلق الكلام جزافا بل يحدده لفائدة القراء فيعلق ان ذلك في قصيدته الجميلة (البراري) ..

المرحلة الثالثة : قال الناقد ان قصيدة (قصة الاميرة والفتى الذي يكلم المساء) ليست مطلقا حكاية تناقض بين السلوك والعقيدة .. بل (انها رمز حي للدينة الجافة التي تلفظ النقاء العفوي وتتمسك بالمادة) ترى هل قال رجاء شيئا غير هذا ؟.. ان العقيدة في النهاية تعني الايمان .. والايمان هو النقاء .. النقاء العفوي .. والسلوك بدوره ينتهي الى ان يكون تمسكا بادة .. ونحن هنا امام شاعر يؤمن بالنقاء .. ثم يفاجأ بفتاة تتمسك بالمادة .. فيصطدم السلوك بالعقيدة او بالنقاء العفوي ..

ومن الغريب حقا ان يتمسك الناقد في كل لحظة ان كل ماقاله الشاعر معاد مكرور فـ (جعلت عيداني مرايا) ذكرته باغنية شعبية اردنية .. وتجربة الشاعر سبقه اليها تاج السر الحسن .. اما اغنية انتظار ففيها (شيء) من اغنية ولاء لصلاح عبد الصبور ولست

ادري ماهو هذا الشيء اللهم الا ان كان كلمة (محملك) التي ترددت في القصيدتين .

وينتقل الناقد الى قصيدة عن سوريا فيندد بالالتزام السياسي وما يفعله بالشاعر ونغمته واوزانه .. لماذا ياسيدي ؟ مادخل الالتزام السياسي في قصيدة قيلت عن سوريا ؟ هل تعتقد ان حجازي حين قال قصيدته كان يعتقد انه يؤدي واجبا مفروضا عليه ؟.. كلا .. ففي الفترة التي كانت سوريا تعاني خلالها من الحصار .. كان جميع العرب يعيشون معها اروع لحظات كفاحها .. واذا قال الشاعر قصيدته في هذه الظروف فلانه يحس ان بيته مهدد.. ان اخته ورفاقه وتاريخه يتعرضون للخطر ..

واذا لاحظ الناقد ظهور تعبيرات خطابية منشأها كما قال رجاء النقاش اتصال الشاعر بالجماهير فهذا لايعني ان القصيدة فقدت كل قيمتها وان على القراء ان يذهبوا الى سقر !.. ماذا تريد ان تقول ياسيدي ؟ هل يحيا الشاعر بلا عقيدة .. بلا مذهب ، بلا مبدأ .. هل يكتم كل ماتثير العروبة في نفسه من احاسيس مخافة ان ينبري له ناقد مفضال فيتحسر على مايفعله الالتزام السياسي بالشعراء ؟؟

المرحلة الرابعة : يبدو ان ثقافة الناقد تثقل كاهله .. فهاد ينقد تكرار الافكار ويعزوها ببساطة الى قلة المحصول الثقافي .. ولا اعتقد ان المحصول الثقافي في نظره يعني اكثر من قراءة روائع ساندبورغ .. خصوصا وقصيدته الجميلة (البراري) !..

ويتحدث الناقد بعد ذلك عن النثرية :

والسيف اذا دخل المعركة الباطلة تبلد

صار عصا في كف الملحد ..

ثم يقول (ولا ادري نوعية هذا التشبيه .. ولا نعرف في التاريخ عصا متحوله سوى عصا موسى) والواقع انني استغربت ان يقف ناقدنا المزود بخزائن الثقافة حائرا في فهم (نوعية) التشبيه .. ان الشاعر يتكلم عن الكلمة ويدافع عنها ويهاجم اولئك الذين يدنسون كرامتها ويزجون بها في ميادين لاتليق بقدسيتها .. ان الكلمة سيف .. فاذا دخلت معركة باطلة تبلدت وتحولت الى عصا .. ترى اي غرابة هنا ؟ واي علاقة بين هذا وبين عصا موسى ؟!

والناقد بعد ان صال وجال عاودته رقة القلب مرة اخرى فقرر ان (بغداد والعرب) عمل فني جيد جدا ولعله نسي ماقاله عما يفعل الالتزام السياسي بالشعراء ونغمتهم واوزانهم .

والان .. ارى لزاما علي ان اعتذر للناقد الكبير ، واقر انني معترف بضالة ثقافتي وعجزي عن مناقشة آراء صدرت بعد دراسة عميقة وبحث مستفيض .. والواقع انه ليس من حقي مطلقا ان اعقب على الناقد من وجهة النظر الفنية ، كل ماهنالك انني لاحظت ان الناقد يصر على ان الشاعر بعيد عن جيلنا فاحببت ان اقرر انني كفرد من هذا الجيل ارى فيه نموذجا صادقا لحياتي وحياة رفاقي .. فدفاعي ليس دفاعا عن فن او عن شعر بقدر ماهو دفاع عن ملامح حياتنا العربية التي طالعتها في ديوان حجازي .

واخيرا .. اذا كانت تجربة الكتابة عن ديوان الشعر - كما يقول الناقد - اسخف بكثير من تجربة الرسم باصابع القدمين ، فان تجربة الكتابة عن الكتابه ستكون اشد سخفا من هذه وتلك .

ولكل من الشاعر والناقد احترامي وتقديري .

غازي عبد الرحمن القصيبي
كلية الحقوق - جامعة القاهرة

النشاط الثقافي في الغرب

الولايات المتحدة

معركة « عشيق الليدي شاترلي »

في اوائل ايار الماضي ، رفض البريد الاميركي ان يوزع ٢٠٠٠٠ بيان ارسلها احد نوادي الكتب يدعو فيها اعضاءه المشتركين الى شراءالنسخة الكاملة من رواية د.هـ. لورانس الشهيرة : « عشيق الليدي شاترلي » التي نشرتها جديثا للمرة الاولى في الولايات المتحدة دار « غروف » للنشر .

وبعد اسبوع ، صادر مراقبو البريد ١٦٤ نسخة من الكتاب . اما الاسباب فكانت :

« ان مزايا هذا الكتاب الادبية تغطيها غزارة المقاطع والعبارات الداعرة القذرة التي تجعل منه في مجموعه كتابا داعرا قذرا .

« وان قصة « عشيقة الليدي شاترلي » تقتصر اساسا على حكاية العلاقات المعيبة التي يوحيها العنوان ، اي علاقات الليدي شاترلي غير المشروعة . ويورد الكاتب عبر القصة الوانا من الاوصاف المفصلة الى ابعد الحدود عن العمل الجنسي وعن الافكار الانفعالات التي يشعر بها العاشقان قبل العمل وفي اثنائه وبعده ، وعن حركاتهما الجسدية ـ الداخلية والخارجية ـ في اثناء العمل ، وعن الجهود المتصلة التي تقوم بها الليدي شاترلي لتبلغ اللذة القصوى ، والطرق التي تلجأ اليها لهذه الغاية الاحاسيس التي تشعر بها .

« ان جميع هذه الامور تتيح القول بان الكتاب الذي نشرته دار « غروف » يشكل عنصرا داعرا ، شبقا ، فاجرا وقذرا يدخل تحت الفصل ١٤٦١ ، مادة ١٨ من قانون الجزاء ، ولا يمكن ان توزعه دائرة البريد »

وفي ١٤ ايار عرضت القضية على المحكمة الادارية لدوائر البريد برئاسة شارلز ابلارد . وكان يمثل الدوائر سول مانديل ، ويمثل دار « غروف » السيد رامبار الذي ذكر انه اختار السيدين مالكولم كاولي والفريد قازان ، اكبر ناقدين ادبيين في الولايات المتحدة، بصفة شاهدين .

وهذه مقاطع من الاستجواب الذي قدمه رامبار ، وماندیل ومن اجوبة الشاهد كاولي .

رامبار ـ هل يمكن ان نجد في مؤلفات لورانس فلسفة اجتماعية او اخلاقية منسجمة ؟

كاولي ـ بكل تأكيد ، واذا كان لنا ان نلخص هذه الفلسفة بكلمة ، فاني اصفها بانها الفلسفة الطبيعية . لقد كان لورانس يعتقد بان الجسم والروح ينبغي الا ينفصلا ، خلافا لما هما عليه اكثر فاكثر في ظروف الحياة الاصطناعية لحضارتنا الالية ، وان حل مشكلاتنا يتم بالرجوع الى الانسان « الطبيعي » . انا واثق من اني الخص بصورة سريعة ، ولكن بوسعنا ان نرى هذه الفلسفة وهي تنمو ، كتابا بعد كتاب ، لغاية دينية .

رامبار ـ ولكن هل نجد تعبيرا لهذه الافكار في الرواية ، موضوع الدعوى ؟

كاولي ـ نجدها بصورة قوية . ان « عشيق الليدي شاترلي » هو اخر رواية للورانس ، وقد حاول ان يلخص فيها كل ماقاله من قبل .

رامبار ـ هل ترى ان اوصاف العلاقات الجنسية الموجودة في الكتاب مرتبطة بالتعبير عن هذه الافكار ؟

كاولي ـ مرتبطة كل الارتباط . بل هي في صميم الموضوع، لان لورانس يحاول ان يدافع في كتابه عن الاكتمال الجنسي في الزواج . وليس لوصفه للعلاقات الجنسية اي هدف اخر .

رامبار ـ ان الاتهام يتجه الى بعض العبارات المستعملة في الكتاب فهل تعتقد ان فيه عبارات لايتفق استعمالها والغاية التي حددتها ؟

كاولي ـ ليست هناك اية عبارة من هذا القبيل . وقد ذكر في



د.هـ. لورانس

المقدمة ان لورانس قد كتب روايته ثلاث مرات . ولم تكن النسخة الاولى التي نشرت هنا تحتوي اية كلمة داعرة من الكلمات التي نجدها في النسخة الثالثة . ولكن لورانس شعر – كما تدل مذكراته والوثائق التي نملكها – بانه قد مر بجانب ما كان يود ان يعبر عنه . ولهذا ، ولغايات فنية واخلاقية ،اضافهذه الكلمات في النسخة الثالثة من مخطوطته .

رامبار – كم مضى عليك وانت تدرس الادب الانكليزي والاميركي ؟

كاولي – اربعون عاما .

رامبار – هل لاحظت ، في هذه الفترة ، تغييرا في طريقة سردالفصول الجنسية ؟

كاولي – سأقسم جوابي قسمين، الاول يتعلق بمقاييس الاخلاقية في الادب ، كما هو الحال في المجلات ، والثاني باللغة نفسها . وقد حدث تغيير كبير في الميدانين . فحين نشرت رواية « عشيق الليدي شاترلي » عام ١٩٢٨ كان لورانس يشعر انه ، في الحميا الدينية التي كان يدافع بها عن نظريته ، يشجب آثام مجتمعه . وانا اعتقد انه ليس في « عشيق الليدي شاترلي» ما لانجده في مجلة « سيدات البيت » الاميركية . ان فكرة الاكتمال الجنسي في الزواج اصبحت شائعة . واما اللغة ، فان هناك كلمات انكلوسكسونية تعبر عن اعمال جسمية كانت تعتبر من قبل خاصة بالرجال ولكنها شاعت مع الزمن واستعملت للمرة الاولى في الروايات عام ١٩٢٩ في كتاب « وداع السلاح » لهمنغواي و « اوليس » لجيمس جويس ١٩٣١ .. بحيث اننا لانجد اليوم اية كلمة مستعملة في« عشيق الليدي شاترلي » الا ونجدها في رواية عصرية ذات قيمة .

ثم وجه ماندل ممثل البريد اسئلة اخرى الى الشاهد كاولي :

ماندل – هل تقر بان لورانس، بصفته مؤلفا ، كان مأخوذا بالقضايا الجنسية ؟

كاولي – ان كلمة « مأخوذ » غير صحيحة . فالقضية هي قضية عنصر اساسي من عناصر نظريته ،وهي انه ينبغي ان تقوم علاقات جنسيةسليمة بين الرجال والنساء ، او بالاحرى بين الرجل والمرأة ، لانه لم يكن من مؤيدي الاختلاط المشاع .

ماندل – ان الشخصية الرئيسية ، الليدي شاترلي ، لاتحقق اياكتمال في الزواج ، ولهذا نراها تعقد علاقات جنسية مع الناطور ميلورس ومع الكاتب ماشيلس الذي استقبلته في بيتها ومع شاب التقت به اثناء اقامتها في المانيا .

كاولي – ان ذلك قبل الزواج .

ماندل – ولكن جميع العلاقات التي تمت بعد الزواج وفي اثنائه كانت مع رجال غير زوجها . فكيف توفق ذلك مع رغبة تحقيق الاكتمال الجنسي في الزواج ؟

كاولي – يجب انندرك ان الكتاب كله موجه الى مالا يجري في الكتاب وانما نحو ماتتوجه اليهامال شخصياته : الزواج – والزواج الثابت مع انجاب الاولاد – زواج الليدي شاترلي واوليفيه ميلورس .

ماندل – ليس في الكتاب مايشير الى انهما سيتزوجان . وانما يكتفيان بابداء الرغبة في ذلك .

كاولي – انهما يعبران عن ارادة عميقة في الزواج .

ماندال – اليس صحيحا ان لورانس يقصد ، بتعليقاته ، الى ان يترك الشك يحوم حول ماسيحدث ؟

كاولي – هذا صحيح ، وسببه العوائق الاجتماعية التي تعارض الزواج. ولكن يتبين من كتابه كله انه ينبغي الا يكون بين الناس مجرد علاقات اختلاط ، والرجل والمرأة مرصودان بعضهما لبعض ويمكنهما ان يرضى احدهما الاخر ويتكاملا بالتبادل في علاقات الزواج.

ماندال – ولكن كيف تدرج في هذا الاطار علاقاتها مع ماشيلس ؟

كاولي – انها علاقات شقية جدا ، بل هي منفرة ، وعلى هذا الاساس صورها لورانس واعتبرها مصدر شقاء .

ماندال – اليس من الصحيح ان الليدي شاترلي اعتقدت ذات لحظة انها تحب ماشيلس ؟

كاولي – صحيح ، ولكنها اكتشفت بعد ذلك انها كانت مخطئة .

ماندال – سؤال اخر . حين تبدأ العلاقة بين الليدي شاترلي وميلورس، اتعتقد ان الحب يقوم بينهما وان هذا يبرر تلك العلاقة ؟

كاولي – ان هذه العلاقة تتحول سريعا الى علاقة حب عميق ، ولهذا يقرها لورانس ، ويعتبرها كانها زواج حقيقي ، سواء استطاع الشخصان ان يتزوجا رسميا ام لا .

ماندال – هل هي طريقة ادبية مشروعة ان يعمد ، لتصوير هذا الحب، الى وصف علاقاتهما الجنسية بكل تفاصيلها ؟

كاولي – اعتقد ان هذه الطريقة كانت مفيدة من اجل الهدف الذي كان لورانس يسعى اليه ، وهو ان يمزق جميع الحجب ، وان يجعل علاقات ابطاله واقعية ، مجردة من كل عاطفية ، وفي الوقت نفسه حارة وعميقة .

ماندال – هل توافق على ان لورانس لم يحذف على الاغلب اي تفصيل في وصف العمل الجنسي ؟

كاولي – اعتقد ان هذا الامر يخرج من صلاحية الناقد الادبي ويتعلق بالاحرى بالنقد الجنسي .

ماندال – ولكن اليس صحيحا ان على الناقد ، لكي يقدر مزية كتاب ما ، ان يهتم بحقيقةمايصف هذا الكتاب ؟

كاولي – بكل تأكيد .

ماندال – فاذا لم تكن تستطيع ان تحدد اذا كان وصف الاحداثصحيحا اي حقيقيا ، فهل باستطاعتك ان تحكم على الكتاب بصفتك ناقدا ؟

كادلي – انني لاافهمك جيدا . لقد سألتني عما اذا كان لورانس قد حذف شيئا . وانا لاادري اذا كان قد حذف شيئا ، ولكن ماأثبته يبدو لي حقيقيا .

ماندال – وهل تقول انه « كامل » ؟

كادلي – ليس هناك ماهوكامل على الاطلاق .

وبعد الاستماع الى الشهود ، رفض القاضي الاداري ان يصدر ايحكم وقرر ان يحيل القضية امام المحاكم العليا والى وزير البرق والبريد .

وفي انتظار ذلك ما تزال دوائر البريد ترفض ارسال الكتاب الى المرسل ليهم بواسطتها .

الاتحاد السوفياتي

المؤتمر الثالث للكتاب السوفيات

**

كان المقرر ان يعقد المؤتمر الثالث لاتحاد الكتاب السوفيات في شهر كانون الاول ١٩٥٨ ، ثم ارجىء الى شهر اذار ١٩٥٩ . وقد انعقد اخيرا في الشهر الماضي في قصر الكرملين الكبير . وقد سبقه عمل تمهيدي كبير اذ انعقد خمسة عشر مؤتمرا اقليميا خلال عام كامل لرصد وضع كل ادب من مجموعة الاداب القومية في الاتحاد السوفياتي . وكانت الصحافة تخصص ، من جهة اخرى ، صفحات كاملة في الاشهر الاخيرة لمنبر المؤتمر ، تنشر فيها الى جانب المقالات التي وقعها كتاب غير مشهورين رسائل للقراء لايعوزها الغموض والابهام يعبرون فيها عن ارائهم وتمنياتهم بشأن المؤتمر والادب ...

ذلك ان المؤتمر الثالث للكتاب انعقد في الجو الذي خلقه النداء الذي وجهه السيد خروتشيف نفسه الى الادباء في شهر شباط الماضي من على منبر المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي . وقد ترددت عبارات هذا النداء ، منذ ذلك الحين ، في خطب اعضاء اللجنة المركزيةوافتتاحيات الصحف والمقالات العديدة المخصصة للمؤتمر . وكان ذلك النداء يصف الكتاب بانهم « معاونون نشيطون للحزب في التربية الشيوعية للعمال.»

وليست الفكرة جديدة في ذاتها ، فقد رأينا الحزب في تاريخ الاتحاد السوفياتي يسهر باهتمام خاص على مصير الادب الذي كان يخشى ابدا تأثيره على الجماهير . واذا كان الادب يتخذ في هذه الفترة اهمية خاصة فذلك يعزى الى ان العالم الادبي قد هزته في السنوات الاربع الماضية التي انقضت بعد المؤتمر الثاني للكتاب احداث ذات اهمية بالغة : « ذوبان الجليد » و « عزل الستالينية » في الادب بعد خطاب خروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، و « النزعة الى المراجعة وأعادة النظر » التي جاءت بعد حوادث المجر والتي ظل اثرها قائما طوال عام ١٩٥٧ ، واخيرا « قضية باسترناك » التي دفعت بهذه النزعة الى الذروة في الخريف الماضي .

وقد تميزت هذه الفترةالمضطربة بعودة تدريجية منظمة الى استيلاء الحزب على قيادة الادب . وبعد ان حكم على فرع موسكو لاتحاد الكتاب السوفيات بانه « غير منظم » فقد تقرر انشاء اتحاد الكتاب للجمهورية الروسية من قبل المراجع العليا . ولكي نفهم معنى هذا التدبير ، يجب الا ننسى ان« الجمهورية السوفياتية الاتحادية الاشتراكية الروسية » وهي العضو الرئيسي في الاتحاد السوفياتي تضم عددا من الجمهوريات والمناطق المستقلة التي تسكنها اقليات قومية . وممثلو هذه الاقليات ، وهم شديدو الاخلاص للحكومة ،هم الذين يملكون الرأي الاول في المنظمة الادبية الاقليمية وهم بالتالي يؤثرون تأثيرا كبيرا في اتحاد الكتاب السوفيات .

فلا مجال للدهشة ، والحالة هذه ، ان تكون الجلسة الافتتاحيةللمؤتمر الثالث التي حضرها جميع اعضاء اللجنة المركزية للحزب تمجيدا وتعظيما لنظرية الاتحاد الادبية . والواقع ان السكرتير الاول للاتحاد قد اشار الى ذلك في تقريره، فقال : « اسمحوا لي ان اشكر بحرارة الحزب الشيوعي ولجنته المركزية وسكرتيره الاول نيكيتا خروتشوف لما قدموه من مساعدة ايديولوجية قوية لطبقة المثقفين ولا سيما لنا نحن الكتاب ، في الصراع ضد دعاة المراجعة واعادة النظر . ان الافكار التي قالها خروتشوفتشكل عرضا هاما بعمقه وقوتهللمبادىء الاساسية لسياسةالحزب في ميدان الادب والفن ومثالا بارعا للتطور العلمي للسياسة التي وضع لينين اسسها .»

والواقع ان ادباء العهد الستاليني لم يكونوا يعبرون خيرا من هذا التعبير عن سياسة الحزب الادبية !

وقد تضمن تقرير سوركوف شكاوي تتعلق بانخفاض المستوى الفني للاثار الادبية ، وبذبذبات النقد وعدم جرأته ، كما تضمن تعبيرا عن ارادة لاتتزعزع لخدمة قضية الحزب ، كل ذلك في هالة من العبارات الضخمة حول الاخلاص للتقاليد الانسانية وللتضامن مع الشعب الخ .. الخ ..

وبعد مناقشات باهتة استغرقت الايام الاربعة المخصصة لجلسات العمل وهي مناقشات لم يشارك فيها اي اديب كبير ، تكلم خرزتشوف نفسه في الجلسة الختامية ليدعو الكتاب بالا يدوسوا رفاقهم « الذين سقطوا ارضا » ـ وهذه اشارة الى بوريس باسترناك . على ان ذلك لم يمنعه من ان يدعو الى ضرورةحماية الاوضاع الايديولوجية للحزب ...

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الجنوبي

ملامح الازمة !!

الحياة الفكرية في القاهرة مقلوبة على رأسها ، وتتنفس بربع رئة .. ذلك لان عنصرا يعتبر من اهم العناصر في تشييد بناء فكري لاية امة متحضرة ، يواجه من المسؤولين ومن الوضع الادبي باللااكتراث، على الرغم من المقدرات الهائلة الموضوعة بين يديه ، والمعطلة للان ، وعلى الرغم من ان الميدان الادبي قد خلا تقريبا من وجوه الكبار الذين سيطروا على الانتاج الادبي منذ بداية القرن .

هذا العنصر الهام هو المفكرون الشباب ..

ومسؤلية هذا الوضع العجيب هي كما يقول الشباب ، مسؤولية الوضع الاجتماعي والاقتصادي والنفس ..

وبذلك امكن لهم ان يخرجوا من الازمة بالقاء تبعاتها على غيرهم !!. واذا ماظل الوضع بهذه الصورة المقلوبة ، امكن لنا ان نتنبأ بعقم الشباب المفكر في كافة انتاجه الادبي ، وتبخر المسؤولية من كل موقف يخوضه .. !!

والمفروض ان نفصل بين نوعيتين من الشباب ،احداهما المجموعة الخالقة ، وهي التي تكتب الرواية والقصة ، والشعر ، والاخرى هي المجموعة الناقدة . والاثنتان تغوصان في مأساة واحدة ، والسم مشترك ، على الرغم من ان شكل المأساة يختلف هنا عن هناك .

فالمجموعة الخالقة تستنكف ان تقرأ ، وتظن ان مجرد الاطلاع عملية بدون طائل ، ولا تهم الا النقاد والناشرين .. تقول ذلك وفي ذهنها مسالة الموهبة والخيال .!! وتظل المجموعة تذوب في سذاجتها والايام تمر ، والسنوات تأكل مواهبهم ، والسطحية تمتص كل انتاجهم ...

اما المجموعة الناقدة ، فبعضها يقرأ ، والبعض يكتفي بمعلوماته الجامعية الثقيلة ، فيظل يدور حول نفسه ، والنتيجة لذلك هي ان يصمت بعد عام واحد ...وانه ليحس بانه قد افرغ حتى اللباب !.

والبعض القاريء يكتب في المجلات الادبية بصفة منتظمة ، ولان هؤلاء اقل من ان يكونوا وضعا بذاته قائما ، او تيارا محددا ، كان مجهودهم أضأل من ان يشارك في عملية التحويل التي هي رسالة الشباب ...

وفي القاهرة اربع مجلات ادبية تصدر بانتظام ، هي الادب ، الرسالة الجديدة ، المجلة ، والشهر ... وباستثناء مجلة الادب التي تعتبر امتدادا لمجلة الاديب المصري في تكلفها وسطحيتها وهزالها ، وباستثناء الرسالة الجديدة التي تنهج نهجا عجيبا في ابراز سمات ادب سطحي وعامي وسمج ، تبقى في الميدان مجلتان يمكن اعتبارهما صوتا لفكر القاهرة . اما « المجلة » فهي المكان الاكثر ترحيبا بالاكاديميين ، فما زالت صفحاتها تغص بالابحاث المدرسية عن تاريخ القباب والمآذن والاضرحة وعن تاريخ آثار بلاد النوبة ، في وقت نحن احوج فيه للمطالبة بتحسين وضعنا الفكري ، واحوج فيه الى تنحية مشاكلنا الثقافية جانبا ... لبناء قيم جديدة .. اما المفكرون الشباب ، فليس هناك مكان افرد لهم الا في مجلة الشهر ...

ومستوى الابحاث والاعمال الفنية التي تقدم لمجلة الشهر ، هو دون المتوسط . اما التراجم فتحتل المكان الاول لانتاج الشباب ..

وصعب جدا بالطبع ان ننتظر من مجتمع مازال متأخرا ان ينجب شبانا بمثل الطاقات الفكرية العظيمة التي للشبان الغربيين امثال جون أو سبورن ، وهولرويد ، وكولن ويلسون . ففي أي وطن غربي يهتم المسؤلون والصحافة والمكتبات الثابتة والمتنقلة ، والمنتديات الادبية ، والناشرون ، والنقاد ، والقراء بنشر وتوزيع واقامة نشاط فكري هائل وميسور لكافة طبقات الامة . فالمسؤلون يقومون العناصر الشابة ، ويفسحون لها المجال ، والصحافة تقدم في كل صباح غذاء فكريا دسما لهم ، والمكتبات تفسح صدرها وترضع هذه المجموعة اكواما مغذية جدا من المؤلفات العظيمة المترجمة وباللغة الاصلية ، والمنتديات الادبية لاتهتم بالتفاهة التي تشغل منتدياتنا ، وترتفع باذهان الشبيبة الى مستوى الوضع الفكري الذي يناقشه بريستلي وهكسلي.والناشرون يتعمدون طبع نسخ شعبية من معظم المؤلفات المقدمة للمطبعة، فلايمكن تقسيم الجمهور الى قاريء وغير قاريء ، بقدر مايمكن تقسيمه الى جمهور لايجد مايقرأ لارتفاع أثمان الكتب ، وجمهور اخر يقرأ بصرف النظر عن اعتبار قيمة الكتاب المادية . واذن فالسوق الادبية مغمورة بالكتب ، والنهم يشبع بمنتهى البساطة واللاتعقيد.. والنقاد من جانبهم يسهمون في ملاحظة اقلام الكتاب الصغار ، ويهدونهم الى الطريقة السليمة .. اما هنا ، فالافة مستحكمة ، والعناصر التي خدمت وتخدم الوضع الادبي في انكلترا مثلا ، هي لسوء الحظ ، العناصر ذاتها التي تعرقل وضعنا الفكري في مصر ..

فلنلق بنظرة الى أثمان الكتب : أزمة الضمير الاوربي « بول هازار » ١٠٠ قرش . أسطورة سيزيف ومجموعة الصيف « البير كامو » ٩٥ قرشا . ما بين الرجل والرجل « مارتن بوبر » ١٠٥ قروش . ثلاثة جنيهات لثلاثة كتب ..!

فكيف يمكن لهذا الشاب الذي يقتطع من قوته الضروري لشراء الكتب ان يستمر على هذا الجنون المعذب ..؟!

كيف يمكنه ان يصبح عصريا وواعيا .؟!! اذا وضعنا في الاعتبار ان اغلبهم من هواة الادب الفقراء ممن لا موردلهم .!!

كيف لايتحولون الى المقاهي والسينما والمسارح الرخيصة ، اذا كانت أقل زيارة لمكتبة عصرية تصيب الفرد منهم باللوثة وبالتوتر .. ففي كل أسبوع مائة مؤلف هام تقدمها دور النشر التي تتوج هامتها بالاسعار الهائلة ..؟!!

وحتى القراءة المجانية لاترضى الذوق الفكري للشباب . فهناك « دار الكتب المصرية » مثلا ، بفروعها القليلة .. غير ان المستفيدين من ذلك هم اولا طلبة الازهر ، والكليات العملية ، والنظرية ، باستثناء طلبة كلية الاداب . فالمفهوم ان الكليات الاخرى تخرج موظفين لا اكثر . أي ان البرنامج الدراسي مخطط ومحدود ، فليس على الطالب الا ان يتمثل هذا المخطط المحدود ، لينتهي اشكال الدراسة ... اما طلبة كلية الاداب ، فالمفهوم انهم يعدون اعدادا خاصا لمهمة فكرية . فالقراءة

الخارجية العصرية مطلوبة بشدة ، لان الوضع الادبي الاوروبي يطفر طفرات واسعة في كل صباح ، ويكفي ان نراجع عناوين المؤلفات التي تقدمها المجلات والملاحق الادبية الاسبوعية والشهرية .!! وقيمة دار الكتب المصرية بالنسبة لهذا الوضع المتقدم ، قيمة هزيلة .. فمن بين عشرات المؤلفات العظيمة للكاتب الاجتماعي الكبير اريك فروم ، هناك كتاب واحد . وليست هناك سوى مسرحية وحيدة ليوجين أونيل ، وما من عمل فني واحد لوليامز أو ميلر او فراي أو كامو أو حتى ماريا ريلكه ، الشاعر المتوفي ...

على حين تغص رفوفها بالكتب الصفراء وروايات الجيب والمراجع التكنولوجية ..

الوضع الادبي يقف بازاء المفكر الشاب كعدو ، وكل شريحة تناوئه وتعطل مجهوداته ، موجودة اصلا لخدمته وتطويره .. فأية ملهاة هي هذه .. وما ابهظ نتائجها ؟!!

الوضع المادي للشباب مسؤول اولا عن تخلفه . والوضع الاجتماعي مسؤول ثانيا عن ذلك ، فالواضح اننا مازلنا نعيش بملامح القرون الوسطى ، فما زالت توجد في بلاد عربية محاكم للتفتيش ، اقسى واقذر الف مرة من محاكم التفتيش الاسبانية ، وما زالت تعيث في واقعنا حشرات تسمى نفسها بالمدافعين عن الدين الاسلامي ، يصوبون الكهانات المدمرة التي تبيح الرقص الديني في الشوارع ، والصراخ واطلاق شعر الرؤوس والذقون ، وحمل البيارق المرقعة والشعلات النارية والطبول ... وكل ذلك بدعوى اتباع التعاليم الدينية .. اننا مازلنا نعيش بهذه القسمات المريعة .. واذا كانت هذه هي ملامحنا في المدينة ، فكم هي هائلة اذن وفظيعة ، اثار نفس الكهانات على القرية ..؟!

اننا نعيش في الجهل والريفية والبربرية ، ولست اتحدث مطلقا عن العمارات والاوتوستراد والنافورات .!!

والوضع النفسي مسؤول ثالثا . فوجودنا الراهن يتعارض مع الاحساس بالعصرية وبمتطلباتها ، وبمقدار الوعي الذي تنبته في ذهن المشغول بها . والعصرية ليست رفاهة بقدر ماهي مسؤولية وعراك وهجوم بلا مهادنة . ويكفي ان نعلم ان انكلترا هي المعقل الاول ، والمدافع شديد البأس عن الروح الاكاديمية ،وعن النظم والتقاليد .. وبرغم ذلك تطل الوجوه العظيمة لمفكري الشباب الذين لايألون جهدا في محاولة هدم الانصاب ، والارتفاع بالوضع الادبي الى مستوى خلق القيم الجديدة ، والى نشر فكرة حرية العقيدة ، وحرية التبشير بها . والانصاب التي تهاجم في الغرب وتواجه وتسحق ، هي نفسها الانصاب التي تعرقل حياتنا وتؤخرنا وتميع جهودنا . فهناك التحجر والتقليدية والاكاديمية ، وطراز الحياة الجافة التي نحياها بدون قيم متحركة حيوية نشطة متجددة ..

اذن . ان مشاكلنا كشباب هي ذاتها مشاكل الشباب الغربي . اما المختلف ، فهو الفرق بين أسلوبنا في معالجتها ، وأسلوبهم هم . فنحن ندعي ان الوضع هو المسؤول الوحيد ، فالى ان يتحسن الوضع ، وينضبط المجتمع ، سيظل كل مجهود عطالة وبدون معنى ..! اي ان أسلوبنا في مواجهةالازمة هو ذاته اسلوب حياتنا الذي يجب ان نغيره : الفرار . اللامبالاة . المكوث في عقم اللافعل . الانسحاق في تيار التقليدية ..

اما الشباب في الغرب فلا يسكت عن ذلك ، وصحيح انه يقاوم وحده .. بقدر ماهو صحيح ان الازمة بالنسبة لهم قد تغيرت ملامحها كلية .. فالجمهور يسمعهم ويقرأهم ويقرهم ، وهذا وحده انتصار عظيم ...

بماذا يمتاز مفكرو الشباب الغربي ؟!

اولا ، بخلفية موجودة في مجتمعاتهم ، تعتبر ثمرة للاعداد المتواصل الذي خلفته لهم اجيال اربعة ، منذ ان قتل اول مدافع حقيقي عن الحرية ، وهذه الخلفية لا تعد مجرد جو نفسي ، بل هي ميزة اساسية تغوص في داخلهم وتغير نظرتهم الكلية الى المشكلة التي يتعرضون لها ، هذه القيمة هي حرية الفكر .

ثانيا ، بوضوح رسالتهم وصرامتهم المطلقة ، فالكاتب يعرف قدره تماما ، ويعرف انه المدافع عن الجمهور ضد اية عقبات وقوى شريرة تترصد بالمجتمع او المستقبل . فهو يعرف مسؤولياته ، ويدرك انها لاصقة بمفهومه عن الحرية وعن التطور . فالحرية ليست قيمة ذهنية او فلسفية ، بقدر ماهي قيمة حركية طاغية ، وهي اساسا ذات شعبتين الاولى هي وعي مقدار التأخر في المجتمع ، وبالتالي وعي القيمة الاساسية لهدم هذه القوى ، والثانية تطبيقية وبناءة ، هي وعي تطلب المجتمع لقيم اخرى اساسية تخلف القيم المتلوبة ، وتنهض على أشلائها ... فوعي الحرية اذن لا يعني مجرد الهدم ، بقدر ما يعني ايضا البناء والتطوير ..

ثالثا ، باستيلاء المفكرين الشباب عنوة على حقوقهم النشرية ، وبفرض أسمائهم فوق صفحات الجرائد والمجلات الادبية . والحرية داخلة في هذا العنصر بشكل جذري ، فكما قلنا ، ان وعي الحريةيعني وعي ضرورة التغيير ، واذن فلا شيء يقف امام وعي قوى جارف .. لا الناشر ولا القارىء .. واذا كان الوضع محتاجا للبديل ، فهناك الف طريقة للوصول الى روح الجمهور ، والى اظهار الحقيقة . هناك التكتل ، وهناك المقاومة حتى الموت ، وهناك الخطابة ، والنشرات التي لاتكلف شيئا ، وهناك المنتديات وصالات الرسم والنحت .. وباختصار ، لا شيء يقف ضد الوعي الذي يريد ان يحرك الجمود وان يطور التأخر.

رابعا ، باخلاصهم المطلق ، واحساسهم بمرارة العالم الذي يحتويهم، وذلك يعني عصريتهم الواضحة .

فما من شيء يمكنه ان يعيدهم الى الوراء .. فهم يعنون بمشاكل الساعة ، وبالمآسي الراهنة جدا ، والتي يخوض فيها عصرهم ، انهم يتجاوزون النظرة الاقليمية ويحتضنون قرنهم. يقول ويلسون : « ان الحضارة الاوروبية تعاني الاحتضار والافلاس ، وان النبوة الجديدة ليست في مجرد تنحية الالة ، بل في خلق فردية جديدة ليست فردية القرون الوسطى ، انما يتحرر انسانها من هذا القلق الداخلي الذي هو ميزة للحضارة الاوروبية التي لا تجد نفسها » وجدير بالذكر ان هذا المثقف الشاب لايستطيع ان يخون التزامه بالصمت على المآسي السياسية التي يخوض فيها وطنه ، فهو يعلن بكف اليد عن الجزائر وعن قبرص وعن مصر ، وهو يطالب بتحرير القارة الافريقية وبالافراج عن كينياتا وعن الوطنيين الاخرين ... وهو ضد الدعوة الى استعمال

النشاط الثقافي في الوطن العربي

المتفجرات القرية . انه مرتبط بعصره، اوثق ارتباط واعنفه .. وهو يصرح بذلك من قلب الوطن الذي يهاجم الحرية في كل مكان .... وهو يشبه من هذه الناحية الملتزم العصري الكبير جان بول سارتر ..
اما جون اوسبورن الذي قدم مسرحية بعنوان : Look Back in Anger وترجمتها الخاطئة هي « انظر خلفك في غضب ... » فهو يسجل في امانة مخلصة ، القلق المدوخ الذي تعيشه الشبيبة الحديثة، وحاجتها لقيم جديدة . « جيمي بورتر » لا يجد الا زوجة اليسون ليصب عليها نقمة مآسيه المائة ، التي كونتها اعوامه الثلاثون .. انه اعتراف عصري ضد هذا الضنى المريع الذي يفقد شبابا غضا ، ما فيه ، واجمله ان بطل أوسبورن الشاب ، هو عجوز حطمته انواء اعوام قليلة .. وانه لايستطيع التقدم خطوة واحدة وسط دوامة حياته التي رقمها بروفروك قبل ذلك بملاعق القهوة ، ويرقمها هو بـ « .. الصحف . الشاي . المكواة .. وبعد ساعات ينقضي اسبوع ،ويولي عنا الشباب .. »

ان اوسبورن يواجه المشكلة من زاوية اخرى ويصرح بان شاغله الاساسي ليس الا القسيمة التي يقدمها له محصل الكهرباء . ولا يمكن ان يفقد العالم ملامحه السوداء حتى في عمله الفني واحلامه وأمنياته.. حتى في الخيال يظل ثمن الرغيف ، وقسط البوتاجاز هما الشاغل الرئيسي ... فالواقعية الصماء هي اذن ، بالتضامن مع قلق العصرية الشديدة ، نسيج هؤلاء الشباب الرئيسي ..

خامسا ، بوفرة الخلفية الثقافية من حيث النوع والكم. فاقل مفكر بينهم قرأ على الاقل معظم المؤلفات الكلاسيكية واعيا متعمقا ، ويكفي ان تلاحظ عدد المراجع التي احتشد بها كتاب الغريب The Outsider لكولن ويلسون والمترجم تحت عنوان « اللامنتمي » ،والمقارنة هنا بين الشباب هناك ، وشبابنا تصبح على صعيد متسع وعميق للغاية . فاي كاتب مصري وسوداني شاب ـ وذكر الاسماء غير مجد اطلاقا ، مع ان في ذهني الان اسوأ انموذج لذلك ـ اي كاتب شاب يكلف نفسه قراءة كتاب واحد قراءة صحيحة ، ومع ذلك فالغرور يتوج رأسه بالف لطخة وشامة .. ويكفي لوأد هذا الغرور قراءة عشر مؤلفات غربية جيدة، فحتى جهد المقارنة البسيط الضئيل السطحي ، يلاقي عندنا بالاهمال والاعراض ... فهل ننتظر بعد ذلك من نماذج كهذه آثارا فنية اكثر جدية وعمقا ؟؟..

ان حركة الشباب الفكرية الراهنة في العالم هي بتأثير من الجموح الناري ضد الرغبة في تعقيل كل شيء ورده الى المنطق والضرورة والتقاليد ، وشعورهم بالحاجة الى قيم جديدة ومنعطف حضاري جديد . انهم يريدون ان يعيشوا عصرهم بقيمهم هم ، وبارادتهم ... والمحاولات المدرسية المتكررة لاعادتهم الى حظيرة الاخلاق ، كما يدعوها « بريستلي» لا تجد منهم الا المقاومة والازدراء . فحتى الاخلاق لا بد من مناقشتها قبل قبولها كقيمة اساسية ، اما القسمات التي يظهر بها شباننا المفكرون فهي مخيفة للغاية .. وقد لاحظنا ان للوضع المادي والاجتماعي والنفسي دخلا كبيرا في تكوين هذا الفرار الجمعي من وجه العصرية والمسؤولية ..

ولكن ذلك لا يحتم السكون والقاء العبء على هذه الاوضاع . اذ ان اقرار ذلك يجر علينا المهانة والذل ..

اننا ندعي ان التطور وتحطيم مذلاتنا هو عبث التاريخ ، ناسين ان الصمت عملية مجرمة اقسى واشنع من برود التاريخ..

ولو أتيح لزائر غريب ـ من الكواكب مثلا ـ ان يجلس بيننا وان يقرأ أدبنا ويستمع الى اذاعتنا ، ويشاهد افلامنا السينمائية ، لخرج بنتيجة عجيبة هي اننا قد تغلبنا على مشاكلنا واوصابنا ، وان لاشيء يشغلنا غير الغرام والحب والوصال والمضاجعة .. فذلك هو واقع افلامنا واذاعتنا التي تنشر الغرام منذ السادسة صباحا ، حتى الواحدة بعد منتصف الليل ، وواقع كتبنا التي تسيل على واجهات المكتبات في تيار متلاحق طام .

ان السكوت على ذلك لايغير شيئا .. ان علينا ان نواجه ظروفنا بملامح قاسية ، وان نكرر المحاولة التي لا تني تفسد في صدورنا ، على تحطيم هذه التقليدية التي اصبح وجودها رمزا لبلادتنا وتأخرنا ...

ان علينا ان نبدأ منذ الان بالمطالبة والصياح والنداء والعراك لاقرار حرية الفكر ، فبدون هذه القيمة الجذرية الهائلة ، سنظل نكرر انفسنا ونخرج من كل عام ادبيا مماثلا لاديب متوفي ..

ان علينا ان نشارك معارك عصرنا ، وان نشارك الشباب العصري في العالم . ان نحمل مقدراتنا ، ومقدرات عصرنا، فهي حياتنا التي نحياها الان ، فاما ان نخوضها عازمين ومواجهين لكل اعبائها .. واما ان نتقدم بمنتهى الخزي الى ادبائنا الكبار الذين سكتوا ، ونقول لهم :

لقد عجزنا .. فتولوا انتم أمرنا .. وأمر عصرنا .!!

وكم يكون شأننا وحقيرا ومثيرا للتقزز !!.

القاهرة ـ **محيي الدين محمد**

★

الاقليم الشمالي

مهرجان الشعر : زوبعة في فنجان

لمراسل « الآداب » الخاص في دمشق

★

في الاقليم الشمالي لجنة للشعر يتنفذ فيها اثنان :

ـ الاستاذ شفيق جبري مقرر اللجنة والاستاذ انور العطار احد اعضائها .. وحين أرادت الدولة اتمام سياستها القائمة على تشجيع الادب وتكريم الادباء عهدت الى لجنة الشعر باختيار الشعراء الذين يستحقون التكريم في المهرجان .. ومن البدهي ان لجنة الشعر التي عاشت ثمانين حولا بين الكتب الصفر لم تعترف بالقيم الفنية الجديدة ولا بالملهمين المحدثين لذلك كان المهرجان نبشا للشعراء المنسيين والقيم الافلة ومحاولة دفن للشعراء الطالعين والقيم الفنية التي تعبر عن تجربة الامة العربية في نضالها من اجل الحرية والوحدة .

ان التعبير عن روح العصر وتزلزل القيم القديمة ومحاولة خلق قيم جديدة ، والتمزق في ضمير الجيل والتردد في نفوس الافراد بين الاخلاقية التي نشأوا عليها والمواقف الجديدة التي تواجههم ويتناقض حلها مع القيم القديمة فيتخلون شيئا فشيئا عن مفاهيم السابقة ويتصرفون باعمال ينكرونها ولكنهم مضطرون الى الالتزام بها ..

النشاط الثقافي في الوطن العربي

هذا من ناحية موقف الضمير من البيئة .. اما من حيث موقف الفرد من مصير أمته واندماجه بها .. فان الفرد في أمتنا لم يولد بطلا رغم انه بذل كل شيء في كفاحه.. لقد تدرج - على نحو ماكشف نجيب محفوظ في ثلاثيته الجبارة .

... ان التعبير عن روح العصر وولادة الانسان العربي الجديد في مخاض الامة أثناء تجربتها الوجودية هي المقياس الفني الذي يجب ان نقيم به ادبنا .. ولعل اول من تبنى هذه القيمة هو الرئيس عبد الناصر حين منح توفيق الحكيم ارفع وسام في الجمهورية العربية على مجموع كتاباته وبالاخص « عودة الروح » .

فاذا نظرنا الى شعراء المهرجان وجدنا جثثا محنطة تستمد معانيها من دواوين الاقدمين وقوافيها من القواميس الميتة . لقد كان شعر المهرجان معزولا عن روح العصر فشفيق جبري عارض ميمية المتنبي « واحر قلبـاه .. » والعقاد نسج على قصيدة المعري « تشتاق ايار نفوس الورى » والزركلي ناجى دمشق بقوله :

طويت العصور مع الكبرياء

تحدين من جشع الطامعين

وفي اليوم الثاني أنشد كل من علي الجندي - من مصر - وطلعة رفاعي وعدنان مردم .. وفي الوقت نفسه ظهر نقدنا للاتجاه الفني الميت الذي أتجه اليه المهرجان فاثار ظهوره ضجة كبيرة لان المهرجان آل الى الفشل فتراجعت لجنة الشعر عن موقفها واستدعت الشاعرين سلامة عبيد ويوسف الخطيب في محاولة لتطعيم البرنامج في يومه الثالث .. ولكن الإتجاه العام كان لغير مصلحة الشعر .. فقد كان الاعضاء الاصليون رجعيين . لذلك القى الاستاذ رفيق فاخوري رجزا على غرار المنظومات التعليمية يهاجم فيه الشعر الحديث ويدعو الى المحافظة على القيم الفنية القديمة ، كما القت الدكتورة طلعة رفاعي ومحمد التهامي و عبد الله شمس الدين . وخصص اليوم الرابع للزجل والشعر الشعبي فالقى الاساتذة فخري البارودي وعمر الزعني وسلامه الافواني. اما اليوم الاخير فقد القى فيه احد عشر شاعرا فيهم سليمان العيسى ونديم العيسى وعبد الباسط الصوفي .. لكن طابع السرعة على قصائدهم منع أيا منهم ان يجود وبذلك سقط المهرجان من مظاهرة فنية الى ... لا شيء ..

وكان كل حصاده معركة نقدية قامت على صفحات جريدة الوحدة بيننا وبين الدكتور شكري فيصل ...

اما الملاحظات العامة على المهرجان فقد كان ابرزها الحاق مغن او مطربة ببرنامج كل يوم مما حذف المسحة الادبية عن المهرجان وجعل الجمهور الذي جاء للطرب يتململ من سماع الشعر ويعكر على المستمعين .

وفي الختام لابد ان نكرر شكرنا للمجلس الاعلى لرعاية الفنون ولوزراء المعارف والثقافة .. فكل أولئك بذلوا جهدهم في سبيل تحضير المهرجان .. وان كان الذين نفذوه اساؤوا الى المهرجان وجعلوه يقتصر على فئة دون اخرى ومذهب دون مذهب على اننا لابد ان نلاحظ ان شاعرينا الكبيرين: عمر ابو ريشة ونزار قباني يعملان خارج الجمهورية ..وهذا يعني فقدان احسن العناصر الادبية في اعمال لسلك لخارجي او غيره من الوظائف .. ترى أيوحي هذا المهرجان الى المسؤولين احداث منصب « أديب متفرغ » لكي نحافظ على العناصر الحية التي تعيش للابداع وتخصب ادبنا المعاصر ؟

محيي الدين صبحي

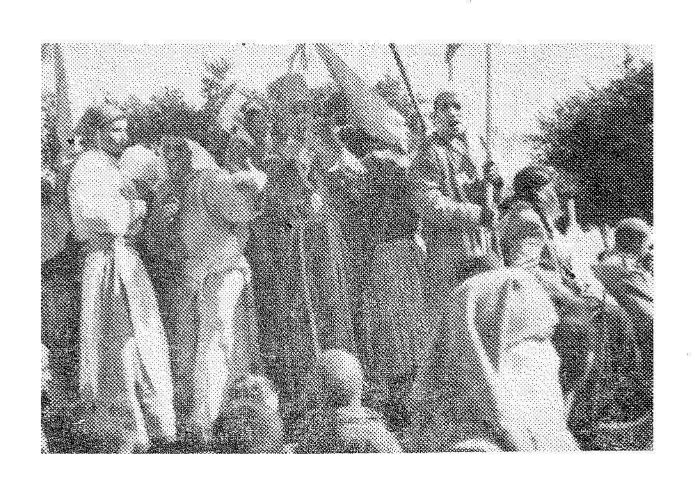
*

المغرب العربي

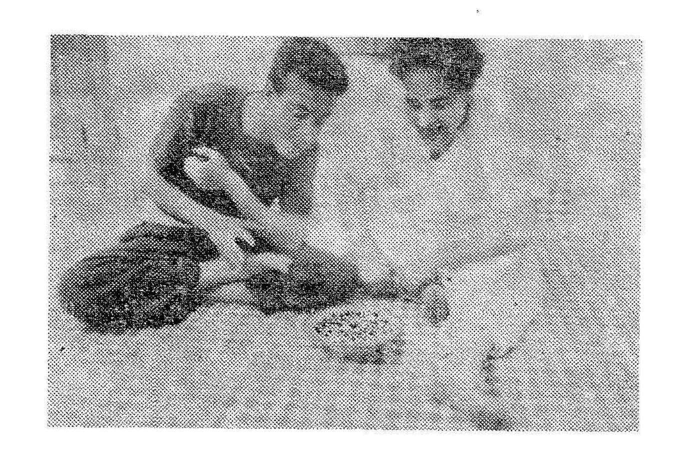
نظرة الى المسرح المغربي

يحق لمن اراد التحدث عن المسرح المغربي ان يسجل بكل تواضع ان الحركة المسرحية الحالية منبثقة من المجتمع نفسه فكلنا نعلم تلك المسرحيات التي كانت تشخص في قصر السلطان محمد بن عبدالله سنة ١٧٥٨ ثم ايام المولى الحسن والتي كانت تعالج مواضيع اجتماعية كالخارجين عن الطاعة والعقاب النازل بعضهم كما اننا لا يمكن لنا ان نغفل تلك الهزليات الشعبية التي تقدم في الاسواق « الحلاقي » والتي هي في الواقع طريقة لجلب الصدقات من الجمهور كما هو الحال في المسرح المتنقل باوربا في عصر الانبعاث . وفوق هذا وذاك تواردت على المغرب عدة فرق اجنبية كفرقة « جورج ابيض » ١٩٢١ ، وفرقة فاطمة رشدي حوالي سنة ١٩٢٣ وقد زارت هذه الاخيرة اكثر المدن المغربية واوقدت جذوة الفن بها . كما ان للشبان المغاربة العائدين من الخارج اليد الطولى في هذا المضمار كالمرحوم « محمد حصار » الذي كون اول فرقة مسرحية بالمغرب ، فعلى هذه الاسس بني المسرح المغربي الذي سأحاول اعطاء فكرة عنه .

بعد كل هذه العوامل فكر بعض من لهم ميول فنية في انشاء فرق مغربية ، فبرزت اول فرقة بمدينة طنجة وقدمت مسرحية « اهل الكهف » المقتبسة من القرآن ، وبعد العرض الاول تعرض اصحابها للنقد والتحطيم



النشاط الثقافي في الوطن العربي

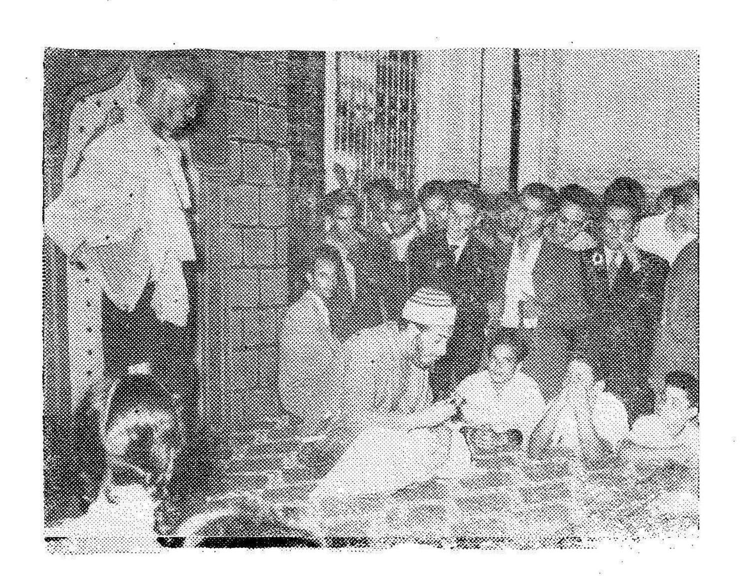


حتى ان البعض من الرجعيين رموا افراد الفرقة بالزندقة والالحاد . ثم تبعتها فرقة فاس سنة ١٩٢٥ وقدمت مسرحية « صلاح الدين الايوبي » وكان مدير الفرقة تاجرا نشيطا ومن المؤسف ان التاريخ لم يذكر اسمه ، وقد كانت هذه الفرقة تصنع المستحيل من ادارة الاستعمار لتقدم حفلة او حفلتين في السنة ، ثم تكونت فرقة ثالثة بالرباط سنة ١٩٢٧ وقدمت مسرحية صلاح الدين نفسها فلاقت نجاحا باهرا . ثم تحركت فرقة سلا بادارة السيد عبد اللطيف الصبيحي سنة ١٩٢٨ وتحت اشراف جمعية النادي الادبي وبعد مجهودات جبارة قدمت الفرقة مسرحية « الرشيد والبرامكة » على مسرح سينما « النهضة » فصادفت اقبالا وتشجيعا من لدن المتفرجين لما اشتملت عليه المسرحية من حيل كقطع رقبة جعفر البرمكي وتدفق الدم ، وقد زارت هذه الفرقة اكثر مدن المغرب . وعلى هدى هذه الحركة تحركت الادارة الاستعمارية وفرضت رقابة صارمة على المسرحيات وسنت قوانين جائرة ومنعت اقامة الحفلات الا باذن خاص، فلم يستسلم الشباب المغربي امام هذه العقبات ، وبدأ يقتنص الفرص لتقديم بعض المسرحيات في الحفلات السياسية وبمساعدة الحزب الوطني ، وكانت الفرقة تغتنم فرصة زيارة واحد من العائلة الملكية فتقدم مشهدا او مشهدين لان الادارة لا تستطيع التدخل في مثل هذه المناسبات، وكم عادت تلك الزيارات على الحركة التمثيلية بل وعلى الممثلين انفسهم . فالزيارات التي قام بها ولي العهد للنادي الادبي سلا اعطت فرصا عديدة لتقديم حفلات مسرحية متوالية من سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٥٢ . وفي غير هذه المناسبات كانت الفرقة اذا ارادت اقامة حفلة عليها ان تقدم نسختين من الرواية للرقيب ثم تتبع ذلك برسالة مسجلة تلتمس فيها اقامة حفلة ، ثم تردفها بقائمة المصروفات والابواب التي يصرف فيها الربح ـ ان كان هناك ربح ـ الى غير ذلك من العوائق والموانع والرسميات التي لا مبرر لها ، واخيرا يعطى الاذن ولا يمكن ان يعطي الا بعد ثلاثة اشهر على الاقل تعود الادارة فتطلب نصف مقاعد القاعة للسلك السياسي والمراقب واعوان المراقب كل ذلك بدون مقابل طبعا ، ويمكن ان تمنع الحفلة بعد الافتتاح، ان اراد الحاكم ذلك ! وهكذا سار المسرح المغربي مخنوقا الى ما بعد الحرب الثانية .

وفي سنة ١٩٤٧ اي بعد مطالبة المغرب بالاستقلال تطورت الحركات الفكرية بالبلاد ومما زادها اشتعالا زيارات الفرقة القومية المصرية للمغرب وعلى رأسها الاستاذ يوسف وهبي فكانت زيارته وقودا للحركة المسرحية فنشطت الفرق القديمة وتكونت فرق اخرى حتى بلغت في المدينة الواحدة ٣٤ فرقة كما هو الحال في مدينة الدار البيضاء ، والواقع ان البعض من هذه الفرق يحمل الاسم فقط ، ثم بدت الرقابة اقل شدة مما كانت عليه مما جعل اغلب الفرق تقدم مسرحيات عديدة في السنة ، وفي رمضان من السنة نفسها ١٩٤٧ طفت الحركة المسرحية فاصبحت الحفلات تقام في الشوارع كل ليلة ويتمتع الجمهور بمسرحيات شعبية باللهجة العامية وتعالج مواضيع محدودة كمشاكل الزواج وتعدد الزوجات وتعليم البنت والانفاق على التعليم ، كل هذا والادارة لم تجد حيلة لوقف هذا الوعي المتدفق الذي يسري من الخشبة الى نفوس الجماهير ، ولم تنته هذه الدفقة الا بانقضاء شهر رمضان حيث اصبحت القوانين صارمة والاجراءات لازمة لكل من يريد اقامة حفلة،بل زادت الادارة فشددتها اكثر من ذي قبل ، كل هذا والفرق آخذة في التقدم والازدهار واغتنمت ادارة الشبيبة والرياضة التابعة لادارة التعليم حينذاك هذه الظاهرة ، فنظمت « تدريبات » على الفن المسرحي ، وجاءت باختصاصيين من فرنسا . وكان اول تدريب على فن التمثيل سنة ١٩٥١ . واستغرق ما يقرب من عشرين يوما ، تسلم الطلبة اخره شهادات ، وزادت ادارة الشبيبة والرياضة فكونت من بعض الممثلين فرقة تابعة لها تعتبر اول فرقة محترفة رسمية بعد فرقة الاذاعة الوطنية وفيهذه الاثناء تاسست شركة التليفزيون المغربي

فكانت بعض الفرق من الدار البيضاء تقدم به مسرحيات قصيرة بادارة المثل « البشير العلج » ، وعلى هذا المنوال سارت الحركة المسرحية بالمغرب .

وفي بحرسنة ١٩٥٢ بدأت الادارة الاستعمارية في تنفيذ خطتها الشنيعة والتي تقضي بابعاد السلطان محمد الخامس عن العرش المغربي، وفي هذه الظروف توقف المسرح مع باقي الحركات والاندية وسمع الناس صوت الرصاص عوضا عن صوت الممثلين على خشبات المسارح ودامت الحالة الى ١٩٥٦ حيث تقرر رجوع السلطان الى العرش مع الاعتراف بالاستقلال . ولم يكد الملك يصل الى الرباط حتى كانت كل مدن المغرب تشاهد ثلاث فرق في كل بلدة على الاقل ، وقد نصبت كل واحدة منها خشبة في اكبر شارع وقدمت باستعجال كل انواع المسرحيات والقصص ، منها المقتبسة ومنها الموضوعة في مواقف البطولة التي وقفها الشعب في سبيل الحرية والملك. واستغرقت هذه الثورة ما يزيد عن الشهر ، وتقدمت اغلب الفرق بملفاتها واوراقها الى الادارة التي اصبحت مغربية صرفة ، واعترفت الدوائر المسؤولة باحسن الفرق وعلى اثر هذه التشجيعات نشطت الفرق ، فكانت تقدم الحفلات اثر الحفلات وتغتنم المناسبات الوطنية التي لا يجود الزمان مرة اخرى بمثلها كالتوقيع على الاستقلال ، وتكوين اول جيش مغربي ، وتوحيد التراب ، واخيرا نظمت كتابة الدولة في الشبيبة والرياضة مباراة لفرق الهواة شاركت فيه اكثر من ستين فرقة كان الفوز من نصيب خمس فرق رتبت اخر المباراة هكذا :



١ ـ جمعية الطالب « مراكش »

٢ ـ فرقتي « المسرح الشعبي ـ سلا ـ و «فرقة الهواة ـ فاس ـ »

٣ ـ فرقتي « نجوم الاطلس للمسرح والسينما ـ البيضاء ـ » و «فرقة الحجرة السودة ـ وجدة ـ »

ووزعت على الفائزين جوائز مالية . هذا مع العلم ان هناك فرقا لم تشارك في هذه المباراة الفنية والبعض منها لا يخلو من ممثلين مقتدرين وبهذا المهرجان ختم الموسم المسرحي الاول في المغرب المستقل سنة ١٩٥٦!

بعد هذه النظرة الخاطفة حول المسرح المغربي الناشيءتحتم علينا ان نعلم ما هو نوع المسرحيات التي تشخص على خشبته ؟ الواقع ان اغلب الروايات مجلوبة من الشرق وهي اما مترجمة عن الانكليزية او الفرنسية واما عربية صميمة من تأليف احد الاساتذة المعروفين، ولا تخلو الخزانة المغربية من مسرحيات مغربية رفيعة او قصص ممتازة يقدمها كل من الاساتذة عبد المجيد بن جلول صاحب « في الطفولة » و « وادي الدماء » والاستاذ عبد العزيز بن عبدالله صاحب مسرحية « الالم السعيد » والسيد عبدالله شقرون في الروايات الاجتماعية والاخلاقية ، ويجيد اكثر اذا كانت باللغة العامية كمسرحية « الجوع » و « التفاحة » و « المعلم دهرو » ، والسيد ادريس الوزيري صاحب المسرحيات العاطفية التي يغلب عليها الحب كمسرحية « صراع مع الحياة » التي نال بها الجائزة الاولى في المباراة الفنية ، وهكذا ترى ان المواضيع تكاد تنحصر في مواقف البطولة ومحاربة العوائد الفاسدة وتشجيع المنتوجات الوطنية كما جاء في مسرحية «اسباب الكساد» .

وعلى كل حال فالمسرح المغربي والمسرحية المغربية لا زالتا في طور التكوين ولم يمض على تحريرهما من قبضة الاستعمار سوى بضعة شهور ، فما على المؤلف المسرحي والممثل الا ان يشمرا عن ساق الجسد لان عذرهما قد ارتفع ، ولم يبق امامهما الا العمل ، والعمل المثمر النافع الذي يرضي الفن عسى ان يدرك المغرب قافلة المسارح الفنية الرفيعة وهو مدركها بحول الله .

سلا — **محمد بنعياد**



العقل البشري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

القضية التي طال امدها ، اذ ان صاحبها لم يكن ليقتنع بان يؤمن على حياته حتى ولو كان تأمينا من الدرجة الثالثة . ولكنه لم يجد المدير، واخبروه بانه لن يعود قبل الخامسة ، فوعد مونتوفيو بان يرجع اليه، وهبط قفص المصعد الاسود . واذ بلغ الطابق الارضي، اخذته تلك الحاجة، تلك النزعة التي لامبرر لها حقا ، والتي لم تبلغ بعد ان تكون خطة .

وكان يبدو ان هذه النزعة التي تولد فيه توحي اليه بان « الفكرة شيء ، والوقائع شيء اخر. فان الفكرة لا تقتل تماما ما لم تقابل بالواقع نفسه » .

واخذ يسير سيرا مستقيما حتى لا يستشعر الخجل في مناقشة الفكرة . ثم ان الوقت كان ذا سعة امامه. لقد كان منزل بورديفيرا قريبا من ساحة « الريبيليك » : انه ثاني البيوت الثلاثة المتشابهة في شارع يمتد من الشرق الى الغرب ، وهو غاص بالمخازن ودور السينما . واجتاز مونتوفيو مدخل الشوارع بعصبية طالب او ممثل مبتديء ، ولاحظ وهو يرى نفسه فجاة في واجهة احد المصورين انه كان ممتقع اللون، ممتقعا مخضرا، وان ظل الوجه لم يكن سببه انه لم يحلق ذقنه ، بل كان سببه اضطراب سحنته .

وكان يعلم انه لن يهدأ نفسا حتى يراه . وكانت الافكار قد راودته في غير مناسبة. وكان يحب ما هوعملي، واضح ، وما لم يكن يفسح المجال لاي شك . وقد كانت هذه الحاجة المفاجئة للتجسس ، هذا العمل الثقيل الذي لا يعترف به ، مثلا له بصورة فظيعة لو لم يسبق له ان درسه كما يفعل الان على ضوء متطلبات طبيعته بالذات. بحيث انه اعتبره كتحريض طبيعي لاعمق نوازعه ، هذه التي قد تكون اقلها وضوحا ولكنها اشدها انسانية بالتاكيد.

ولم يقض اكثر من عشر دقائق ليبلغ ساحة البيوت التي كان ينتصب فيها مبنى المساكن التي اتخذ بورديفيرا في احداها منزله العزوبي . وقد احس مونتوفيو طوال الطريق بذلك الخوف المبهم الذي تخلفه كل تجربة ندخلها سالمين وقد نخرج منها منهارين . وكان يضخم طبعا بصورة ثقيلة وكثيفة كل ماكان غير مجد وغير معقول في نوع التجربة التي يمارسها : ومع ذلك ، فلم يكن هناك اي سبب في الدنيا يستطيع ان يثنيه عن القيام بها : بل على العكس ، فان كل عقبة تنتصب فجاة لتمنعه من الوقوف مترصدا باب بورديفيرا ، كانت ستزعجه ابلغ الازعاج وستثير لديه احتجاجا شديدا ، قويا ، شبه حيواني .

كان عليه الان ان يرى . وهل كان بوسعه ان يرد ذلك الحدس الكبير الذي تكشف عنه العينان نفسهما ، حدس البداهة ؟ لقد احس باحساس غريب من الاستياء والحزن حين انتقل الى الرصيف المقابل ، امام باب المساكن . وكان الممر الواسع المظلم ينفتح خاليا امام المصاعد. ومر مونتوفيو . وراح يتوقف قريبا من زاوية الشارع ، عند مدخل احد الممرات الضيقة ، حيث يستطيع ان يراقب البيت الذي يشغل ذهنه كما يراقب رقعة طويلة من الرصيف المقابل . وكان بالقرب من المكان الذي وقف فيه حانوت للحاجيات الصينية يعرض واجهتيه اللتين كانتا تكشفان عن تمثالي رجلين ألبسا ثوبين اسيويين واسعين ازرقين بلون السماء مصنوعين بحرير بلغ من رقته ان الجوانب المدعوكة منه كانت تبدو وكانها ثنيات اضافية مصنوعة عمدا . وكانت تتراكم بالقرب من الثياب الفخمة اعلام صغيرة وستائر مزدانة وصولجان قديم وزوجان صغيران من الاحذية السوداء .

وبعد ان وقف مونتوفيو امام الباب الكبير ، جعل ينتظر وهو يتفحص بعناية الحوانيت القائمة الى جانب الدكان الصيني ، فلم يجد فيها مايشبهه في القدم والجاذبية . واستقرت عيناه لحظة على المتنوعات الريفية ، ولكنه في اللحظة نفسها اخذ يفكر ، كانه مقود بجزر تيار فكري واحد ، تيار متدفق،مائع ، بما عساه يحدث له لو خرجت اليس ذات لحظة من هذا البيت . وتحول حسابه الى غضب . ووعى اليقين الذي يمنحه اياه كون الدليل بين يديه في حالة قيام الخطيئة ، وقد قساه هذا الوعي واستثاره. كان كذلك كانه يقول لنفسه : « انني اقبض عليك ، فها انت الان في الشرك . انك لاتستطيعين ان تفلتي من الكذب ، الا ان تأتي توا الي ، ان تمثلي امامي. » واحس انه واثق من نفسه ، ورأى ان بوسعه ان يبقى الساعات الطوال حيث هو بلا حراك .

ولبث لحظة وهو على ذلك . وكان الناس يلمون به غير عابئين بما كان يبرمه ، ولم يكن اي موضوع صميمي يشغلهم في الظاهر ، وانما كانوا على عجل ، وكانوا محايدين . كانت له هو وحده قضية تحتاج حلا . كان نظره مشدودا الى واجهتي الحانوت الصيني ، ولكنه كان في اعماقه يجتر افكاره بلا هوادة ، محاولا ان يقسر ذاكرته على ان تمنحه نقطة يستطيع ان يسند اليها امكانية ظهور زوجته عند بورديفيرا . وتذكر حركات وبسمات . وكان يتذكر نفسه ، ويراه وحده مهيض الجناح بمشاركة اليس وبورديفيرا الغرامية ، وكان ينمو في كبده كره مرير حاقد ، يورث لديه الغثيان ، تجاه هذا الحدث الظريف ذي النظرة العسلية والملامح الدقيقة الذي دعاه يوما الى منزله . وبعد انتظار ربع الساعة الاولى ، شعر بنفاد صبر حائر قلق يزعجه ، بشيء يشبه الشعور بانه كان يريد هو نفسه ان يخلق الشر والمصيبة وانه لايسعه بعد الان ان يفلت من عواقب خلقهما .

وحين بلغت الساعة الخامسة والنصف ، ولم يخرج احد من البيت ، قال لنفسه بخجل وبعزاء مبكر انه لم يكن في منزل بورديفيرا احد ، حتى ولا بورديفيرا نفسه ، وان من العقل والرجولة ان تعتبر التجربة منتهية وان تسقط الشكوك والافكار السيئة والتصورات المعيبة . ولكنه سرعان مافكر بانه كان هناك ، وانه اذا انتظر لحظة اخرى ، فسيكون اوفر تأكدا من صبيانية جنونه ومن طابعه الهوائي المتحدي .

واخذ ينتظر بنصيب اوفر من الهدوء والسكينة ، مقنعا نفسه بيقينية ان احدا لن يخرج من البيت . انه سيزداد رضى مازداد انتظارا . كان بوسعه ان يبقى هناك حتى الثامنة او التاسعة ، وقد يرى بورديفيرا قادما في ساعة العشاء . اجل ، لعل هذا نفسه كان ممكنا . وشمله احساس بالهدوء والامن ، فغادر المكان الذي كان قد توقف فيه وتوجه على غير عجل الى واجهتي المخزن الصيني حيث وقف يتامل القطع المعروضة بودواهتمام. فالفاها عجيبة تفرض شخصيتها ، في مجموعها تفاصيلها ، وتنم عن حضارة دقيقة مخيفة لم يكن يريد ان يعيش فيها ساعة واحدة .

ثم اتجه من جديد الى برج مراقبته . وحاول ، لكي يقضي الوقت بشيء من نفاد الصبر ، ان يجد شيئا يستلفت انتباهه على هذا الجانب من

الرصيف ، ولكن لم يكن ثمة الا واجهة بليدة لصباغ وصف رتيب للوحات المهنية عند زاوية باب قديم . واقترب ليتفحص احداها .

وكان ذات لحظة موليا ظهره البيت الذي ظل يراقبه حين حملتـــه غريزته على ان ينتقل فجاة مترددا مضطربا : كان بورديفيرا خارجا مـن منزله بصحبة امراة ، امراة هزيلة ، ترتدي ثوبا وحذاء فاتحين . ولقـد رآهما من بعيد ولم يكن يجد الوقت ليختبىء قبل ان يتأمل من جديد ، وهو يمد رأسه خافق القلب ، ملامح المراة التي كان بورديفيرا يوقف معها في تلك اللحظة سيارة اجرة ويستقلانها ، وقد اخفت السيارة الرجـل والمراة لحظة ثم اقلعت بسرعة وألمت به عن كثب .

وكان قد رآها بوضوح كلي ، فتوقف قلبه عن الخفقان . وارتمى الى خلف كمن يتجنب ضربة فأس . وابتعدت السيارة فخطا مونتوفيو نحـو الشارع خطوة تحررية ، بتلك الاندفاعة الضعيفة التي تخلفها الهزة فـي جسمـــك .

لم تكن المراة التي خرجت مع بورديفيرا هي اليس . الحمد لله ! لـم تكن لها علاقة بزوجته .ولقد وضحت لديه هذه البداهة منذ النظـــرة الاولى اذ رآها وهو واقف على الرصيف ، وحين انزلقت ملامحها امامـه اذ دلفت الى السيارة بالقرب من بورديفيرا . كان وجهها هزيلا شديـــد التميز والبياض ولم يستطع ان يحفظ ملامحه تماما ، وكانت ترتدي ثوبـا واسعا فاتحا يوحي بانها اجنبية .

وتذوق مونتوفيو لونا من الفخر كما لو ان جميع عروقه تفتحت فجاة في انفجار سعادة مباشرة . وغمره في الوقت نفسه ، على غير تمييز ، نوع من الخجل من نفسه كان يستشعره بسعادة ، واحساس غريب ملتهب بالود نحو بورديفيرا ، احساس يشبه العرفان . وقد كان جديرا به تلك اللحظة ان يعانقه وان يجعل منه آلهـا .

واستطار ذهنه الى بيته في اوليفوس ، فكشف له من جـديد دارا نبيلة سعيدة يجلس على عرشه وجه زوجته الشريفة البريئة من كـل ظن . وخيل اليه انه لن يستطيع الا ان يروي لها هذه المغامرة في المساء نفسه ، وسيكون فيذلك طلب صامت بالصفح .

وكانت شمس ذلك الاصيل الصيفي ماتزال مرتفعة ، وكانت غبرة ذهبية خفيفة تضع ملمسها المشع على اطراف البيوت ، فاصلة هكذا المادة عن المدى بالنور . وكانت المدينة تلتمع ،ويبلغ السير ذروته.وتنشق مونتوفيو النور وقد كان بوده لو يتلفن فورا الى بيته ، ولكنزوجته لن تكون فيـه تلك الساعة ، غير انهالابدقريبة منه ، في شوارع متماثلة . وفكر في ان لديه بعض الوقت لرؤية مدير فاراس راي ، فسلك احدى الطرقـات الهابطة ، فرحا ، ممتلئا ثقة وحماسة . ودلف بخطوة خفيفة الـــى « الدياغونال » ، فبدا له عامل المصعد نفسه وكانه شاهد ونصير .

واستقبله مدير « فاراس راي » بكتفيه الهرقليتين وفمه الهزلي متدرعا بمزيد من الاحتراس . وكان وحيدا ، جالسا في مقعده براحة ، خلـف مكتب يشبه المكاتب الخمسمئة القائمة في ذلك المبنى الرمري الفخم . وبدأ المدير يقول : « اسمع .. اسمع .. » ثم القى عليه للمرة السابعة والثامنة الحجج التي تحمله على الا يؤمن نفسه ، على ان يفضل الا يؤمن نفسه . واضاف المدير وهو يرفع كتفيه الهرقليتين المعبرتين ، وكانما هو يعتذر :

ــ ليس من المناسب ان ارهق ميزانيتي بنفقات جديدة ...

فصاح مونتوفيو :

ــ بكل تأكيد . انت على حق . اعتبر انك على حق كامل . اعذرنـي فلن الـــح عليك .

واستاذن اخيرا وهو يجدد اعتذاراته . وكان بوده لو يقلد المديـــر العاصي وساما ، لو يركع امامه ملتمسا الصفح عن فضوله، وعن ازعاجه اياه وعن الحاحه ازاءه ، وخرج تتقدمه اعتذاراته المتكررة .

وكان فمه ضاحكا والفرح ينفجر في روحه :

على حق كامل !

ماذا يهمه ذلك كله ؟ لقدكان غارقا في الفرح . وكان معجبا بامرأته ، وكان يشعر بانه يولد منجديد . اشهر قليلة ، ويصبح منزل اوليفوس له ، وسوف يتناول العشاء مع اليس مساء ذلك اليوم ، وسوف يفتـح النوافذ لرطوبة الصيف الليلية ، وستدخل المنزل طمانينة النـــاس الهادئين ، فما عساه يامل اكثر من ذلك ؟ سيكون بوسع بورديفيرا ان يواصل زياراته الى الابد ، لقد كان اسمه هو مونتوفيو ، ولن يلم بذهنه بعد الان اي شك .ياالهي ، اذا كنا حقا اسياد عقولنا ، فلماذا لانكـون اسياد محاكماتنا العقلية ؟ لماذا ندع لطيور الخارج المتوحشة ان تكتسح مدانا الداخلي الصغير ؟

ونظر الى الساعة ، وكانت السادسة والنصف ولم يكن بوده ان يعود الى الشركة . فما الفائدة ؟ لقد كان بعد ظهر ذلك اليوم شبيهـــا بثمرة ناضجة . وكان ذهب مزرورق يتحدى الجو . وكان خير الامور ان يتذوق حريته ، وان يرى الناس يمرون ، وان يتوقف امام الواجهـات وان يضيع بين كثير من هؤلاء الناس المستعجلين . ومشى طوال ساعة ، وزار المرات التجارية الملأى بالحاجات الثمينة المعروضة للبيع ، وقرأ ارقام الصيارفة ، وراقب النساء اللواتي كن يمررن به ، وتوقف امـام باعة الحاجات التي كانت تثير اقل انتباهه ؟ ولكنه شعر بعد ذلك بفجر غامض ، وبتعب ما . ماالذي كان يستطيع ان يفعله ؟ وتذكر مطعـــم « غامبرينوس » الذي كان يحبه كثيرا ، فتوجه اليه .

وكان مطعما كبيرا مظلما مغلف الجدران باخشاب رصينة ، مزدانـا باواني ثمينة من « بافيير » مع مصاريع وزجاج مزرق كان يفصل الحجرات الصغيرة الخاصة فيما بينها . ولم يكن نور النهار يدخله الا من شبـاك صغير مرتفع . وكانت صحف مطبوعة باحرف غوطية لاتفهم معلقـة بقضبانهـا .

وجلس مونتيوفو الى احد طاولات الصالون وطلب الطعام المعتـاد . وغمره شعور راحة ونضارة لا متناهية . كان على الطاولة صحفة مـلأى « بالبريتزل » وآنية صغيرة بيضاء للخردل .

واخذ يستعيد نهاره على مهل ، منذ البدء : محادثته مع اليس ، ورحلة الاوتوبيس ، والشكوك التى تتجسد ، والفداء المليء بالمرارة ، وحركات تجسسه ، والضيق الذي اعتراه ، واخيرا مفاجاة الظهـور . وكان شعاع سريع قد اضاء المشهد . ولم يلبث الا لحظات ثم اختفـى ومع ذلك فقد كانثمة وقت اوسع مما ينبغى ليشمل بنظره المراة ووضعها وملامحها المختلفة اشد الاختلاف عن ملامح اليس . وقد اتيح له ان يرى الود المحب الذي كان بورديفيرا يغلفها به . وحين المت السيـــارة به ، كان كلاهما يضحك ، وكانت هي منحنية بعض انحناء الى الخلف، وكان هو فرحا نابضا .وكانت المراة ترتدي ثوبا فاتحا جدا وقبعة رصينة مائلة بعض الميل الى جانب ، قبعة لم تكن تغطي الا قسما من رأسهـــا .

وكم نظر اليها مونتوفيولدىمرور السيارة المسرعة ! ولم يكن يستطيـع ان يتذكر ملامح المراة ، وانما رأى انها لم تكن ملامح اليس ، رأى ذلـك في ضرب من العلمالمضيء ، العام ، المتفوق على المعرفة الخاصة . لقـد

تعلق النظر تعلقا قلقا في تلك اللمحة التي كانت تمر ، لم تكن أياها ، وكان هذا بحسبه . ولقد راى رؤية واضحة .

وتناول مونتوفيو جرعة من كاسه ، ففوجيء على الفور وهو يفكر بانه يستطيع ان يجلب معه شيئا الى البيت، ذلك المساء قطعة لحم مهروسة، او قطعة من لحم الخنزير ، وهما شيئان كانا يروقان لاليس. لقد مضى عليه وقت طويل وهو يصل الىالبيت فارغ اليدين ، وهو لم يلاحظ ذلك حتى الساعة . ان لنا جميعا نصيبيا في التغيرات التي تحدث وتعكر شيئا فشيئا علاقاتنا . وان الوان التودد هامة دائما . ان عاطفة آذيناها او جرحناها يمكن ان تتحول فجاة الى دواء مرير الطعم ، او الى جرح او الى مذاق حامز . فلعل وحشية اليس كانت معزوة الى سلسلة من الاثارات اللاواعية عنده ، اثارات رقيقة ، صماء ، مجهولة ، من تلك الاثارات التي تظهر وتنمو بالخفية مع نمو الامراض المميتة . وأجال نظره في القاعة ، وكانت رطبة مظلمة . وحملت له نسمة فكرية ، كانما لتنعشه من الضجر والتعب ، صورة المراة التي راها تمضي مع بورديفيرا وصورة السيارة ، والتحرر الذي احدثه المنظر في نفسه . وجاءته فكرة متدرجة بان امرا واحدا كان غريبا .واستعرض المشكلة . كيف يمكن له ان يشرح لنفسه انه لايتذكر على الاطلاق الملامح الدقيقة للمراة ؟ لعل ذلك عائد فقط الى سرعة السيارة ، والى اضطراب تلك اللحظة ، والى الحاجة الاولية الطاغية في ان يتاكد من انه لم يعرف وجها ما قبل ان يتفحص الاخر بصورة مجدية ...ان ماهو مؤكد انه رأى طيفا ليس هو طيف اليس . وخارج ذلك ، اليست جميع الاطياف متشابهة ؟ لاسيما اذا كانت ترتدي ثيابا تحددها في جنس معين وتميزها من اطياف اخرى . واذن ، فان اليس لم تكن تحمل ذلك الوجه ولم تكن ترتدي ذلك الثوب . صحيح ان النساء جميعا يتزين بالطريقة نفسها ، وان اليس كانت هي ايضا شقراء ، كامراة السيارة . ولكن لماذا لم ينظر الى الملامح نظرة ادق ، ولماذا لم يكن يعرف حقا « كيف » كانت تلك الملامح؟ وترك مونتوفيو كأسه على زجاج الطاولة. اتراه كان قد رأى جيدا ؟

وغمره فجاة نوع من الضيق او من الانزعاج ، انزعاج فكري لايمكن شرحه ينبعث بالرغم عنه . لقد كان هو نفسه مشهدا من غير شك !اليس هو مأخوذا بالشكوك الان ؟ وهل كان من الممكن طرح مثل هذه الاسئلة ؟ لقد رأى بعينيه ، بعينيه . لا بعيني الاخرين ، وانما بعينيه هو ! وتلك المراة لم تكن اليس ! ان لها ملامح اخرى ، انها كائن مختلف كل الاختلاف وذلك الثوب ، بعد ! بالرغم من ان اليس كانت تملك ثوبا فاتح اللون . ثوب من الحرير الابيض.ولكنها كانت تحتفظ به للصيف . وسخر مونتوفيو من نفسه ! انه كان وما يزال فريسة الانطباعات المتناقضة .

ولكن سخريته جلبت تاملا ملحا ارتد عليه . وظل عقله يعمل بالرغم من ارادته . ورفع عينيه فراى زبائن المطعم القليلين يتحدثون ، كما رأى امراة سمينة متبذلة شقراء تتناقش مع رجلين المانيين . وهذه المراة ايضا لم تكن تشبه امراة السيارة . ولكن كيف كانت امراة السيارة حقا ؟ واصر على ان يفكر فيها ، وقام بجهد قصير مبهم في ذاكرته . ولكن عبثا فعل ، فهو لم يتمثل الا شيئا ما عاما ، وجه امراة ، وجها نمرذجيا . ولكنها لم تكن اليس طبعا . فلنفرض ان الثوب اختلط علينا ؟ فان الملامح كانت مختلفة بلا شك ، وكذلك الوضع . وليس هذا انطباعا قد احس به ، وانما هي البداهة عينها . صحيح ان النور كان يستطيع ، وفق الطريقة التي ينعكس بها على الاشياء تفاصيل وجه ما ، بينما يظل اللون والسحنة هما نفسهما . ولكن مافائدة المحاكمة العقلية اذا كانت المراة مختلفة ، اذا كانت امرأة اخرى تماما ؟ ان البداهة ليست هي الانطباع . ان سرعة ظهور الملامح قد تقلب انطباعا او تشوهه ، ولكنها لاتستطيع ان تقلب امرا بديهيا او تشوهه .

ونادى الخادم ، وطلب كأسا اخرى ، وظل مطرق الرأس ، تعبا بعض الشيء اقل سعادة مما كان من قبل . لقد كان غالبا فريسة هذا النوع من الخيبة تجاه نفسه ،هذاالانهيار المعنوي المرير الذي سمم كثيرا من فترات حياته . وتمثل المشهد مرة اخرى ، وهو شبه غاضب على نفسه ؟ وتذكر اللحظة التي توقف فيها امام منزل بورديفيرا والوضوح الكامل الذي ميز به الاختلاف بين زوجته وبين المراة التي كانت خارجة .وتعلق بتلك الصورة الحسية ، محاولا ان يمنح ذهنه سلطة المخلب . ولكن راسه لم يكن قط مخلبا ، ورويدا رويدا نبعت في ذهنه الوان من الحجج والافتراضات السيئة القصد والعناصر المتناقضة التي لم يكن يستطيع ان يحصرها او يحذفها . لقد كان انسانا بليدا . فلماذا كان ذلك الشك يذر قرنه ؟ ايمكن الا يكون قد رأى بوضوح ؟

وانقاد لسلسلة من الذكريات التي تراكبت فوق وقائع ذلك الاصيل ، فقال لنفسه ان سببا ما قد دفعه الى الترقب والرصد . كان بديهيا ان اليس كانت تكن شيئا في قلبها . وكانت السيارة التي تقل بورديفيرا وصديقته قد مرت بسرعة لاتتيح للنظر ان يدرك الا رؤية دائخة . دائخة ؟ بكل تاكيد ، قابله للدوار . امن الممكن ان يكون قد خدعه الدوار ؟ وظل بضع لحظات قابعا معنويا ازاء هذه الفكرة ، ثم اتته الحجة الاخرى ،

الفكرة البعيدة الصميمة بان رغبته بالا يعرف اليس في تلك المراة يمكن ان تكون هي التي دفعته الى ان يبتسر حتى الانطباع النظري. الانطباع؟
ولكن مع ذلك ، الم يكن للبداهة علاقة بالانطباع ؟ ان الامر متشابـــه الان . وظل مشدوها عمليا ، وقضى بضع دقائق قبل ان يصدر ردفعله .
وفكر في نفور ، بلحتىفي اشمئزاز ، بان لون شعر المراة يمكن ان يعتبر من بعيد على انه لون شعر اليس. ولئن كان يذكر الثوب الفاتح الذي راها ترتديه في الصيف الماضي ، فلا يسعه ، بطريقة شريفة ، الا يدع مجالا للشك. ومنذا الذي لا تخدعه رؤية سريعة ؟ الا يمكن لوجه واحد او لطيف واحد ان يظهرا فجأة وكانهما مختلفان اذا اخضعا لتاثير ظروف نفسية معينة لدى المراقب ولتشويهات معينة في مختصر الصورة او مكانها او حركتها ؟ فلعل المراة التي بدت له انها ليست اليس كانت اليس بالذات . ولم لا ؟ اكان بوسعه ان يثق ثقة مطلقة في رؤيةنسبية ؟ بل هل كان بوسعهان يتعلق بصورة لم يكن يستطيع ان يبني خطوطها مجددا في ذاكرته ولا يعرف كيف كانت ؟ على ان الانطباع الاخر ، بالمقابل ، كان حيا ، الحدس الاخر ، الفكرة الاخرى : ظل ذلك الاعتقاد الصميمي الذي كان قد حمله على التفكير تدريجيا وبصورة متكررة بان هناك ، بكل تأكيد شيئا ما بين زوجته وبورديفيرا . ولكن لماذا تراه كان يمزج هكـــذا البديهيات ؟ اجل ، كان يخلطها ، ولم يكن بوسعه الا يخلطها ، ولـــم يكـن يستطيـــع ان يقاوم اندفاعة كيانــه تلـك ، وهــا ان البداهتين ، الاستقرائية والنظرية ، تتراكبان وتختلطان ؟ وها هو يشعر في رهبة غامضة ، بان الاولى كانت تسيطر تدريجيا على الثانية .
وبالاختصار ، لم يكن ليعرف شيئا ، بصورة يقينية واضحة جديرة بالايمان ، عن المراة التي راها تخرج مع بورديفيرا . لقد كان يمكن ان تكون اية امراة وحتى اليس . امراة ما ، شبيهة باليس . وتساءل في اعماقه : « لننتظر ! » وجعل يرهق نفسه ويجهدها كما يفعل امام شاهد دعوى : « لننتظر ! كيف كانت تتميز ، كيف كانت الاخرى ؟ »
وظل مأخوذا امام السؤال ، متفكرا ، عاجزا عن الاجابة . وها انه يبدو له بعد الان ، بصورةواضحة ممكنة سهلة الادراك ، بانه قد خدع بسرعة الرؤية ، وان المراة يمكن جدا ان تكون ، في الواقع ، أليس .
واستولى على مونتوفيو اضطراب شديد ، وتراكم في ذهنه فيض من الحجج المعاكسة . اتراه كان من جديد ضحية كذبة ؟ او كان من الممكن ان يصدق ؟ انهلميكن من ذلك على يقين . انه لم يكن على يقين من شيء . وان بوده ان يفعل المستحيل ليعود الى خلف ، الى اللحظة التي رأى فيها المراة تخرج مع بورديفيرا ، ان يفعل المستحيل ليمكنه تثبيت تلك اللحظة التي لم تكن قابلة للتحقق التي لم يكن ممكنا ان يحكم على حقيقتها . شعر بخفق اوفر الافكار جموحا واكثرها تنافقا ، كانها ساعة اعيد ماؤها ، وكان يخيل اليه ان الارض تميد تحت قدميه ، وان اي جسم لم يكن ليغطي فكره المرمض المرهق ؟ وفي تلك اللحظة جعل نبضه ايضا يخفق بقوة ، فاذا بعاصفة من الحقد الداخلي على بورديفيرا ومن الحزن الغاضب والمرارة تجاه امرأته تهز روحه .
ونهض نهضة مضطربة عنيفة فاوشك ان يقلب آنية الخردل وصحن « البرتزل » والكأس المستقرة على الطاولة ، وتوجه نحو المكتب وتناول سماعة التلفون بيد مضطربة ، وادار بقلق رقم بيت « اوليفوس »وانتظر لحظة ، متدلي اليد ، ليقطع رنين الطلب رفع السماعة الاخرى . ولكن الحاح الرنين استمر بلا انقطاع ، مهددا بان يظل انى جواب .
وعاد مونتوفيو بعد ذلك الى طاولته . وكان يحسب انه يتمثل مشهد الاصيل والمراة التي تخرج من بيت بورديفيرا. ولكنها كانت الان في ذهنه زوجته هي التي تخرج ، ولم ينتشوه من جراء ذلك الانطباع الذي كان يحفظه من الاخرى . ولكن هل كانت هناك امراة اخرى ؟ لقد كانت الصور تتجاوب فيما بينها ، ولميكن يستطيع ان يحكم بانها كانت تتمايز ، كما انه لايستطيع ان يحكم بالعكس هل كانت هناك امراة واحدة ام امراتان ؟ انه لم يكن يملك اي دليلعلى ذلك ، وكان هو نفسه يرى ذاته وسط تردد وحيرة كاملين .
واحس ان يأسا باردا يكتسحه ، عصبية راعشة ، مردها الى عجزه عن البت والتقرير والاختيار بين معطيات عقله وبقايا ذكرى رؤيته . لم يكن شيء مما رأى باقيا على وضوح وتميز وانحسام . ولم يكن يعرف من ذلك الان اكثر مماعرفقبل تجسسه امام بيت بورديفيرا . بل انـه الان اكثر اضطرابا واشد عجزا وضياعا .
ورمى على الطاولة قبضة من القطع النقدية . واندفع الى الشـــارع . وهناك كان هو سيلادينيو مونتوفيو ، وكيل التامينات ، موليا ظهره باب مطعم « غامبرينيوس » لايدري مايفعل ولا الى اين يذهب ، وقد ارتخت شفته السفلى في تعبير مذعور ، مشلول ، مصعوق .

ادوار دو ماليا

ترجمة سهيل ادريس